ميسره الدندراوي

آثار جانبية

رواية

الرواق للنشر والتوزيع

آثار جانبية

إهداء خاصّ

«إليـكِ...»

إلى رجل وامرأة لم يبخلا عليَّ يومًا بأيِّ شيء

فصنعا مني كل شيء

إلى أمي.. إلى أبي

نعم.. لقد تولدت.. إن الليل والجحيم لابد أن يجلبا هذه الوحوش إلى العالم

ياجو.. شكسبير

تنويـه

كل ما ورد من أسماء أو أماكن أو أحداث هي أسماء وأماكن وأحداث حقيقية من وجهة نظر المؤلف.. وقد تكون غير حقيقية أيضًا.. لذا لا تشغل بالك كثيرًا!!

(٠)

الظلام.. الساعة الخامسة والعشرون

إنه الظلام..

أصوات طبول الحرب تأتي من بعيد في لحن تصاعدي متوجس.. وأصوات نفير مكتومة تعلن أن الوحش قد جاء ليبسط سلطانه على الوجود..

إنه الظلام..

الوحش الأقوى والأكثر شهرة بين بني البشر.. الوحش الأول الذي قد يولد معك وينمو معك منذ أن كنت طفلًا رقيقًا هشًا.. طفلًا تكرهه وتمقته مقت غرفة الفئران الضيقة، ومقت صوت جرس الحصة الأولى.. وشابًا تهواه وتعشقه.. ورجلًا تهابه مهابة الموت.. ما الظلام إلا موت محدَّد المعالم تعرفه.. إلا أنك تهابه.. تهابه وإن كنتَ تنكر ذلك..

إنه الظلام..

ظلام بِكر.. ليس كمثله ظلام.. إنه ظلام خالٍ من الشوائب والإضافات الصناعية!!

هل تذكر أول علاقاتك المتشابكة الفريدة مع هذا الظلام الوليد.. هل تذكر أول صراعاتك الوهمية مع كل أشباح الأرض وهي تتأهب للفتك بك.. وأنت تغلق عينيك الصغيرتين حتى تعتصر جفنيهما ظانًا أنك تختفي منها وتتساوى معها في قوتها التي تكتسبها من ذلك الكائن الفريد المتفرد.!!

إلى من لا يطيق هذا الظلام.. أدعوه أن يشاركني هذه اللحظة الجميلة من الصفاء النفسي.. شعور عميق بأنك عدت إلى رحم أمك وتخلصت من تلك اللحظات السوداء التي مرت بشريط حياتك.. لحظة أن خسرت حب أول فتاة.. لحظة أن خسرت أول جنيهاتك في صفقة فاشلة أو تحطمت سيارتك في حادث أليم.. لحظة أن توفي والدك أو وجَّه لك مديرك في العمل أول إهانة.

كل هذا تنساه هنا.. في رحم هذا الظلام..

هذا ظلام يمنحك الثبات.. يمنحك السكينة.. يمنحك القوة على أن تُخرج مخاوفك المريضة وأشباحك القديمة وتفتح عينيك على اتساعهما لترى الحقيقة.

الحقيقة التي ظل نور الصباح يخفيها ويجملها حتى ظنناها كذلك.. ظن كلّ منّا أنها صافية واضحة.. لكنها دائمًا ما تمارس هذه الموهبة الفذة في كشف نفسها لمن فقط يريد أن يعرفها على حقيقتها..

الظلام.. الحقيقة.. إنها المفردات التي مهما ظننت أنك خبرت الدنيا.. فلن تخبرها يومًا أو تعرفها.. ستبقى هناك مختبئة خلف ستار صلب من الكلمات.. ستار ينتظر من يزيحه ليعرف.. لكنها معرفة لا تنفع أحدًا سواه..

معرفة كالتي سوف أنقلها لك الآن.. فقط لتدرك بعدها أنها لن تنفع أحدً سواي!!

الظلام.. الحقيقة.. المعرفة..

سوف أصبّ قليلًا من سائل المعرفة السحريّ فوق أرض فضولك الجدباء القاحلة.. سأخبرك بكل شيء.

فقط أصغ إليّ جيدًا.. إن ما سأقوله ليس قابلًا للتكرار..

فالله وحده يعلم إن كنت سأكمله أم لا..!

* * *

- *أكرم.. ردّ عليّا يا بني آدم انت..*
- *الضغط ٦٠/ ٤٠.. احنا في مشكلة كبيرة فعلًا*

* * *

(١)

كوبري أكتوبر.. العاشرة صباحًا

- الخلاصة يعني ليلتك بقت أسود من لون بدلتك الميري..

- هو أنت اللي يتمسى بوشك يشوف خير برضه يا بومة.. جثتين على غيار الريق كده.. شاب وقع من الدور الرابع في التجمع الخامس وبنت نزفت لحد ما اتصفى دمها في مشتل في المعادي الجديدة.. هو عشان الواحد يسهر يشرب فنجانين قهوة ويسمع فات المعاد.. يصطبح بجثث..؟؟!!

- قدرك يا عماد.. هتعترض؟؟.. وبعدين هو أنت متخرج من كلية الشرطة عشان تقف تنظم المرور مثلًا؟؟ احمد ربنا يابا إنك مش جثة منهم..

- الله يلعن فالك عالصبح.. وربنا لاكسر رقبتك نصين بس لما اطولك يا ابن ال...

القاعدة الأولى عندما تتعامل مع عماد هي: (أغلق الخط فورًا قبل أن يتطور النقاش وإلا حوّلك إلى عجين لاحقًا).. عندما تلقي بقنبلة في وجه عملاق مثل عماد فلا بد أن تطلق ساقيك للريح قبل أن تأخذ الضربة المضادة.. لا تتكلم عن القلب الأسود والردّ اللاحق.. إن من يعرفون عماد يعرفون أنه طيب القلب لا يذكر ما أكله بالأمس، ومن لا يعرفونه فليسمحوا لي أن أعرّفهم به..

عماد ضابط شرطة من الزمن الذي كانت فيه الشرطة تخرج بالأبواق في قلب الشارع لتحذر ذلك الأخ الكريم القاطن بدير النحاس أن الدواء به سمّ قاتل..

عماد ضابط محترم..

عماد من ضباط الشرطة الذين يعتذرون عن إزعاج النائم والذين يطرقون الأبواب في هدوء..

عماد ضابط ابن ناس

عماد من الضباط الذين يقفون في طابور البنزين ويحملون الفاكهة وطلبات السوق بأيديهم

عماد ليس باشا من ضمن الباشوات!!

الباشوات أصحاب النظارات السوداء والنظرات المتجهمة.. الباشوات الذين يضربون المسجلين على مؤخرات رؤوسهم ويركلون مؤخراتهم داخل الأقسام من أجل الحقيقة!!

عماد يعرف كل حقوق الإنسان بدون أن يجعله أحدهم يعرفها مجبرًا.

وهي عملة نادرة لو طلبت رأيي!!

عقارب الساعة الـ (سي كيه) الفضية العملاقة هدية عيد ميلادي الخامس والثلاثين، تتقافز في جنون نحو العاشرة والنصف.. وكوبري أكتوبر كجحيم دانتي في ازدحامه.. كل هذه السيارات في مصر.. إن نصف هذا الشعب لا يجد ما يكفيه قوت يومه إلا من رحم ربي.. فمن يشتري السيارات إذن إذا كان لا يستطيع أن يجد قوت يومه!!

هناك من لا يجدون قوت أيامهم ويشترون السيارات.. هناك ذلك الأب متوسط الحال الذي يعمل موظفًا حكوميًا كبيرًا ويحصل على راتب يكفيه فقط لشراء دجاجة يوميًا.. يأتي إليه هؤلاء الفتية المتأنقون بحللهم المكوية جيدًا ويخبرونه أنه موظف حكومي مرموق مضمون، وأنه لا بد له من سيارة صغيرة له أو للهانم الصغيرة حتى تتفادى المضايقات.. وكيف يأتي بالسيارة وراتبه لا يكفي حتى وقودًا لها في الشهر.. الإجابة حاضرة كالموت نفسه يا سيدي.. ما رأيك ببعض التقسيط والتسهيلات الائتمانية.. فقط وقّع هنا.. وهنا أيضًا.. هذا رائع يا سيدي.. سوف تصبح لديك سيارة صغيرة.. فقط تذكّر بأنك ستدفع ثمنها مضاعفًا لنا.. لا شئ يأتي بلا تعب يا سيدي.

هناك ذلك الشاب الذي يعمل صباح مساء في شركة خاصة من ذوي السكرتيرات الحسناوات وموظفات الموارد البشرية المتأنقات الذين لا يكفّون عن جلب العروض الأفضل لموظفي شركتهم المتميزين.. تعال يا بني.. تريد سيارة جديدة.. وقّع هنا.. وهنا أيضًا.. جيّد؛ أحضر ضامنًا آخر لأنك لا تكفينا ضمانًا كي نمتصّ دمك ونأكل أحشائك ثم نمنحك سيارة لا تقدر على جمع ربع ثمنها في خمسة أعوام.. أحضر أباك الموظف.. جيد يا حاج وقّع هنا أيضًا.. مبارك عليك السيارة الجديدة.. فقط تذكر أن أول قسط لن تدفعه ولو بعد ثلاث سنوات.. سوف يسلبك سيارتك الأثيرة

وتصبح بلا سيارة.. أنت وقَعت يا بني هنا وهنا.. وهنا أيضًا.. فلا تلومن أحدًا سواك!!

هذه الفقرة برعاية بنك..... نحمل ال.. إلخ إلخ.. لك ولأسرتك المعدمة التي مصّت الحاجةُ إلى العيش دمَها!

جميل.. الساعة الآن العاشرة والنصف كما تصرّ تلك الأخت التي تردد اسم شركة المحمول الشهيرة لتعلن أن الساعة التي تقفز كالأرنب المذعور تأتيكم برعاية إلخ إلخ، التي تقدِّم إلخ إلخ.. وأنا على كوبري أكتوبر ويبدو أنني سوف أصل الجريدة في الثانية ظهرًا.. لا تندهش يا عزيزي.. ولا تحدثني من فضلك على أن المسافة من جريدتنا لموقعي في منتصف كوبري أكتوبر لا تزيد عن العشر كيلومترات.. أنا لست جاهلًا بالمسافات ولكن أنت من يجهل كوبري أكتوبر!!

في إحدى المرات حكى لي سائق تاكسي يشبه محمود ياسين أن امرأة في شهرها السابع أنجبت طفلها في سيارة إسعاف على كوبري أكتوبر بعد أن فقد زوجها الأمل في الوصول إلى أي مستشفى.. فراح المسكين يبحث عن طبيب في السيارات التي تحولت إلى قطع من حديد الكوبري الصدئ وحين وجده قام الرجل بواجبه المهني على أكمل وجه، ووصل المحروس إلى الدنيا واتفق الرجل المسكين مع الطبيب أن يزور عيادته لكي يدفع أجرة العملية وتبادلا أرقام الهواتف.. كل هذا والكوبري لا زال متوقفًا!!!

الجميل في الأمر أن السائق راح يقسم لي أنه لا أحد حتى الآن يعرف لماذا كان الكوبري متوقفًا!! لا الأب ولا الطبيب ولا حتى الوافد الجديد سوف يعرفون لماذا كان متوقفًا من الأساس!!

الفقرة المرورية تأتيكم برعاية إلخ إلخ..

استمع إلى ذلك العقيد يتحدث شارحًا كيف أننا سنشيخ بسبب الحالة المرورية في القاهرة.. وأن الكثافات المرورية تتزايد في كوبري أكتوبر والمحور الدائري والأتوستوراد وصلاح سالم والعروبة وفيصل ومراد والوايلي وجوزيف تيتو ومكرم عبيد.. وأن المحاور البديلة تحتاج إلى محاور بديلة.. لتسأل نفسك سؤالًا في منتهى الألمعية (ماذا يفعل كل رؤساء الحكومات منذ أبد الآبِدين في حل مشكلة المرور؟؟) سأترك إجابة سؤالك الألمعي للزمن.. أنا مشغول الآن بالبحث عن محاور بديلة.. لا يوجد محاور بديلة.. إذن لا بد من استهلاك الوقت في بعض الأنشطة المفيدة

إذن فقد جاء ميعاد المكالمات الهاتفية برعاية إلخ إلخ إلخ.

- حسين.. حبيب قلبي يا سونة.. عايزك في حوار مهم ومصيري..

- أنت فين يا أستاذ أكرم.. ده رئيس التحرير قالب الجرنان عليك من صباحية ربنا.. وكل ما يشوف حد يسأله شوفت الز... لا مؤاخذة شوفت الأستاذ أكرم..

- بقولك حوار مهم ومصيري تقولي رئيس التحرير.. بص خش للمزة اللي اسمها نرمين وقولها إن أكرم في البدرشين بيغطي حادثة القطر هناك.. وركز معايا في الأهم.

- هو في حادثة قطر في البدرشين فعلًا؟؟!!

- يا ابني هو في قطر ما عملش حادثة في البدرشين يا حسين.. أنت ما تعرفش س.ح.م يعني إيه

- سكك حديد مصر.. عارف طبعًا.

كنت على وشك السخرية منه ونعته بالأبله المفتقر لروح الدعابة لكن المصلحة تقتضي أن...

- ما علينا يا سحس.. المهم ركز معايا بقه.. أنا رايح لحد القصر العيني.. في مشرحة الكلية هناك في جثتين لسه طازة مستنيين أبو صوابع دهب أحمد علام يشرّحهم.. وطبعًا لازملهم حانوتي أفرنجي بكاميرا عشان ياخدلهم كام بوز من اللي قلبك يحبهم.. وصحفي حوادث يكتب مقالة مجعلصة عن الزمن اللي باظ والحياة اللي ما بقاش فيها أمان والكلام اللي بيعجب القرّاء ده..

- وأنت عايزني آجي معاك أصوّر بقه.. وزي كل مرة تقلش اسمي من على التحقيق واطلع أنا منها بلا حمص.

- يا عبيط.. أنا بعمل معاك كده عشان اسمك ينزل متبروز على تحقيق الموسم.. بص كده معايا على المانشيت ده، بكرة الصبح ببنط ستة وتلاتين أحمر.. كشف غموض مقتل فلان الفلاني وعلانة العلانية.. تحقيق يقدمه لكم أكرم فهمي بعدسة حسين مسلم... طب وغلاوتك عندي جسمي قشعر..

تخيلت القشعريرة تنتقل إلى جسم حسين عبر أثير المحمول.. لا بد أن أطرق الحديد وهو ساخن.

- و دلوقتي بقه يا سحس احنا رايحين فين..؟؟

- البدرشين عشان حادثة القطر..

- حبيب قلبي يا حسين..

ثم أغلقت الخط وأنا أكتم ضحكاتي.. الواقع أن عم جمعة الساعي في مبنى الجريدة المجاورة سوف يعرف بعد قليل أنني في طريقي إلى القصر العيني.. إن حسين يعتمد عليه كما تعرف!!

* * *

- *أكرم.. خليك معايا يا ابني.. ردّ عليّا*

- *حقنة Lidocaine وريد.. وتحطهولي على الـ Hemoperfusion.. فورًا..*

* * *

(٢)

التجمع الخامس.. الثانية عشرة ظهرًا

سيارة الإسعاف ذات الصناعة الألمانية الصلبة.. البرتقالية الضخمة ذات الخطوط الخضراء كلون الموت نفسه.. لم أتخيل يومًا أن يكون الموت أسود أو رماديًا.. فقط أتخيله برتقاليًا مستعرًا كلون النار عندما تستقرّ فوق الحطب.. كالموت، راحت تعوي بلا توقف.. وثلاث سيارات شرطة من ذلك الطراز الحديث الذي منحته لنا الصين بعد الثورة كمنحة لا ترد كما قالوا لنا.. كل هذا يتحول إلى كارثة في ضاحية هادئة مثل التجمع الخامس.. ضاحية هادئة أكثر من اللزوم في هذه الساعة من الظهيرة..

حر خانق ورطوبة تصل إلى كل انحناء مستدير في حويصلات رئتك التي أنهكها التدخين ودخان العوادم ودخان المصانع وأتربة أثارتها تلك النسمات الهوائية التي وعدك مالكو تلك البنايات أنها ستكون نقية خالية من التلوث!!

صحفي وحيد هو العبد لله يتابع كل هذا ويلتقط الصور.. هذه ميزة أن يكون صديقك ضابط مباحث.. هنا تلعب الواسطة والمحسوبية أجمل أدوارها.. من قال لك يا عزيزي إن الواسطة غير مفيدة.. إنه ساذج ساذج ساذج.. إنها لحظة الحقيقة.. برغم كل ما نتشدق به من رفض للواسطة والفساد والمحسوبية إلخ إلخ.. ولكن الواسطة هي واحد من أقوى اختراعات القرن العشرين وأكثرها نفعًا.. نعم يا عزيزي هي أكثرها وأقواها نفعًا..

عاكفًا على تصوير الجثة المغطاة ببطانية جيش خشنة تنتمي لبواب ما كان يتكفن بها من ليالي التجمع الباردة.. ورجال المعمل الجنائي يحاولون كشف أي شيء يمكن اكتشافه.. وأنا أتخيل جموع الصحفيين ومحرري الحوادث وهم ينتظرون أمام القصر العيني في انتظار كلمتين.. من أخبرهم؟؟ حسين طبعًا.. إنه بوقي الأول في أوساط الصحافة والإعلام.. عنصري الاستخباراتي المميز قد نقل تمامًا ما أريد أن أنقله.

عماد يشعل لفافة التبغ في ركن فمه الأيمن ـ ليبدو محنكًا ـ ثم يقول متابعًا:

- شاب عنده سبعة وعشرين سنة زي ما بطاقته بتقول.. بنيان رياضي مش بطال ولو إن السواد تحت عينه زيادة حبتين.. وقع من الدور الرابع على الطريق المهد واتكسرت رقبته وضلعين وفضل ينزف لحد ما مات.

- انتحر يعني ولا حد رماه.

- مفيش أي دلائل على أي عنف أو مقاومة عنف منه.. ممكن يكون فقد توازنه ولّا حاجة ولا يمكن كان بيعمل حاجة فوق السطح ووقع.. ويمكن..

صمت وتضييق عين.. ثم..

- عبد الباقي.. هات بطاقة المجني عليه..

- انتحر قصدك.

نظر إليّ بغتة وكأنما سببت الفتى.. ثم انعقد حاجباه ولفافة التبغ تنزلق على طرف شفتيه لتعطيه منظرًا شبيها بكولومبو شخصيًا بحواجبه الكثة ولفافة التبغ المنزلقة على طرف شفتيه والباقية في مكانها بمعجزة ما.. إلا أن الهاتف المحمول فك الانعقاد حين أجاب وألقى بلفافة التبغ متعجلا وكأن المتحدث يراه!!

- صباح الخير معالي الباشا.. لا أنا في التجمع حضرتك جنب المجني عليه.. شكرًا يا عبد الباقي.. أيوه البطاقة معايا يا فندم.. علاء مسعود البلطيمي.. أيوه عارف مين هو يا فندم كويس.. لا حضرتك ما تقلقش احنا مسيطرين على الوضع.. صحافة مين يا فندم هو احنا ناقصين سعادتك.. عُلم وينفذ معالي الباشا.. بنفسي يا فندم حاضر بنفسي.

ثم أغلق الخط وأخرج لفافة تبغ جديدة حاول إشعالها ففشلت قدّاحته الخربة في منحه قبسًا من النار.

- يا بسيوني

اقترب ذكر غوريلا يرتدي جوالًا من الجينز ـ يمكنك أن تدعوه بسيوني

-

- أوامرك يا عماد باشا

- هات ولاعتك.. الواحد مش عارف يولع سيجارة في البلد دي.. هيا الجثة رايحة فين.

- القصر العيني جنابك.. دكتور أحمد علام طالبها هناك هي والجثة التانية بتاعت المعادي.

- دكتور علام.. جميل أوي.. طيب إنت هتركب العربية مع المرحوم بنفسك.. مفيش جنس مخلوق ياخد كلمة منك أيًا كان... الجثة هتتسلم باليد للدكتور علام شخصيًا.. وعلي باشا هيحصلك على هناك.. وتستنوني لما اجيلكم.. مفهوم يا بسيوني.. يا عبد الباقي.

- أوامرك عماد باشا

ثم أدى التحية على عجل وانصرف بينما عماد يصدر أوامره للأمين عبد الباقي الشبيه بعبد الوارث عسر ثم رفع عقيرته مطالبًا عليًا بأن يحرك مؤخرته الناحلة ويلحق بسيارة الإسعاف على طريقة الأفلام الأمريكية التي يدمن عماد متابعتها.. كنت أنا ألعن تفكيري الألمعي الذي قادني إلى إخبار حسين بأني ذاهب إلى القصر العيني.. لا بد أن أجري بعض المكالمات.. لا بد من أن تكون جريدتنا أول من ينشر هذا الخبر بتفاصيله ولكن أليس الاسم قريبًا نوعًا من..

- عمدة..

- ممممم.

- علاء ده ابن..

- أيوه.. هو مسعود البلطيمي اللي تقصده.. اتفضل حضرتك عشان عايز اعدي على المديرية قبل ما نروح المشرحة.

وقبل أن أتفوه بكلمة رنّ هاتفه المحمول من جديد فراح يتمم ويدمدم ويهمهم ثم أغلق الخط واتجه نحو السيارة متابعًا:

- يا ستار يا رب.. ده اليوم العالمي للجثث بقه.. أنا اصطبحت بوشّ مين النهاردة.

- بوشي طبعًا ودي عايزة سؤال.

رحت أجاهد للّحاق به وصدري يوشك على الانفجار.. (قطيعة تقطع الدخان وسنينه) كما تقول العبقرية جدًّا كريمة مختار..

- خير يا عماد؟؟

اتخذ مكانه خلف المقود وهو يسب ويلعن متابعًا:

- جثة جديدة في الزمالك.. رجل لدغته حشرة ولا عنكبوت.. ده النهاردة نهارنا نادي باين، وليلتنا اسود من وشك.. على فكرة.. لو هتنشر الخبر هيبقى بالأحرف الأولى بس.. عليا النعمة يا أكرم لو عملت زي عادتك وخدتني على قد عقلي لاشيل راسك من على كتفك.

- يا سلام.. هو انا جاي اشيل الشنطة والسجاير لجنابك بقه..

أخرج طبنجته الميري من جانبه ووضعها فوق أنفي واللعاب يتطاير من فمه:

- تحب ننفذ عملي بقه إذا كان الكلام مش عاجبك..

- عمدة.. وربنا بهزر معاك يا جدع.. أحرف أولى كفاية أوي أوي.. إحنا هننهب.

ارتسمت على وجهه ابتسامة من طراز - ماتجوش إلا بالعين الحمرا - ثم أدار المقود وانطلق كالصاروخ.

لو لم يكن عماد صديقي.. كنت... و.... أو...

فيما بعد فيما بعد سوف أخبرك.. لماذا يحشر الإنسان أنفه فيما لا يعنيه..!!؟؟

* * *

- كنا غلطانين.. غلطانين تمامًا

- حقنة تانية يا.. إنت اسمك إيه يا بني؟؟

* * *

(٣)

كلية طب القصر العيني.. الرابعة عصرًا

قادنا الدكتور أحمد علام أستاذ الطب الشرعي العجوز الذي يشع وجهه بذكاء متقد وعينين تطلقان ذلك البريق من خلف قرنيتين رماديتين أنهكما من كثرة التدقيق في المجاهر وشرب القهوة السادة.. عبر الردهات نمشي في هدوء، وهو يتبادل حديثًا وديًا مع عماد.. لربما كانا يتذكران قصة قتيل مصر القديمة الذي ساهم الدكتور علام مساهمة قوية في معرفة اسم زوج خالته أو شيء من هذا القبيل!!

في كل مرة أدلف فيها إلى حضرة الموت تصيب جسدي نفس القشعريرة.. إنه الخوف الذي لا أعرفه ولا أعرف أبعاده.. أنا لا أخاف من الظلام، فالظلام أبعاده معروفة، ويومًا ما سوف يأتي نور ما فيبدد هذه الظلمة.. أنا لا أخاف من الرصاص.. فلو اخترق رأسي أو قلبي فأنا ميت لا محالة، ولو اخترق ذراعي أو بطني فلربما أحيا يومًا جديدًا.. إلا الموت.. هو

ذلك الكائن الخرافي الذي لا أعرف عنه شيئًا، ولم يذهب أحدهم معه وعاد ليخبرني كيف هو وماذا يكون!! ثم إنني لست تقيًا عابدًا حتى لا أخاف الموت!!!

جلسنا حول تلك الطاولة الصغيرة في ركن المشرحة حيث بقايا وجبة فول لم يكملها طالبُها.. وأشلاء من كانوا يومًا ملء السمع والبصر تتناثر فوق طاولات الفحص كأنها عرائس مريونيت وقعت في يد طفل عابث.

- تشرب إيه يا سيادة الرائد.

- قهوة يا فندم.. السبرتاية وحشتني الحقيقة.

أرسل ابتسامة مريحة في أثير المشرحة الكئيب، ثم رفع عقيرته مناديًا ذلك التومرجي ليأتي بالسبرتاية وبرطمانات القهوة والسكر وتلك الكنكة النحاسية ذات اليد الخشبية المحترقة.

شرع يعدّ لنا القهوة وهو يتبادل معي حديثًا باسمًا عن أحوال الصحافة.. وصحافة الحوادث.. وكيف أنه يشعر أن صحفي الحوادث يشبه حانوتي الأفلام القديمة.. حتى أنه تخيلني مرتديًا ذلك الجلباب والطربوش الأحمر وأشير في وجهه بعصاي مرددًا: "الموت عليكو حق".

- ادخل في الموضوع على طول يا دكتور علام.. في رأيك إيه ممكن يخلي بني آدم ينتحر؟؟

- سؤال برة تخصصي كطبيب شرعي.. وفي صلب تخصصي كمواطن مصري.. سؤالي بقه: إنت عايز تعرف الإجابة من مين فيهم؟

ارتسمت ابتسامة خبيثة على وجه عماد، ونظر لي، فقلت:

- أعتقد إني مهتم بالاثنين يا دكتور علام..

خلع عويناته الطبية الأنيقة، وراح يقلب البنّ داخل الكنكة النحاسية متابعًا:

- كمواطن في هذا البلد المنهك.. عوامل الانتحار عديدة ومتفردة.. طب ده أنا ساعات بسأل نفسي هو إيه اللي ما بيخليش الناس تنتحر؟؟ اتفضلوا القهوة..

ثم صب ثلاثة أكواب زجاجية صغيرة تفوح منها رائحة الحبهان المختلط بالتراب البني المنعش.

- متفق معاك تمامًا يا دكتور.. تسلم إيدك شكرًا.

رمقني عماد بنظرة نارية وهو يرشف من كوب قهوته بصوت مسموع، بدا كسباب خفي، فتابع دكتور علام باسمًا:

- برغم إن حضرة الضابط ممكن ما يعجبوش كلامي لكن أنا هقولك يا أستاذ أكرم.. لما والدك ووالدتك يطفحوا الكوتة ـ اللي أنا ما اعرفش إيه هي الحقيقة ـ عشان يعملوا منك مهندس ولا دكتور ولا محاسب.. وتصحىٰ من النوم في يوم تلاقي نفسك اتخرجت للأسف وبقيت عالة عليهم.. والحكومة بتقولك بالبلدي كده.. شطّبنا.. ما عندناش لا شغل عِدِل ولا بيت يلمك إنت وواحدة شبهك، عشان تعملوا أسرة تطلع شبهكم.. اللي حليتنا كله راح في تَلَت حروب وشقلبة اقتصاد متواصلة طول خمسين سنة.. فتقوم طالع على القطاع الخاص عشان يمص دمك، ويحولك بالتدريج لآلة عديمة المشاعر.. تشتغل عشر ساعات في اليوم، وتحط عليهم أربعة في مواصلات غير آدمية وطرق ما تصلحش لعربيات الكارو؛ عشان تحاول توصل من مكان لمكان.. وتوصل شغلك عشان تلاقي السيد الباشا مديرك عصبي حبتين، يبصلك من فوق لتحت وينعىٰ إلى الوطن ضياع

الكفاءة والمهنية وإن اللي زيك لازم يحمدوا ربنا عشان لقوا مكان يشتغلوا فيه.. وفجأة في يوم تلاقي نفسك عالرصيف زيك زي أي سلة مهملات، على العكس من زميلك ابن محسن بيه اللي اتولد لقى شقة وعربية ووظيفة وعروسة.. وتلاقي شوية عاهات بيطنطنوا في ودنك كل صباح كلمتين عن الكفاح والعمل ومن جد وجد.. ولازم ما نزعلش ولا نتدايق ولا نغضب ونركز في شغلنا شوية بقه، والكلام اللي ممكن تسمعه في أي برنامج في قناة النيل للأخبار.. فا محدش هيقدر يلوم عليك لو رميت نفسك قدام أي أتوبيس نقل عام، عشان تخلص وتخلص اللي حواليك وترتاح الراحة الأبدية..

صمتنا للحظات مرت كدهور.. ثم اعتدل عماد كي يبدو عمليًّا أكثر، وحتى يتغير ذلك الموضوع السوداوي الكئيب ـ الواقعي للأسف ـ متابعًا:

- أنا شايف نخلينا في رأيك كطبيب شرعي أحسن ونشوف الجثث..

راح يقلب بعض الأوراق أمامه وأشعل لفافة تبغ، ثم تناول نظارة القراءة، ووضعها على قصبة أنفه قائلًا:

- تعال نشوف الجثة الأولى.. ذكر أبيض في منتصف العشرينات.. حالة سقوط من مرتفع.. تهشم كامل للرقبة والقصبة الهوائية وضلعين في الجنب الشمال في القفص الصدري.. في شوية آثار على الأظافر والشفتين بتقول إنه كان حريقة سجاير.. وفي على كف إيده الشمال بواقي زيت حشيش..

- حشيش!!

- أيوه حشيش يا أستاذ أكرم أنا مش هغلط في تركيبة الزيت وعمومًا تحليل الدم هيبيّن كل حاجة على آخر النهار كده.. مفيش أي آثار دفع في جسمه ولا آثار مقاومة.. السجاير قربت تخلص.. حدّ يشرب شاي معايا؟

- لا إحنا تمام أوي كده كمل حضرتك.. الشاي ورا القهوة خبط لزق يا دكتور.

- يا سعيد.. اعمللي واحد شاي بسرعة.. يا سيدي كله زي بعضه أنا خلاص باكسر الستين يا أكرم فا ما بقتش فارقة.. والدكاترة بيسمّعوك نفس الكلام، لو شربت قهوة بس أو شربت قهوة وشاي، يبقى احرم نفسي ويموت بحسرتي على كوباية شاي.. سيجارة يا سيادة الرائد.. المهم إن الأخ المتوفى نزف من منطقتين في ظهره ورجله مالهمش أي علاقة بالواقعة.. إصابات سابقة للحظة الاصطدام، ومجرد إنها ما كانتش التئمت كويس فا اتفتحت تاني وسيلت دم.

ثم أشعل لفافة التبغ، ونظر في أوراقه مستجمعًا خيوط القصة.. كدت أبوح له بأنه لم يسألني عن إذا كنت أحب أن أدخن.. إلا أنه قال وعيناه فوق أوراقه:

- إنت ما بتشربش سجاير يا أستاذ أكرم.. لون شفايفك فاتح نوعًا، وأظافرك بيضاء وصحية، بس أسنانك عليها بواقي من تبغ وقهوة.. أعتقد إنك بتشيش أو بتدخن البتاع اللي اسمه بايب أو غليون..

ثم منحني ابتسامة عريضة.. لم أكن أعرف أنني أمام شيرلوك هولمز.. ربما كانت الإشاعات عن أن الأطباء الشرعيين مصابون بداء التفاصيل صحيحة إذن!!

نظر من جديد إلى أوراقه متابعًا:

- الحالة الثانية لبنت في أوائل عشريناتها.. عندها مرض نادر اسمه متلازمة لويس بار.. في بعض البقع الحمراء تحت عينيها وفي وشها، وهي من العلامات.. كذلك في بعض الالتهابات في جنب القدم

وعند طرف الصباع الصغير؛ نتيجة التأرجح بعض الأحيان في المشي.. لا مخدرات أو كحوليات حسب تحليل الدم مبدئيًا.. مفيش سموم في الموضوع.. سبب الوفاة نزف من خمسة جروح في الرقبة والذراع والساق وكعب الرجل.. والظاهر إن النزف بقاله فترة، مع ضعف واضح في نسبة الصفائح، وارتفاع في سيولة الدم، خلّى الموضوع أسرع.. الله يرحم الجميع.. آه أنا لقيت دبلة في صباعها اليمين، والاسم اللي مكتوب عليها عصام.. واضح إنها كانت مخطوبة من فترة طويلة؛ لأن لون الجلد تحت الدبلة فاتح شويتين..

تناول القهوة من يد التومرجي، وشرع يرشف رشفات مسموعة، وهو يتحرك نحو أحد طاولات الفحص، استقرت عليها جثة يبدو من ملامحها ومن حالتها أنه لم يفرغ من تشريحها بعد.. حتى كدت أن أتقيأ تقززًا مما فعله بها.. كأي جزار محترف يعمل في أحشاء ذبيحته.

- الحالة الثالثة ذكر في العشرينات.. بنيانه جيد جدًا.. الوفاة تسمم، والحالة واضحة جدًا.. أعراض موجودة زي اتساع القزحية والبؤبؤ ونشفان الريق.. ولما حللنا الدم لقينا كمية من سم اسمه Latrotoxin.. في شوية آثار لمواد مخدرة في دمه.. خليط من الإيبوبروفين والترامادول.. ولما فتحت المعدة لقيت لسه في بواقي أقراص مسكنة ما دابتش في معدته، دليل إنه لسه واخدهم طازة.. السم اللي في جسمه بيجي غالبًا من لدغة عنكبوت اسمه الأرملة السوداء The Black Widow وفي آثار عضة في فخذه بس في أثر لعضة تانية في الرقبة بس أصغر شوية، وللأسف العنكبوت ما جاش مع الجثة وإلا كنت اتأكدت من العضتين مقارنة بالعنكبوت نفسه..

عماد منح ابتسامة سخيفة نوعا وهو يسأله:

- إنت عارف إنه كان لعيب كورة مغمور، وكان رايح النهاردة الصبح

يوقع لنادي الزمالك، بس ربنا ما أرادش يزود المشرحة قتيل.. أو الحقيقة هو ربنا أراد يزود المشرحة قتيل.. بس الفرق في اسم المشرحة

- أنا مش مهتم أوي بالكورة.. بس ساعات كده ببص على الجرنان واشوف المانشيتات العريضة اللي بيكتبوها على فلان الفلاني صاروخ العصر.. وعلان الترتاني الفتى الذهبي.. ولو جاب جون في مركز شباب الدلنجات يبقى هداف وبطل قومي.

ابتسم عماد على دعابة دكتور علام.. فهو زملكاوي قديم، ويعاني مع ناديه الحبيب منذ أن كنا في آخر سنين الجامعة.. وهو يشعر نوعًا بأن الله أنقذ الزمالك من لاعب مغمور عديم الموهبة كان سيضاف إلى قائمة ممن ينعتهم عماد دائمًا بالفشلة الذين أهدروا تاريخ النادي العظيم!!

اعتدل عماد في وقفته، ووضع لفافة تبغ في طرف فمه، وقال ـ وهو يجاهد لإشعالها بقدّاحته الخربة ـ :

- يعني صراحة كده حضرتك عايز تقول إن اللي حصل جرايم قتل مش انتحار.

رفع دكتور علام وجهه عن الجثة، ونظر نحو عماد بعينيه الباردتين قائلًا:

- انتحار.. يا بني أنت بتتكلم مع واحد من أقدم ثلاث أطباء شرعيين في مصر.. اسمحلي اقولك بمنتهى الوضوح يا سيادة الرائد إن اللي حصل جرايم قتل.. جرايم قتل مكتملة الجوانب!!

* * *

ـ "ظلام ظلام ولا شيء هناك"

ـ أعتقد إنه بيروح مننا خلاص.. أنا آسف.

* * *

(٤)

مشرحة طب القصر العيني.. الثامنة مساء

ثلاث ساعات..

أكواب القهوة الزجاجية وما جف بها من ثمالة البن المحوج بأفخر أنواع الحبهان وجوزة الطيب قوي الرائحة.. مختلطًا برائحة الفورمالين النفّاذة ورائحة تبغ الغليون ورائحة التبغ المنبعثة من أطنان التدخين.. وسط أشلاء مَن كانوا يومًا بشرًا يأكلون ويضحكون ويتناسلون..

- ممكن سؤال يا دكتور علام؟

- ممممم.

- هو أنتم بتجيبوا الجثث اللي بتعلموا عليها الطلبة تشريح منين؟

التفت ناحيتي وعلى وجهه المرهق شبح ابتسامة.

- واشمعنى السؤال ده؟

- اعتبره فضول بشري مَقِيت.

وهنا أطلق عماد ضحكة مدوية حتى أسقط اللعاب من فمه.

- إنت بتضحك على إيه يا عم انت؟

- أصل أنا عارف اللي في دماغك يا معتوه.. والله عارف.

- لا بجد يا أستاذ أكرم ليه السؤال ده؟

- الصراحة يا دكتور علام أنا مش متخيل نفسي عبارة عن جثة كده، وعيل في سنة تانية طب ماسك مشرط وشغال فيّ تقطيع يمين وشمال وفوق وتحت.

عماد يواصل الضحك في سخرية:

- والله أنا عارف إن ما همك من كل ده إلا تحت يا اهبل

- بس يا وسخ.

عماد يواصل الضحك حتى شعرت أنه سينقلب من فوق المقعد المعدني الصدئ بينما دكتور علام يشير مهدئًا.

- لا ما تقلقش يا أستاذ أكرم.. طالما إنت مش ميت في مظاهرة أو في عملية إرهابية أو في فض اعتصام أو في حادثة اغتيال أو في جريمة قتل أو وأنت ما معكش بطاقة ومحدش اتعرف على جثتك.. يبقى محدش هيمسك مشرط ويمد إيده عليك.

- روح يا شيخ الله يطمن قلبك.

ضحكات عماد ودكتور علام جلبت تومرجي المشرحة العجوز الذي ابيضت عينه اليسرى.. متى ابيضت هذه العين؟ لقد كان سليمًا كزجاجة زيت تموين.!!

- في حاجة يا دكتور؟؟

- لا يا عم متولي.. حضرة الضابط قال لنا نكتة حلوة بس.. روح اعمللنا طقم قهوة وهاتلي علبتين سوبر من عبده عشان القعدة شكلها مطوله.

آه إذن هذا ليس الآخر المدعو سعيد.. الجلسة في المشرحة سوف تفجر رأسي من الخيالات!!

- سوبر يا دكتور!!

- أنا موظف حكومة يا سيادة الرائد.. وفي يوم هقعد في البيت واخد معاش يا دوب يكفيني سبارس يبقى اعوّد نفسي من دلوقتي ليه؟

ثم أشعل آخر لفافة تبغ، وكوّر العلبة الورقية وألقاها فوق الطاولة

- وبعدين السوبر سيجارة معمرة مع الوقت بتتحول إلى فرد من أفراد العيلة.. ويا سيدي ما كله بيحرق الصدر.

قاطعًا كلماته التي تحمل بين طياتها الأسى على معاش قد اقترب.. رن هاتفي المحمول طالبًا مني إنقاذه من تلك الملحّة التي تتصل للمرة السادسة.

- إيه يا ولاء في إيه؟

- أنت ما بتردش ليه يا نيلة.. رئيس التحرير..

- قالب علينا الجرنان من صباحية ربنا.. غيره يا ولاء؛ غيره.

- إنت فين؟ إخلص..

- ورايا مشوار.

- مشوار!!!.. العدد الأسبوعي ما دخلش المطبعة لسه، وهنروح في داهية كلنا، وأنت بتتسرمح وتقوللي مشوار!!

ابتعدت إلى طرف الغرفة، وأطرقت برأسي محدقًا في يد مبتورة فوق إحدى الطاولات، اسودت أظافرها خافضًا صوتي لأقصى ما تستطيع حنجرتي البالية.

- طز في العدد الأسبوعي.. قولي لرئيس التحرير إن أنا في إيدي موضوع خطير هيقلب الدنيا.. قولي إني بحقق في سلسلة جرايم لسفاح بيقتل الستات الحوامل في بولاق..

- قولتله كده الأسبوع اللي فات واللي قبله.

- خلاص يبقى قوليله إنه سفاح بيقتل الرضع.. مش الحوامل بيخلفوا برضه؟!

أطلقت ضحكة عالية رقيعة، ونعتتني بلفظ بذيء على سبيل الدعابة كعادتها.. ثم أغلقت الخط..

التفتّ لأجد دكتور علام وعماد أمام إحدى طاولات الفحص فاقتربت مسترقًا السمع.

دكتور علام يتابع حوارًا كان قد بدأ وأنا على الهاتف.. اللعنة عليكِ يا ولاء وعلى رئيس التحرير:

- زي ما انت شايف يا سيادة الرائد.. الجروح كلها معمولة بزاوية مستحيل الضحية نفسها تعملها لنفسها.. ده شيء أنا أأكده بكل خبرتي في المجال.. غير أن عضلات إيدها زي ما انت شايف مش ليّنة لدرجة إنها تعمل جرح قطعي بالطول ده في رقبتها من ورا.. وبعدين الولاد في المعمل الجنائي ما لقوش آلة حادة واحدة مع الجثة.. غير إني ما اعرفش آلة حادة تعمل جرح بالشكل ده غير مبرد الظوافر، ومبرد الظوافر ما يقتلش.. الجروح دي كانت جروح

تعذيب للبنت عشان تفضل تنزف زي الدبيحة لأنه عارف إن عندها متلازمة لويس بار وأي جرح ممكن يسبب نزيف.. ولما زهق منها راح عامل الجرح اللي في الرقبة ده عشان يخلّص عليها فورًا.. بس جرح الكعب بقه..

- كمل يا دكتور أنا معاك.. ما له جرح الكعب؟

- جرح الكعب غائر شوية.. لو ما كانش نظري ضعف للدرجة دي.. الجرح ده معمول بآلة حادة قطعت وتر أكيلس.. بس ليه؟!.. دي محتاجة شوية بحث.. بيتهيأ لي ممكن يعملوا صورة ثري دي عندكم في البحث الجنائي.

راح عماد يكتب رسالة على هاتفه المحمول بنصف اهتمام وقال:

- والجثة بتاعت لعيب الكورة؟

- العنكبوت اللي اسمه الأرملة السوداء بيعيش في القرى والبيئات الزراعية والاستوائية.. هو لدغه.. آه بس مع البِنية العضلية والجسدية للولد ده؛ يبقى احنا قدام احتمالين: الاحتمال الأول إن العنكبوت لدغه لدغتين والولد نايم مثلًا فا جاله تسمم ومحدش لحقه ومات.. والاحتمال التاني إن اللدغة الصغيرة اللي في الرقبة ما كانتش لدغة عنكبوت..

- إزاي يا دكتور هي مش شبه نفس اللدغة اللي في الفخذ؟

- أنا مش خبير في العناكب يا عماد باشا.. بس اللي اعرفه إن اللدغتين مش متشابهتين.. في شوية اختلافات بسيطة بينهم.. اللدغة اللي في الرقبة أصغر حجمًا وأكثر عمقًا، وتجلط الدم تحتها مش زي اللي تحت أختها في الفخذ.. أنا عايز العنكبوت أو عايز حد من أساتذة كلية علوم يدينا رأي نهائي.

رفعت رأسي نحو المحمول في يد عماد.. إنه يسجل ملاحظات وأنا الذي أظنه يراسل صديقته الغاضبة دومًا من انشغاله في العمل.. يبدو أنه..

بالنسبة بقه لأخينا اللي وقع من الدور الرابع.. الشاب ده ما رماش نفسه.. بس أرجح بقه إن توازنه اختل ووقع.

- إزاي يا دكتور.. معلش..

لما فحصت جنب رجله.. لقيت شوية بواقي أسمنت ناشف وغبار جبس.. يعني رجله اتحكت في حافة السطح قبل ما يقع.. لو رمى نفسه ماكانش الأثر ده يبقى موجود.. لو حد شاله ورماه برضه الأثر ده ما كانش يبقى موجود.. طبعًا ده تخمين.. لكن أعتقد بخبرتي كده إن الولد ده كان مش في وعيه وهو ماشي فوق السطح.. حد أجبره أو ضلله وخلاه يعمل كده.

قصدك يعني حد هدده بسلاح يا دكتور؟

يا أستاذ أكرم أنا مش منجم.. أنا طبيب شرعي.. بس في رأيي إنه كان.. ثواني كده...

ثم رفع ذراع الفتى نحونا وأشار إلى ثقب صغير في باطن الكوع

ده مكان حقن.. ممكن يكون الولد ده محقون بحاجة ما حولته لكائن معدوم الإرادة.. أو ممكن يكون أضاف المورفين أو الماكس كونفورت لقائمة الإدمان بتاعته جنب الحشيش.. بالمناسبة إيه سر الاهتمام الحكومي الفظيع بالأخ ده.. اسمه علاء مسعود البلطيمي زي ما الأوراق بتقول.. هو ابن مين بقه في مصر عشان الدوشة دي كلها؟

نظر لي عماد نظرة ذات مغزى، ثم ابتسم قائلًا:

- أنت ما بتقراش جرايد يا دكتور؟!

- غالبًا لا.. صفحة الوفيات يوميًا والباقي كل لما افضى

- الوفيات!!

- أنا راجل ملول وما بحبش التكرار.. الوفيات بس هي اللي بتراعي الملل ده، وبتديني عناوين متجددة يوميًا.. كل الجرايد بتكتب نفس الأخبار.. قلق في العراق.. تفجير في لبنان.. زوجة تقتل زوجها.. راجل بيقتل أخته شكًا في سلوكها.. الأهلي بياخد الدوري.. كلها عناوين قديمة.

ثم خلع منظاره الطبي، وقادنا نحو الطاولة مشعلًا لفافة تبغ من علبة سوبر منتفخة.. متى جاء ذلك التومرجي بالقهوة التي بردت والتبغ.

- حلوة القهوة دي.. محدش أجاب سؤالي لغاية دلوقتي.. ابن مين في مصر علاء ده؟!!

نظر لي عماد من جديد فا قلت شارحًا:

- علاء مسعود البلطيمي يا دكتور هو ابن رئيس حزب الحقّ السلفي.. وهو برضه أصغر متحدث رسمي لحزب سياسي في التاريخ السياسي المصري.

- سلفي وحشيش!! any way.. وده يعمل فرق يعني في قضيته عن بقية القواضي.

ضغط عماد على أعصابه قليلًا محاولًا التوضيح:

يعني يا أستاذنا العزيز إن كل الصحف والقنوات والمواقع الإلكترونية الموالية للحزب هتتهمنا صباحًا بالتقصير والإهمال وعدم أداء دورنا الأمني والإداري والقومي إذا ما جبناش لهم تفاصيل الجريمة، وإن كان في قاتل

فلا بد أن القاتل وابن خالته وابن عمته يقفوا قدام المحاكمة بسرعة.

- غريبة أوي.. ألا ما شفنا السرعة الخارقة دي في الغلابة اللي ماتوا بقلب ميت في أيام الثورة كلها.. ده أنا كنت بتحايل على الناس عشان ياخدوا مني تقارير التشريح، وكل اللي كنت بلاقيه الطناش.. وفي الآخر لما كنت اقول لرئيس الهيئة إني عايز امشي عشان أنا ما بحبش حد يطنشني، وما دام شغلي مالوش لازمة يبقى أقعد في بيتي احسن.. يقولي سلمناها للجنة تقصي الحقائق.. واللجنة بتدرس كويس عشان تقدم التقرير.. وادينا مستنين التقرير.

- يدينا ويديك طولة العمر يا دكتور..

كانت هذه مني أنا وليس من عماد.. الحقيقة أن علاقة المصريين مع الشرطة تغيرت تمامًا بعد الثورة.. فأصبح الشرطي دائمًا متهمًا بالإهمال والتقصير والتخاذل والميل إلى أطراف عن أطراف والحقيقة أن جزءًا كبيرًا من هذه الاتهامات صحيحة.. حتى أن ضابط مباحث نقي وشريف مثل عماد يستحق تمثالًا في مدخل مديرية الأمن!!

مد عماد يده يصافح الدكتور علام.. قائلًا في هدوء:

- أشكرك يا دكتور علام.. أنا منتظر تقريرك النهائي بفارغ الصبر.

- إن شاء الله يا سعادة الرائد.. أوعدك إني أسرع فيه على قد ما اقدر.. ومش عشان خاطر ابن مسعود البلطيمي.. بس في حاجة كده.. الأولاد قالولي إنهم لقوها مع كل الجثث.. أتكلم ولا..

- الأستاذ أكرم وعد بكتمان السر وإن اللي شافه مش للنشر.. مش كده؟

رسمت على وجهي ابتسامة ساذجة - صفراء نوعًا - بينما أحضر الدكتور

علام كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا به كتيب قديم نوعًا في حجم روايات الجيب ورفعه نحو عماد متابعًا:

- ممكن حضرتك تقولّي ليه كل الجثث معاها الكتاب الغريب ده؟؟

- ده يا دكتور أكيد كتاب (لم انتحر ولكني قتلت) أو (كيف تكتشف سر انتحاري).

أطلق عماد ضحكة ساخرة قصيرة، بينما حدجني دكتور علام بتلك النظرة الرمادية الباردة، وقال ضاغطًا كل تشكيل حروف كلماته:

- لا يا أستاذ لطيف.. الكتاب اسمه (الرُّهاب).. (الرُّهاب) يا أستاذ أكرم.

* * *

حاشية لا بد منها

العام ١٩٧٠ كان عامًا صاخبًا بحق..

أصوات تحليق المقاتلات.. القصف.. الحرب

الطائرات المصرية تقصف جزيرة شدوان.. الطائرات الإسرائيلية تردّ بقصف مدرسة أطفال في بحر البقر.. مبادرة روجرز.. الأردنيون والفلسطينيون يتقاتلون فيما عرف بحرب أيلول الأسود.. جمال عبد الناصر سيلقى ربّه في خريف ذلك العام..

كل هذا الصخب ليس له أي علاقة تذكر بـ"عمر جمعة"..

شاب في مقتبل عمره.. في الخامسة والعشرين لو شئت الدقة.. وحيد أبيه؛ الموظف بشركة الكهرباء ـ وهو ما أبعده عن الجيش على عكس

أبناء جيله ـ متخرج من كلية الآداب.. يقطن مع أبيه الأرمل منذ عشر سنوات، في ذلك الشارع الهادئ من حي مصر الجديدة الهادئ ـ في تلك الأيام بالطبع ـ..

كما ترى.. شاب عادي كغيره من الشباب.. يهف قلبه لصوت عبد الحليم.. يدخن سجائر بلمونت ـ رمز مصر في ذلك الوقت لأن عبد الناصر كان يدخنها ـ.. يحب سناء ابنة جاره الأستاذ موافي.. لا شيء في حياته يطفو على السطح ليؤثر على سريان نهره الرقراق..

فقط عندما جاء ذلك اليوم..

كان عائدًا من المقهى ليلًا.. المقهى الذي كان ملتقى كل مثقف ومتحضر.. المقهى الذي كان برلمانًا وصالونًا أدبيًا ومركز شباب ـ في تلك الأيام العامرة ـ

كان عائدًا في سيارة صديقه محمود.. محمود ابن الضابط السابق في البوليس المصري، والذي يملك سيارة من طراز نصر لا يمكلها إلا علية القوم.. يقصد ذلك الشارع الهادئ الذي تقبع فيه البناية حيث يسكن مع أبيه الأرمل..

توقف محمود بالسيارة في صمت.. ونظر إلى صديقه بعين لا ترى.

- تعرف يا عمر؟

- لا ما اعرفش ومش عايز اعرف.. أنت ياد مالك بقيت خرع كده ليه.. إنت مش رايح جهنم يا محمود.. إنت رايح تدافع عن بلدك.. طب والله لولا إن أبويا راجل وحيد ومفيش حد يراعيه غيري كنت سبتك هنا ورحت أنا مكانك الجبهة.

- خلاص يا جدع ما كانوش كلمتين.

- حد هيوصلك بكرة ولا اصحى بدري واجي معاك؟

- سيادة القائمقام مصمم يوصلني بنفسه بكرة.. وانا مش عايز ازعله.

- تروح وتيجي بالسلامة يا صاحبي..

ثم منح صديقه ابتسامة مشجعة.. وربت على كتفه تاركًا إياه ومترجلًا من السيارة..

لم ينظر خلفه أبدًا.. الواقع أن عمر يحب محمود كشقيقه.. أبوه عزف عن الزواج بعد وفاة المرحومة أمه.. فلم يمنحه من يشعر تجاهه بذلك الشعور.. إذن فلتبحث عن شقيق يا عمر.. ومن غير محمود يصلح أن يكون كذلك..

راح يمشي الهوينا إلى باب البناية الحديدي.. يمشي على الرصيف فقط لأنه هاب السيارات المسرعة حتى ولو كانت الساعة تندو من منتصف الليل.. هو لا يحب السيارات ولا يحب المرور أمامها.. فقط ليتعثر فيما اصطدمت به قدماه..

كان كتيبًا صغيرًا.. كتيبًا في حجم (ميكي جيب) لو أردت تقريب الصورة.. وتبدو عليه مظاهر القدم.. كتاب صدئ لو جاز التعبير..

هل يرى عمر كتابًا ملقى على الأرض بدون أن يعرف ماهيته؟؟.. مستحيل يا صديقي.. إذن فأنت حديث العهد بذلك الشاب.. عمر دودة قراءة لو أردنا أن نصف علاقته بالكتب.. لن يصبر حتى يصعد ويغلق عليه غرفته ليعرف ماذا يكون..

يلقي تحية المساء على أبيه الذي جلس يستمع لآخر أخبار مبادرة روجرز. يبدو أن عبد الناصر سيقبلها.. لكن أباه مصرّ على أن الحرب لم تنتهِ بعد.. فقط عبدالناصر يلتقط أنفاسه.. لا أكثر ولا أقل..

يغلق باب غرفته وبيده كوب الشاي الثقيل الذي يفضله.. يتناول

الكتيب الذي أدرك أنه ـ حتى الآن ـ لا يعرف عنوانه على الأقل.. كتاب قديم جدًا.. نوعية الورق حتى تختلف عن ورق الكتب المصقول الذي كان يميز كتب الستينات والسبعينات.. إنه ورق قديم مهترئ الأطراف.. وهذا ما يمنحه سحرًا لا يقاوم بالنسبة لشخص كعمر..

مجموعة قصصية لمؤلف يدعى إبراهيم صفوت.. قصص!!.. ومن ذلك الوغد رائق البال الذي يكتب مجموعة قصصية في مائتي صفحة بهذا الحجم الصغير!! إن نجيب محفوظ نفسه لا يجسر على ذلك، فما بالك بهذا الـ إبراهيم صفوت.. اسم غريب نوعًا.. ولكن منذ متى كانت هذه هي المشكلة بالنسبة لعمر..

مجموعة قصصية!!.. الرُّهاب ـ بضم الراء ـ.. ماذا يعني.. أخرج معجمًا صغيرًا، وراح يبحث عن أصل الكلمة.. الرهاب هو الخوف العميق غير المبرر بأساس.. هو يذكر حين كان يقرأ في أحد كتب (يانج) أن الخوف من أشياء ما غير مبرر الخوف منها تكون لدى الإنسان من اللاوعي الجمعي، وانتقل لنا بدرجات ما وبتفاوت.. لكنه لم يقتنع كثيرًا.. لو سألت يانج عن سبب المغص الذي ينتابك بعد أكلة كشري لقال لك بملء فمه (إنه تكوين من اللاوعي الجمعي لجدك العشرين الذي كان يصاب بالمغص من الكشري).

الحقيقة أن ذلك الوغد أجاد اختيار اسم مجموعته.. هو اسم يثير الفضول والتوجس والإثارة والتشوق معًا..

راح يقلب صفحات الكتاب باستمتاع.. الخط مطبوع بطريقة البالوظة القديمة والشهيرة.. فقط حينما وصل إلى تلك الصفحة.. أدرك أنها الثانية صباحًا..

أربع ساعات من القراءة المتواصلة.. الحقيقة أن الرجل موهوب بلا شك يا عمر.. لقد جعلك تتغلب على عادتك السيئة في كشف كل أغراض وأهداف أي قصص تقرؤها.. أنت لا تعرف ماذا يريد حتى الآن.. فقط هي مجموعة لطيفة من جرائم السرقة والقتل والانتحار، وتحمل أسماء غريبة لأناس يخافون من أشياء غريبة لا تبعث على الخوف..

مثلًا.. هذه القصة تتحدث عن رجل يعيش وحيدًا مع ابنه الشاب.. في بناية هادئة في شارع هادئ في مصر الجديدة.. ذلك الرجل الذي أوى إلى فراشه في الثانية عشرة بعد منتصف الليل تاركًا ابنه الشاب يقرأ في غرفته حتى الثانية صباحًا.. فقط ليصحو قبل دقة ساعات الثانية صباحًا.. إنها المثانة الممتلئة.. ليجد مفاجأة غير سارّة أمام حجرة نومه.. ولتكون دقات الساعة الثانية هي آخر ما يسمعه في حياته الطويلة..

ولكن يا عمر.. لماذا بهت واصفرّ وجهك حتى صار كلون صفحات الكتاب؟!!

لماذا يبدو لك الأمر مألوفًا أكثر من اللازم؟!!

لماذا مع دقة الساعة العتيقة المعلقة على الحائط في غرفة الصالون تسمع صوت ذلك الارتطام وكأنما جسد عجوز مرهق ممتلئ المثانة يسقط محدثًا كل هذا الدوي؟!!

يبدو أن خيالك قد لعب لعبته بك يا عمر..

* * *

تنعي أسرة الفيومي وأبو كارم فقيدهم الأب والخال والعم البارّ جمعة الفيومي الموظف بالمعاش، وتسأل الله العزيز القدير أن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته.

* * *

جزء من تقرير طبي لاستخراج شهادات وفاة

الاسم: جمعة عبد التواب الفيومي

السن:٦٣ عامًا

سبب الوفاة: أزمة قلبية

* * *

(٥)

مديرية الأمن.. السابعة صباحًا

ربما لا توافقني الرأي.. لكني أجد الاسم مثيرًا للفضول نوعًا.. خاصة مع الغلاف الجلدي ذي الطباعة الغائرة.. واسم مؤلفه الذي طبع - ويا للغرابة - بحجم خط يماثل حجم عنوان الكتاب!! إبراهيم صفوت.. ومن هذا الإبراهيم صفوت وما هو وزنه في الأدب؟؟ هو ليس محفوظ ولا إدريس ولا إحسان.. هو ليس المنسي قنديل ولا إبراهيم أصلان حتى!!

صفحات مهترئة توحي بقدم.. لا رقم إيداع ولا رقم تسجيل.. لا دار نشر.. ربما طبع هذا الكتاب داخل زقاق مظلم رطب.. ربما كانت هذه هي الطبعة الوحيدة.. ربما طبع بطريقة البالوظة القديمة.. حيث الأحرف المحفورة في الورق.. ووصلات الباء والتاء المقطوعة قطعًا.. وحيث الطبعة الواحدة تقتضي أسبوعا.!! ولكن لماذا هذا الحجم الصغير؟!! لم تكن من عادات الأربعينات والخمسينات والستينات طبع كتيبات بهذا

الحجم!! قبل أن تظهر تراجم الأدب الروسي الشهيرة وكتيبات دار الهلال وروزاليوسف..

ثم إن الكتاب مهترئ بشكل مبالغ فيه.. ورائحته تشبه رائحة شراعة باب بيت جدي في القلعة.. كتاب صدئ لو كان لي أن أقول ذلك..!!

كنت جالسًا أراقب الكتاب وأقلب في صفحاته في حجرة مكتب عماد بمديرية الأمن حينما اقتحم عماد الغرفة اقتحامًا..

- أنت تور يا جدع!! في أوروبا والدول المتقدمة بيخبطوا عالباب الأول.

- ابقى حط يافطة عدم الإزعاج على الباب يا روح امك.. إحنا في مديرية الأمن مش في الإنتر كونتينيتال.. وبعدين ده مكتبي يا بني آدم.. إنت قلة النوم لحست مخك!!

نظرت نحوه في عدم إدراك وخدر لذيذ يغزو عقلي ويتركه في سبات محبب.

- أنا بقالي يومين ما نمتش.. يا دوب بقه أقوم اروح انام لي ساعتين واشوف العدد الأسبوعي بدل ما رئيس التحرير يرميني في الشارع.

- تروح فين.. احنا هنفطر سوا يابا.. وبعدين هوصلك بعربيتي.. الواد بتاع الفول اللي في شارع بورسعيد بيعمل شوية فول بالزيت الحار يستاهلوا بقك.. ولا كلمة زيادة..

ثم وقف أمام تلك النافذة موليني ظهره.. حتى اقتحم عليّ الضابط الصغير المكافح - المكتبَ هو الآخر.

- عماد باشا.. وصلت المعلومات من الأحوال المدنية.. معايا يا باشا؟

- معاك يا علي كمل..

ألقىٰ بنظرة متشككة علي فمنحته ابتسامة ساذجة، ثم تابع:

- السجل المدني بيقول إن في عدد مش بطال من اللي اسمهم إبراهيم صفوت، سواء ثنائي أو ثلاثي ينتهي بصفوت أو رباعي ينتهي بصفوت.. حوالي متين وخمسين ألف مواطن.. عشر تلاف منهم فوق سن الستين.. ألفين من العشرة عناوينهم جوه القاهرة الكبرىٰ.. ده غير اللي معندهمش رقم قومي وساقطين القيد واللي بطايقهم علىٰ عناوين برة القاهرة.

- ودول كام كمان؟

- حوالي عشرين ألف تانيين.

- جميل أوي.. والمتوفين منهم قد إيه.

- تلتمية وخمسين جوه القاهرة بس.

- حلو أوي يعني محتاجين خمس سنين بالميت عشان نتحرىٰ عنهم، ويطلع حدّ منهم له علاقة بالكتاب أو بالجثث..

ثم زفر في إحباط وتابع:

- والكتاب.. وصل لإيدين المجني عليهم إزاي؟!

- محدش عارف حاجة مؤكدة يا عماد باشا.. أم البنت عندها انهيار عصبي واخوها الكبير بيقول إن اخته عمرها ما حبت القراية.. أهل لعيب الكورة الريفي بيأكدوا إن ابنهم عمره ما قرا جرنان وإنه بيفك الخط بالعافية.. آه بالمناسبة؛ أهل علاء البلطيمي برة.. تعليمات سعادتك.

- دخلهم الأوضة اللي جنبي واعمل الواجب معاهم بزيادة شويتين.. وانا جاي اتكلم معاهم كلمتين.. إحنا مش ناقصين مشاكل مع

البلطيمي وحزبه كمان.. آه وابعت بيومي يجيب فطار من عند الواد بتاع الفول اللي على ناصية حسن الأكبر..

انصرف الضابط الشاب مسرعًا.. أخرجت علبة التبغ وغليوني الأثير - أعشق تدخين الغليون فهو يعطي مظهرًا يليق بالعباقرة - فقط لأكتشف أن التبغ نفد.. يوم رائع وعظيم.. طبعًا لو طلبت من عماد أن يأمر أحد عساكره ليحضر لي علبة تبغ لألقى بي من نافذة مكتبه.. إذن فلا تدخين اليوم..

زفرت في ضيق.. الحقيقة أن هذه الأيام أصبحت روح المرء فينا على طرف أنفه.. ثم إن الحرّ خانق نوعًا.. والرطوبة لا تطاق كأننا نعيش في قلب الماء.. ألسنا في مايو؟!! أتذكر عندما كنت في الجامعة أن أيام مايو كانت لطيفة مشمسة ولا ينغصها سوى اقتراب الامتحانات.. ثم لماذا دائمًا يقوم هؤلاء الأوغاد بجرائمهم في أيام صيفية رطبة؟؟!!

- البصمات..

- اشمعنى.؟؟

- أنت هتخشلي قافية يا جدع انت.. متسجلة عندكم؟

- يعني هي لو متسجلة عندنا كنا هنقعد نشرب قهوة ونرغي يا أكرم.. وحياة امك هي مش ناقصاك انت كمان، إنت وملاحظاتك النبيهة.. هلاقيها منك ولا من مساعد الوزير ولا من الولاعة اللي قرفاني في عيشتي.

ثم حاول من جديد إشعال لفافة تبغ.. فلما لم تستجب القداحة للمسانه المتكررة ألقى بها فوق ذلك الكتيب، فأصدرت صوتًا مكتومًا.. لا أدري لماذا توقف فجأة.. ونظر نحو الكتاب قاطبًا حاجبيه حتى ظننته سيصارع الكتاب، ثم قال:

- أكرم..

- خير!!

- معاك مطوة أو قصافة؟

- وهشيل مطوة ليه.. هو انا مشرط ولا هجام يابا!!

أشار لي كي أصمت.. ثم مد يده في درج مكتبه وهو يراقب الكتاب بعينه وأخرج مدية صغيرة تشبة مدية قاصفة الأظافر.. وراح يعبث بها في الجانب الداخلي من الغلاف فتقدمت نحوه مندهشًا.. نعم هناك جزء ما يبدو كفراغ مجوف خلف هذا الغلاف السميك.. كيف لم ألحظ ذلك وأنا أقلب الكتاب في يدي منذ ساعة.. أخذت المدية من يده، ورحت أمرّ ببطء شديد على ذلك الفاصل الورقي.. حتى تكشفت تلك المسافة الصغيرة بين جانبي الغلاف السميك.

- علي.. أيوه أنا عماد.. ابعتلي التهامي بسرعة.. فورًا يا علي..

ثم وضع سماعة الهاتف، وراح يحدق الكتاب بنظرات قلقة حاول إخفاءها خلف قناعه الشرطي الجامد.

- عماد.. هو مين التهامي ده؟

- هتعرف لما ييجي.. ما تشوفلي ولاعة بدل ما انت واقف كده.

لم تكد عبارته تتم خروج أحرفها من فمه حتى سمعنا صوت طرقات مكتوم، ودخل إلى الغرفة رجل نحيف يرتدي نظارات طبية سميكة.. أخرج من حقيبة في يده ذلك الملقاط الصغير، وراح يعبث به في تلك المسافة ليخرج تلك الورقة المطوية الصغير.. ورفعها أمام عيوننا المنتصرة..

- ها يا سيادة الرائد.. افتحها.

- بسرعة وبحرص أرجوك.

لم أكن أعرف كيف تجتمع السرعة بالحرص هنا.. لكن الرجل فض الورقة بسرعة وبحرص شديد.. ثم وضعها مفرودة داخل كيس بلاستيكي شفاف وناولها لعماد ـ دون أن يفكر حتى في إلقاء نظرة ـ وانصرف مسرعًا..

عماد يحملق في الورقة.. فاقترب منه متسائلًا فقط ليمد يده بها إلي

ورقة قديمة لكن حالتها ممتازة.. عليها كلمات كتبت بخط أنيق منمق.. وقلم حبر من الذي يستخدمونه مصحوبًا بدواية حبر.. وبقعة بفعل الحبر الزائد في طرف الورقة.

رحت أقرأ بصوت مسموع محتويات تلك الورقة:

أنت يا من سوف تجد هذه الورقة.. احرق هذا الكتاب اللعين فهو ما وطئ مكانًا إلا حل الخراب معه.. واحذر أن تقرأ كلماته في ليلك الأسود منفردًا.. وتذكر أنني حذرتك وأنذرتك.. والله من وراء القصد، أو هكذا أزعم.. المخلص التعس.. عمر جمعة" .

رفعت رأسي نحو عماد لأجد حاجبيه لا زالا منعقدين ـ حتى ظننت أنهما لن يتخليا عن وضعهما ـ وقلت مستفسرًا:

- إنت فاهم حاجة من الكلام ده؟؟

- اللي فهمته إنه كلام واد اهبل بتاع تخاريف.. وشغل كتب ملعونة والجو الرخيص ده.

- أو ممكن تكون رسالة تمسكنا طرف خيط مهمّ.

- خيط إيه ونيلة إيه.. ناقص تقوللي تعالى نحرق الكتاب، ونرقص حواليه، يمكن اللعنة تروح والناس تبطل تتقتل..

ثم تناول عماد طبنجته الميري، ووضعها تحت إبطه وارتدى سترته قائلًا:

- بقولك إيه.. أنا هخش اخلّص تحقيق مع آل البلطيمي عشان زمانهم خللوا من القعدة في المكتب، واعدي على رئيس المباحث، وبعدين نروح مشوار سوا.

- مشوار إيه يا جدع انت.. بقولك بقالي يومين صاحي وورايا عدد أسبوعي ورئيس تحرير وتقوللي مشوار!!.. بص أنا هقوم امشي والله الغني عن التوصيلة.. وكمان مش عايز فطار..

فتح الباب ورفع عقيرته مناديًا:

- بيومي

- أوامر معاليك.

- جبت الفطار؟

- بيتوضب جنابك..

- طيب حلو أوي.. هتروح لحد علي باشا وتقول له يستعجل تقارير الأحراز بتاعت القضية.. وتجيب لأكرم باشا قهوة لحد ما الفطار يجهز.. آه.. أكرم باشا ضيفي ومش عايزه يتحرك من المكتب خطوة.. وحياة امي يا بيومي لأحولك لمحاكمة عسكرية لو خرج برة باب الأوضة..

- أوامرك يا عماد باشا.

حاولت أن أعترض فنظر لي نظرة كادت تثقب رقبتي وترديني قتيلًا.. ثم صفق الباب خلفه في عنف، وأغلق المكتب بالمفتاح..

إذا كان هذا هو حق الصداقة.. فلتذهب الصداقة وحقها وعماد إلى الجحيم معًا.. لم أنم منذ يومين يا كفرة.. حسبي الله ونعم الوكيل.

رحت أتسلى بقراءة مجلة الشرطة وصنع المراكب والضفادع من تلك

الأوراق البيضاء التي اعتاد عماد أن يشخبط فيها وهو يحقق مع أرباب السوابق متظاهرًا أنه يسجل ملاحظاته.. ثم رحت أراقب الكتاب الصدئ الشبيه بمقاعد أتوبيس النقل العام..

طرقات مكتومة جديدة.. ثم ذلك الوحش الكاسر بيومي يدخل ومعه القهوة فأخرجت لفافة تبغ الغليون الورقية وقلت:

- ممكن خدمة تانية يا بيومي؟!

- أؤمر جنابك.

- ممكن علبة زي دي بالضبط.. لو في أي بنزينة أون ذا رن قريبة هتلاقيها.

- بنزينة إيه يا باشا؟؟!!

- ما تشغلش دماغك.. شوف أي حد قريب وهات واحدة زي دي بالضبط.

تناول اللفافة مني ووقف مبتسمًا في بلاهة.. فكورت عشرين جنيها ودسستها في جيب قميصه.

- خللي يا باشا خيرك سابق.

وكأنه يعرفني منذ سنين!!

- لا ولا يهمك المرّة الجاية.. بس بسرعة وحياة والدك.

خرج من الباب وأغلقه خلفه بالمفتاح.. يبدو أن عماد لا يمزح عادة مع مرؤوسيه حتى أن ذلك الغوريلا حبسني في الغرفة حتى لا أتحرك من مكاني!!!

جلست أقلب الكتاب في يدي.. مستفزّ فعلًا هذا الكتاب.. عندما أقلب

الصفحات تستفزني لقراءتها، ولكني لا أحب القراءة وأنا لا أقدر على فتح عيني.. ثم أي شيء يغريني في قراءة كتاب مثل هذا؛ يتصف مؤلفه بغرور شديد، لدرجة أن يكتب اسمه بهذا البنط العريض، وكأن الكتاب يدعى إبراهيم صفوت وليس الرُّهاب!!

لنر ماذا كتب هذا الأستاذ إبراهيم صفوت..

هناك قصة تدعى (إلى العمق)..

اسم مسطح يشبه أسماء برامج قناة الجزيرة الإخبارية..

"راح سمير يقترب من سطح الماء الرقراق محاذرًا أن تزل قدماه فيسقط على وجهه في صفحة الماء الواسعة.. إنه يحتاج أن يعرف السر.. ولولا هذا لما اقترب من صفحة ماء في حياته، إنه لا يقرب الحمام في آخر الحارة، ويفضِّل الاستحمام بذلك الكوز وداخل الطشت الخاوي.. ثم"..

ثم فتح الباب...

- يا عماد حرام على امك!! أنا مش شايف قدامي.. والعدد الأسبوعي فاضلّه...

فقط لأجده يقتادني من ذراعي وكأني مقبوض علي.. وأهمل تمامًا كل توسلاتي أن يتركني وشأني.. حتى وجدت نفسي جالسًا في سيارته.. فقلت متبرمًا:

- على فين يا سيادة المعاون؟

- المعادي.

- هنهبب إيه في المعادي؟!!

- هنزور بيت البنت اللي اسمها أمل.. عايز اعمل شوية تحريات كده وعايزك معايا.

ثم أدار السيارة وانطلق بها في حِدَّة، فكاد يصدم شابًا على دراجة نارية صينية ويلقي به فوق الرصيف هو ودراجته.

- طيب أنا كنت مدّي بيومي عشرين جنيه عشان يجيبلي تبغ للبايب.

- مش مشكلة هجيبلك تبغ دلوقتي.

- والعشرين جنيه يا عم..؟؟

- كلك عشرينات يا كيمو.. جت يعني على دي.

ثم قبض على المقود وأداره يمينًا في حدّة ناحية نفق الأزهر متابعًا:

- وبعدين أنا عايز اشوف المكان اللي هي عايشة فيه وبعدين.. ملعون أبو اللي علمك السواقة.. لازم اشوف موضوع الواد لعيب الكورة ده..

- طب قابل بقه نفق الأزهر وجماله..

فقط لنجد النفق قد تحول إلى علبة تونة محفوظة قطعة واحدة ممتازة.. لا يوجد خرم إبرة لسيارة فيه..

- لقد وقعنا في الفخ باين.

- من أعمالكم يا حضرة الرائد.

- بطل بقه شغل النسوان الحمضان ده.. وبعدين انت بتهبب إيه في الموبايل.

- بحاول اخش عالنت بس الشبكة معاندة معايا عشان دخلنا النفق.

- وهتعمل إيه بالنت.. هتلعب المزرعة السعيدة؟!!

أدرت وجهي نحوه مبتسمًا:

- لا ما تشغلش دماغك.. أنا بس بسأل الأخ جوجل على اخونا إبراهيم صفوت وكتابه.

- بلا جوجل بلا ياهو.. أنا هخلص مشوار البت ده ونعدي على الأزبكية نسأل علي... اتحرك يا بني آدم النفق فتح بقه.. إحنا كنا بنقول إيه.. يا ابن ال.. ده انا هطلّع ميتين أهلك.

الأخيرة كانت لأحد سائقي التاكسي البارعين.. والذي تذكر فجأة أنه لا بد من الوقوف احترامًا للطريق ليصطدم بسيارة عماد.. ووجدت عماد في قارعة الطريق يهدد سائق التاكسي النحيل بالويل والثبور وعظائم الأمور..

يبدو أنه لن يتركه إلا جثة هامدة..

وهنا فقط.. في بحر شرودي تذكرت شيئًا هامًا.. هامًا للغاية

* * *

حاشية لا بد منها

العام ١٩٨٥ كان عامًا حزينًا يا مدام ميرفت..

على صوت محمد منير الدافئ القوي تتلاعب بك الشجون والأحزان.. وهو يغني يا زماني اضحكلي.. تتمنين أن يضحك لك زمانك ولو مرة واحدة..

فقدتِ أبويكِ في حادثة سيارة صعبة.. فقدتِ ابنكِ الوحيد عندما صدمته سيارة نقل يقودها سائق متهور ـ كعادة كل سائقي النقل ـ ثم أخيرًا فقدتِ زوجك المحبّ العطوف البارّ..

كان ذلك في ليلة صيف حارة.. عاد زوجكِ إلى المنزل حاملًا ذلك

الكتيب الصغير المهترئ ـ صغير كأعداد ميكي جيب لو شئتِ الدقة ـ لماذا جال برأسِكِ تعبير ضحك له زوجُكِ حتى دمعت عيناه.. كتاب صدئ.. هكذا وصفتِ ذلك الكتاب..

رحت تتساءلين عن مصدر ذلك الكتاب الغريب..

- ده كان في حاجة؛ صاحبي اللي اتوفى من كام؛ يوم الله يرحمه.. الله يرحمه، ما سابش للدنيا غير كام كتاب ونظارة قراية ومحفظة فاضية.. فقري طول عمره.

- الكتاب ده شكله مش مريحني أصلًا.. مقبض كده وكئيب.

- ده عشان أنتي كتكوتة نونو ما بتحبيش القراية

تتذكرين كيف كان يصفك بالطفلة.. طفلة في الخمسين من عمرها نعيش وحيدة بلا سند في حياتها..

تتذكرين يا مدام ميرفت كيف تزوجتها.. زوجك محمود.. الشاب العابث الذي تركت الحرب فيه أثرًا لا يخفى.. كيف جاءكِ في ليلة حارّة من صيف أغسطس عام ١٩٧٣ بتصريح أجازة سريعة ليطلب يدكِ للزواج قبل أن يذهب للجبهة من جديد.. كيف انطلقتِ تركضين في الشوارع فرحًا يوم السادس من أكتوبر.. وكيف ذبتِ قلقًا يوم تأخرت عودته.. وكيف هِمتِ حبًّا به عندما عاد ليكون لك للأبد..

تتذكرين كيف دخل محمود إلى غرفة مكتبه في تلك الليلة.. كيف جلس إلى المكتب كعادته وارتدى عوينات القراءة.. كيف أراح رأسه على كفه وراح يقلب في صفحات الكتاب في فضول..

- الرُّهاب.. اسم مقبض كده.. وبعدين ليه الفذلكة ما كان سماه الخوف ولا الرعب وريح نفسه.

- كتابه وهو حر فيه يا ميمي.

- ومين إبراهيم صفوت ده.. عمري ما سمعت عنه؟؟!!

- ولا أنا والله يا حبيبتي.. يمكن كان مشهور في أيامه.. وكان بيحضر صالونات مي زيادة ولا بيناظر العقاد وإبراهيم ناجي.. بس الكتاب شكله حلو ويستاهل القراية.

- والنبي انت اللي حلو

- طب ما تيجي تاخدي شوية حلاوة كده يا قطتي

ويحاول احتضانك بكلتا يديه فتمنعين في دلال

- يا راجل سيبني اريح شوية من شغل البيت.. أنت إيه مش بني آدم

فينظر لك في قسوة مصطنعة خائبة ويرفع حاجبه متابعًا

- أنا مش بني آدم يا قطة.. أنا عزيز

دعابته المرحة.. ابتسامته العطوف.. قبلته الدافئة على وجنتك.. تلك القبلة التي لم تختفِ من حياتكما حتى يوم اختلفتما.. يومها أوصلك لبيت أمك ثم طبعها على وجنتك ـ برغم أنه كان في قمة غضبه ـ يومها لم تتحملي ساعتين وعدتِ إلى بيتك بنفس ثيابك التي خرجتِ بها..

كيف استيقظتِ فجأة في الرابعة صباحًا.. ورأيت الضوء لا يزال منبعثًا من حجرة المكتب..

كيف دلفت على أطراف أصابعك لتجدي زوجك جالسًا على تلك الأريكة وعيناه مغمضتان..

كان نائمًا كالأطفال ـ أو هكذا ظننتِ ـ..

لماذا قادك فضولك إلى ذلك الكتيب المستلقي فاغرًا صفحاته..؟؟

لماذا قرأتِ تلك الكلمات..؟؟

قصة بعنوان (أحمر)

رحتِ تقرأين حتى أوقفتكِ تلكم الكلمات

"فقط عندما نظر إلى الحائط أمامه.. كانت تستقر صورة له مع زوجته وطفله الوحيد يرتدي قميصه الأحمر الأثير.. لماذا لام نفسه على تركه يتجول بدرجاته أمام المنزل في ذلك اليوم المشئوم حتى تصدمه سيارة النقل الحمراء.. لماذا أحس بحنين غريب نحو طفله الوحيد.. اللون الأحمر يغشي عينه ويملكه ذعر لا ينتهي.. رعب جعله يغادر مقعده خلف المكتب.. ويستلقي على تلك الأريكة ويلقي بعويناته بإهمال على الطاولة حتى لا يرى الصورة التي تستقر على الحائط خلفه.. لماذا أغمض عيناه في استسلام.. حتى يبدو لك نائمًا كالأطفال.. لكنه ـ مع الأسف ـ ليس نائمًا أبدًا.. لقد لحق بكل من يحبهم بأسرع مما دار بخياله."

لماذا رفعت رأسك بحركة حادة ـ تلقائية أكثر منها حادة ـ نحو زوجك الراقد كالأطفال على الأريكة؟

لماذا لم تنتبهي من قبل إلى عويناته الملقاة في إهمال على الطاولة؟؟

لماذا صرختي بملء فمك يا مدام ميرفت؟؟

لماذا تتذكرين للآن ذلك الكتاب الذي ورثه زوجك ـ نظريًا ـ من صديقه؟؟

والأغرب من كل ذلك.. لماذا تتذكرين الآن أن ذلك الصديق يدعى عمر جمعة؟!!!!

* * *

- *الواد هيروح مننا زي التاني وانتو قاعدين تنظروا هنا*

- *"ظلام بكر خال من الشوائب."*

* * *

(٦)

جريدة (......) التاسعة صباحًا

جالس في مكتبي بالجريدة أشرب القهوة الباردة ـ التي كانت ساخنة ـ وهي عادة محببة إلى نفسي.. القهوة تأتي ساخنة فأرشف منها رشفتين ثم أنساها حتى تبرد.. ثم أرشف رشفتين لتتحول إلى قهوة باردة لذيذة ومحببة إلى نفسي.. لا نوم إذن ولا راحة.. سوف يتسرب خدر تلك المرحلة الجميلة من اللانوم لا صحو ثم ينتهي الأمر بصداع فتاك يشطر رأسي إلى نصفين ويحولني إلى مومياء حية تمشي على قدمين..

عماد أطلق سراحي أخيرًا بعد أن رفض أهل الفتاة السماح لصحفي بدخول منزلهم.. لو أن الوضع يختلف لكنت أول المرحبين بهم في المنزل.. لكن الصحفيين هم أول المنبوذين في المصائب..!

ألقي نظرة على الطبعة الأولى للجريدة.. العدد الأسبوعي صدر أخيرًا وكأنه كان ينتظرني حتى أضع بصمتي عليه!! اسمي يتذيل مجلس التحرير

في الجريدة بوصفي مسئولًا الآن عن صفحات الحوادث.. عيناي تنهبان الكلمات بلا تركيز أو تشوق لفهم المكتوب.. خبر وفاة علاء البلطيمي ينزوي في ركن صفحة الحوادث بحروف أولى على غرار (ع.م) مع ترميز لوظيفة والده ووصفه بسياسي مشهور.. وصورة ضابط كبير يتعهد بكشف الغموض في أربع وعشرين ساعة.. أي غموض تعرفه يا سيادة اللواء فلان.. لا طالما كان الإخراج الفني في جريدتنا رديئًا.. رديئًا إلى حد لا يوصف.. لقد كتبت خبرًا من ستة سطور فتحول إلى صدر صفحة واللواء فلان والعقيد علان!! ولكن ما علاقة هذا بالإخراج الفني يا أكرم..؟!! إنه رئيس التحرير يبغي توزيعًا مضاعفًا وأنت وقعت على البروفة وكتبت العنوان بنفسك.. هل حدث هذا.. اللعنة على العدد الأسبوعي والكتب المجهولة والجثث.. واللعنة على الأبراج كذلك.

غرقت في نهر شرودي إلى أن دلف ذلك الشاب المتأنق الشبيه بأحمد عز ـ الممثل الذي يظنونه وسيمًا ـ والذي جلس إلى جانبي ومد يده إلي بمظروف ضخم قائلًا:

- صباح الفل يا كيمو.. إيه ما لك؟؟

- صباح الخير.. ولا حاجة مطبّق بقالي يومين وشغال على حكاية معقربة كده، ومتخانق مع أختي ومع رئيس التحرير وشوية قرف.. ها عملت إيه.

- الملف اللي معاك فيه كل حاجة بخصوص الراجل ده.. زي ما انت قولت طلع اسمه الثلاثي عمر جمعة الفيومي.. اتوفى سنة ٨٥ في حادثة عربية.. أو هي حادثة سير زي ما بتقولوا.

- عربية خبطته يعني وهو ماشي؟

- الحقيقة زي ما الشهود بيقولوا في الخبر إنه كان قاعد مستني

الأوتوبيس وبيقرا في كتاب كده، وبعدين قام فجأة ووقف في نص الشارع يبص على الأرض.. وبما أن الاوتوبيس ما بيقفش في المحطة كالعادة فا خبطه وفرتكه حتت.

- يا ساتر.. طيب وابوه... قرايبه.. مفيش أي حاجة عنهم

- مفيش غير حوار كده معمول مع واحد صاحبه اسمه محمود الطيب لقوا ورقة فيها اسمه وعنوانه في جيب المرحوم.. وبيقول في الحوار إنه صاحبه واخوه وإن من ساعة ما ابوه توفى سنة ٧٠ وهو مالوش في الدنيا حد غيره.. الغريب بقه إني لقيت نعي منشور للراجل ده بعدها بأسبوعين.. نعي باسم: (زوجتك العزيزة ميرفت).

- ممم.. هي غريبة فعلًا.. كان يوم إيه تقريبًا..

- هتلاقي التاريخ عندك في الورق.. هشد انا بقه عشان ورايا شغل.. تؤمر بحاجة تانية.

- تسلم يا ابو كمال.. صباحك زي العسل.

رحت أطالع القصاصات المصورة من عدة صحف في أوائل السبعينيات وأوائل الثمانينيات.. أخبار الحوادث كانت تحتل نصف صفحة إلى جانب الكلمات المتقاطعة وحظك اليوم.. أما الآن فا ما شاء الله تحتل صفحة كاملة ويصدر لها ملاحق متخصصة منذ بداية الألفية السعيدة.. أرأيتم أي عصور زاهية نحيا فيها.. والله إننا لمحظوظون..

قصاصة لنعي بسيط تنعي فيه أسرة الفيومي وابو كارم فقيدهم الأب البار جمعة الفيومي.. وقصاصة لنعي صغير ينعي فيه الأستاذ إبراهيم صفوت صديقه جمعة الفيومي فقيد أسرة..

وكأنما لدغتني عقربة.. وأصابتني بلوثة.. رحت أفرك عيناي وأقربها

بشدة من تلك القصاصة الصغيرة.. ثم ألقيت بعيني على التاريخ المدون من إدارة الميكروفيلم لأجده صبيحة يوم وفاة ذلك الرجل المسكين في صيف عام ١٩٧٠..!!

إذن فذلك المؤلف المخبول كان صديقًا لوالد عمر.. أو هو يدعي ذلك..

طلبت رقم عزت صديقي الذي يعمل بقسم الميكروفيلم بأحد الصحف الكبرى.. فاجأني صوته الجهور مرحِّبًا إلا أني قاطعته:

- حبيب قلبك إيه وبتاع إيه بقه.. إنت خليت فيها حبيبي.. لا يا عم أنا زعلان.. لا ما تصالحنيش ولا الكلام ده خلينا في الشغل.. لا إذا كان فيها غدًا يبقى تصالحني زي بعضه.. بقولك يا زيزو أنا عايز منك خدمة.. عايزك تبصلي على صفحة الوفيات في الجرنان عندكم أو في أي جرنان تاني سنة ٨٥.. التاريخ هقولك عليه بس يمكن تلاقيه بعد كده بكام يوم.. ما تدور يا عم هو شغلي ولا شغلك.. طب يا جدع خلي في عينك حصوة ملح على الأقل عشان خاطر ابن اختك اللي لسه مستلم امبارح.. أسيح إيه بقه ما انت اللي بتقوللي مشغول ومش فاضي.. لا حبيبي يا زيزو.. بص هقولك التاريخ كان يوم....

* * *

حاشية لا بد منها

العام ٢٠١٢ عام غريب يا أستاذ غريب..

ما كل هذه المشاكل التي يواجهها الجميع..؟؟

زلازل.. أعاصير.. أزمات اقتصادية.. حروب.. توترات.. غلاء..

فتاوىٰ خزعبلية تشبه قبعة المهرج.. ثورات.. ثم حروب.. ثم ثورات من جديد لإنجاح ما فشل في ثورات أخرىٰ..!!

وأنت جالس في غرفة نومك تقرأ..!!

أغلقت التلفاز منذ خمس دقائق.. قناة الجزيرة تصر علىٰ أن تعطيك أملا بأن العالم يعج بالأوغاد والقتلة والمدعين.. وأنت تحب مشاهدة العالم من الخارج.. لا طالما أحببت ذلك.. فأنت تعرف أنك أجبن من أن تقتحم أي شيء في حياتك..

وأنت طفل صغير كنت تضرب وتهان وتسرق شطائرك وتمرمغ في التراب.. إلا أنك لم تعترض.. لم تشكُ.. لم تذهب يومًا إلىٰ مدرسك تطلب منه الحماية.. أنت تخشىٰ ممَّن فعلوا بك ذلك.. فالمدرس لن يذهب معك إلىٰ المنزل.. لن يتعلق بالعربة الأخيرة في مترو مصر الجديدة ليحميك من هؤلاء الأوغاد.. فقط ترضي نفسك بأنك ستكون مواطنًا صالحًا يفيد نفسه وبلاده ـ كما يقول كتاب القراءة الحديثة ـ بينما سيتحول أي فرد منهم إلىٰ سفاح أو تاجر مخدرات ـ علىٰ أقل تقدير ـ

وأنت شاب مراهق رفضت كلية الشرطة ـ برغم الواسطة المضمونة ووظيفة والدك الحساسة ـ لأنك لا تحب العنف..

هكذا حاولت أن تقنع نفسك يا عزيزي.. أنت لا تحب أن تواجه.. لم تتخيل نفسك يومًا تقف ممسكًا بسلاحك الميري مشهرًا إياه في وجه أحدهم وأنت تردد العبارات التي يدرسونها في مقرر السنة الأولىٰ ـ هكذا كنت تعتقد ـ.. ارفع إيدك يا بيومي.. المكان كله محاصر.. مفيش فايدة من الهرب!!

وأنت رجل كبير تزوجت أول فتاة رأت أمك ـ رحمها الله ـ أنها صالحة.. لم تجسر علىٰ أن تتعرف علىٰ سعاد أو إلهام.. أو مي التي كانت تهيم بك حبًّا

وأنت تدعي أنك لا تشعر نحوها بأي شيء.. لقد كذبت يومها يا عزيزي.. أنت كنت تحبها.. لكنك لم تتصور نفسك تقتحم بيت أهلها وتجبر والدها المتسلط ـ بمنامته الكستور وجواربه الصوفية صيفًا وشتاءً ـ على أن يقبل بك زوجًا لابنته.. لم تتصور أنك يمكن أن تتحمل كلماته وهو يصفك بالرقيع.. لأنك تضع كريم الشعر على رأسك الصغير

الآن أنت بلا زوجة ـ فقد هجرتك ـ.. وبلا عمل ـ فما هو مستقبلك كمحام محدود الموهبة وسط الآلاف من أمثالك ـ.. وبلا ولد ـ ربما لأنك جبنت وأحجمت عن الإنجاب أيضًا ـ

تجلس وحيدًا تقرأ في ذلك الكتاب الذي ابتعته من سور الأزبكية.. كتاب صغير بحجم روايات الجيب.. مهترئ الصفحات.. الكثير من القصص الغامضة.. كلها تتحدث عن القتل والسرقات والوفيات الغريبة.. أنت تتبع القاعدة الفرويدية بمنتهى الدقة يا عزيزي.. تفرغ نفسك وتطهرها.. فأنت لا تتخيل نفسك فردًا في هذه القصص.. لا تتخيل نفسك ضابط شرطة أو محقق أو قاتل أو حتى ضحية من ضحايا هذه القصص..

إبراهيم صفوت!! لم تسمع به من قبل.. برغم أنك تعشق القراءة.. إلا أنك لم تسمع بهذا الإبراهيم طوال سنوات عمرك الأربعين..

ثم إنه ليس عريض الموهبة حتى يجسر على تأليف قصص بهذه الكمية.. ثلاثمائة صفحة..!!

تأمل هذه القصة لتعرف أنه ضعيف الموهبة بشكل كبير..

قصة تدعى (جبان)

قصة تحكي عن رجل في الأربعين من عمره.. رجل وحيد ومحبط وجبان.. عاد من المكتبة حاملًا كتابًا قديمًا ليقرأه.. وشطيرتين من الفول بالزيت الحار كي يتناول إفطاره ـ الذي هو غداء بصورة ما ـ هو والقط

الصغير الذي يؤنس وحدته.. كيف أكل شطيرة الفول وشرب من تلك الزجاجة الخضراء.. لم يكن يعرف أنها زجاجة ذلك المنظف المزعج ثقيل الرائحة.. وجلس يقرأ في فراشه.. حتى غلبته عيناه مع الثانية عصرًا فنام.. إلا أنه لم يكن يعرف أنه لن يستيقظ.. لن يستيقظ أبدًا..

هل توفقني الرأي في أنه محدود الموهبة يا صديقي؟؟

لكن الساعة الآن الثانية عصرًا.. لقد تأخر الوقت يا غريب.. لا بد أن ننام قليلًا.. أمامك يوم من البحث عن عمل ما في مكاتب أحد المحامين.. إن شطائر الفول تحتاج إلى المال.. وسهام رفعت قضية لتحصل على نفقتها.. إذن فلا بد أن..

لماذا يأتي النوم ثقيلًا وسريعًا هكذا..

إن الثانية ظهرًا هي ميعاد مناسب للنوم العميق لو سألتني..

* * *

(٧)

مقهى الليالي بحي عين شمس.. الثامنة مساء

صوت قرع أحجار الدومينو.. والطاولة.. وتقليب الزهر.. وقرقرة مياه الشيشة داخل الإناء الزجاجي المزخرف.. وصوت أم كلثوم يدوي من المذياع الياباني القابع فوق ذلك الرف..

دائمًا تثير هذه الخلفية الموسيقية المختلطة أذني.. وكثيرًا ما كنت أجلس بمفردي أراقب عيون الناس وهي تتابع في شغف ذلك الدور العصيب في لعبة الدومينو.. واللاعبان يبدوان كرئيسي دولتين عظمتين.. أو ذلك الشاب الذي يقرع أحجار الطاولة.. ليعلن أن العشرة انتهت بهزيمة ساحقة لغريمه..

الأمر ليس في اللعبة نفسها أو إثارتها أو حتى في مهارات خاصة قد تبذل مجهودًا كبيرًا لتعلمها.. الأمر كله يتركز في هذه الإثارة.. في كمّ البشر الذين يتجمعون حول اللاعبين مثيرين عاصفة من المؤثرات البصرية.. رافعين

سفيرتهم التي أبلاها المعسل والدخان.. مشجعين هذا أو لائمين على هذا.. وكأن الحرب العالمية الرابعة سوف تشتعل نارها إذا لم يتحرك هذا (القشاط) أو لم يأت الزهر بما تشتهيه الأنفس!!

الدكتور أحمد سليمان.. الطبيب النفسي الشهير والصديق القديم جدًّا لوالدي ـ رحمه الله ـ يسحب نفسًا عميقًا من تلك الشيشة ثم يتابع نافثًا سحابة من الدخان حوله:

- إزيك يا أكرم.. ده انا بقالي يجي ثلاث سنين ما شفتش خلقتك يا واطي.

- اعذرني يا عم احمد والله.. الدنيا ممرمطة الواحد شغل وأكل عيش وجري على أكل العيش ومحدش بيرحم.

- والله وكبرت يا أكرم وبقيت تتكلم عن أكل العيش

ثم ضرب كتفي بقبضته الواهنة وأطلق ضحكة صافية عجوز ذكرتني بضحكة أبي رحمة الله عليه في ليالي الصيف الرائقة ونحن نلعب الطاولة في شرفة منزلنا.. كانت أيامًا شبيهة بنسمة عابرة مرت على وجهك في قيظ أغسطس فلم تعرف كيف جاءت ولا متى رحلت!

- طيب بص يا دكتور أنا هخش في الموضوع على طول عشان عارف إنك بتنام بدري.

- أنا كلي آذان يا سيدي.

- أنا عايز اعرف شوية معلومات عن الفوبيا

توقف قليلًا عن تدخين الشيشة وسعل من كل أعماق صدره الذي أتلفه المعسل تقريبًا فلم يترك سوى حويصلات قليلة في رئته لتبقيه حيًّا يرزق.. ثم خلع نظارته الطبية الأنيقة ووضعها على الطاولة وقال:

- طيب يا سيدي.. هو في أنواع كتير للفوبيا أو اللي بيسميه اللغويين الرُّهاب.. سنة ٢٠٠٩ عملت ورقة علمية كده في مؤتمر جمعية الطب النفسي الأمريكية ممكن اجيبهالك بكرة تقراها.

- لا؛ أقراها إيه يا عم احمد.. وحياتك يا دكتور قولي كده على ملخص الأمور في قعدتنا اللطيفة دي.. وربنا يخليك لينا.

- ما تكرمشلي خمسين جنيه في إيدي كمان.. إيه ياد قلة الأدب اللي انت فيها دي.. هو إذا ما كانش العلم يجي في كبسولة تبلعها ببقين ميه ساقعة ما يتشافش ولا يتقري.. خلاص يا اخويا روح دور عالنت وانت تلاقي الملخصات.

كنت أريد أن أخبره أني فعلت ذلك فعلًا قبل جلستنا هذه ولكني أحجمت فورًا.. غضب من هم في سن أبي آخر ما أريد إثارته في جلسة ربيعية لطيفة مثل هذه.. لكني حاولت جعل كلامي لطيفًا أكثر مما أستطيع.

- اللي عالنت كلام فاضي حاطينه شوية عيال يا دكتور سليمان.. لكن إنت الخبرة اللي فاهم وعارف.. إديني حاجة مبسطة كده زي بتوع تبسيط العلوم عشان اعرف أستوعب.

- أمرنا لله.. ورحمة ابوك الحاج فهمي حبيب اللي ما بحلف برحمته على حاجة وارجع فيها.. لولا إن أنت ابنه أنا ما كنت عبرتك ببصلة.

- طول عمرك قلبك كبير يا دكترة.

نظر لي في تقزز العالم الذي يكره تلخيص مجهود أعوام في جلسة على أنغام الشيشة وأحجار الدومينو لصحفي لزج مثلي ثم احتضن المبسم بين كتفه وصدره.. ورفع كف يده يعد على أصابعه:

- في الورقة العلمية كنت عامل ثلاثة تصنيفات للفوبيا من وجهة

نظري.. التصنيف الأول هو (الرهاب المنتشر).. في منه على الأقل خمسة أنواع من الفوبيا منتشرة بدرجات متفاوتة في أكثر من ثمانين في المية من سكان كوكب الأرض أشهرها على الإطلاق.. Acrophobia الخوف من المرتفعات وAchluophobia الخوف من الظلام وClaustrophobia الخوف من الأماكن المغلقة و Hydrophobia الخوف من الماء وAgoraphobia الخوف من الأماكن المزدحمة

- التصنيف الثاني هو (الفوبيا قليلة الإصابة) ودي ليها أنواع كتيرة برضه.. وأشهرها على الإطلاق Agyrophobia الخوف من عبور الطريق وAilurophobia الخوف من القطط وHemophobia الخوف من منظر الدماء وArachnophobia الخوف من العناكب وOphidiophobia الخوف من الثعابين.

ويعتبر النوع الأخير ده هو الأشهر حدوثًا تقريبًا في الفئة الثانية.. أنت عارف حواديت كارل يانج والوجدان الجمعي اللي بيركز الخبرات وينقلها عبر العصور إلخ إلخ.. كل أنواع الفوبيا النادرة بتتركز على خبرات سابقة تضخمت بالعقل الباطن، والوجدان الجمعي نقلها.

ما بيلعش كلام كارل يانج أوي وموضوع الوجدان الجمعي من أيام المدرسة.. وبيتهيأ لي يانج لو عرف إن عندي إسهال مزمن من أكل المسقعة فا هيبقى تشخيصه إن جدي السادس عشر كان بيجيله إسهال من المسقعة.. ما علينا يمكن يكون رأي صادم حبتين.. طيب والتصنيف الثالث يا دكتور..

كان شاردًا وهو يسحب نفسًا عميقًا من الشيشة.. ويراقب شابًا يلقي

بالزهر على علبة الطاولة الخشبية بطريقة (القَرص) الشهيرة وصديقه يرفع عقيرته غاضبًا:

- أنت بتقرص يابا تاني.. هو أنت ما تعرفش تلعب لعب نظيف أبدًا

- آدي بقه آخرة اللعب مع الهواة اللي زيك.. ده ستايل يا جاهل.. هو كل ما الواحد يرمي الزهر بستايل تقولوا بيقرص!!

- ستايل!!.. الله يرحمه.. كان بيعلي الراديو ويوطي من تحتيه..

- دكتور سليمان..!!

- إيه يا أكرم في إيه سرعتني يا جدع.

- التصنيف الثالث يا عم أحمد الله يكرمك.

وكأنما أحدثه في أمر غريب.. اتسعت عيناه وراح يحملق في وجهي.. وكأنما يراني للمرة الأولى في حياته التي تخطت السبعين.. ثم كما شرد فجأة استعاد كل تركيزه فجأة، وراقت مياه بحيرته، وتابع:

- اعذرني يا أكرم معلش اليوم كان طويل شويتين وطلبة اليومين دول في الجامعة بيطلعوا عينك على ما توصلهم معلومة.. التصنيف الثالث بقه يا سيدي هو (الرهاب النفسي).. كل الأنواع اللي فاتت دي أسباب إصابتها ـ زي ما أكيد عرفت لأنك مستحيل تكون جايلي أبيض يا ورد من غير معلومة واحدة ـ الإصابة بيها بتبقى مبنية على حوادث قديمة حصلت في وقت من أوقات حياتك وترسبت جوه عقلك الباطن وبقى بيستدعيها وقت الحاجة فتلاقي نفسك حسيت بخوف غير مبرر من الحالة اللي أنت فيها للدرجة إنك نفسك شخصيًا ممكن تنسى السبب اللي مخليك خايف!! زي مثلًا الطفل اللي اتعود أهله يحبسوه في أوضة ضلمة لما يغلط بتتكون عنده

قناعة إن الضلمة مخيفة جدًّا وتلاقيه بقى هستيري أوي لما يكبر قصاد أي موقف يلاقي نفسه فيه جوه مكان ضلمة.. إنما النوع الثالث ده مالوش أي تفسير غير تكونات في اللاوعي بتلعب بوعيك الحاضر..

ابتسمت وأنا أخلع نظارتي لأنظفها في قميصي المتسخ وهو يتابع:

- العقل الباطن بيموت في الألاعيب والإسقاطات.. مثلًا مدرسك في ابتدائي كان عنده عربية فيات زرقا والراجل ده أنت ما كنتش بتطيقه وكان دايمًا بيدايقك أو بيضربك.. فتكون جو لا وعيك إن كل واحد عنده عربية فيات زرقا من نفس الموديل يبقى زي مدرسك بتاع ابتدائي: وغد وإنسان سادي ولازم تكره صُحبته وممكن تطب ساكت لو ركبت عربية فيات زرقا زيها.. زي مثلًا لما حصلت تفجيرات سبتمبر وطلع بن لادن أعلن مسئوليته عنها.. اتكونت الصورة في لا وعي الإخوة في أمريكا وأوروبا إن كل واحد مسلم ملتحي إرهابي ومالوش أمان ولازم يتضرب بالنار هو ودينه رغم إن أغلهم عارفين إيه هو الإسلام وإن عمره ما كان دين إرهاب وتفجيرات.. الإسلاموفوبيا زي ما انت عارف Islamophobia!!

- ده انا كنت فاكره مصطلح علم اجتماع سياسي مثلا.

- ممكن أوافقك في الرأي بس تفسرلي ليه إن ستين في المية من سكان أمريكا الشمالية وغرب أوروبا عندهم عداء غير مبرر للإسلام.. وإن تلاتين في المية منهم بيتعالجوا من آثار نفسية عدائية ضد كل ما هو إسلامي أو عنده مظهر إسلامي.. بدليل حادثة قتل المرحومة مروة الشربيني اللي ما كانش ليها أي مبرر غير إن المختل نفسيًّا اللي قتلها كان كاره منظرها بالحجاب!!

ثم التفت ناحية الشباب لاعبي الدومينو وضاقت عيناه متابعًا أحدهم

وهو يلقي بأحد الأحجار في قوة:

- قفلت يا تلموذ.. قولتلك مش هتقدر عليّا

- قفلت يا نصاب.. ده احنا عايزين ولا خمس ثورات عشان النصابين اللي زيك يتمسحوا من على وش الأرض.. دول خمسة سيه (ثلاثة) بس يا نصاب.. وانا معايا اتنين لسه..

- خمسة بس.. لا مؤاخذة غلطت في العدد.

- طب خش شيل اللي برة يا روح امك عشان تبقى ما تغلطش تاني.

- دكتور سليمان!!!

وكأنما لدغه عقرب انتفض جسده وأسقط مبسم الشيشة ونظر نحوي في حدّة:

- أكرم.. ما تبطل الطريقة المقرفة دي.. أنا عديت الخمسة وستين يا ابني وما بقتش قادر استحمل اللي انت بتعمله ده.

- اعذرني بس انا كان عندي سؤال أخير عن التصنيف الثالث.

- خلصني أنا معاد نومي قرب..

رفعت مبسم الشيشة وناولته فأعلن أنه غير راغب فيها وأشار بأصبعه - أن تكلم - فتابعت:

- هو في أنواع تانية غير الإسلاموفوبيا غريبة برضه كده.

- كتير أوي يا أكرم.. زي الخوف من الزهور.. من العربيات.. من الثلج.. من الألوان الأحمر والأصفر.. الخوف من اليهود والخوف من الألمان وحتى الخوف من الصينيين!!

- أنا عندي المشكلة دي بقا.. أنا بخاف من الصينيين عمى.. ولما حد

بيخبط عليا منهم عشان يعرض عليا طقم ملايات ولا دستة اطباق بقفل الباب في وشه بسرعة برغم إنه بيبقى في منتهى الأدب.

- لا دي مش فوبيا يا أكرم.. ده أنت بتستعبط بس.

- والله يا دكتور أنا مش عارف أقولك إيه.. مين غيرك كان هينورلي طريقي المظلم.

- ياد يا حلنجي..

ثم ابتسم في ودّ... ونهض معلنًا أن الوقت قد تأخر وأنه لا بد من النوم.. فهو كعادة كل من تقدموا في السن ينام في التاسعة ويستيقظ قبيل الفجر وكأنهم زهدوا النوم بعد ما تمتعوا به طوال عمرهم.. رغم أن أبي رحمه الله كان ينام في العاشرة ويستيقظ في الخامسة منذ أن كان في الثامنة والثلاثين!!

راح دكتور سليمان يوزع ابتساماته على كل الحضور في مودة.. هو من أقدم من يرتادون هذا المقهى وحضر كل تغيراته منذ أن كان مرصوفًا بالقيشاني الزلق وحتى تحولت واجهته إلى رخام كرارة الفاخر.. وراح يسأل عم خليل صاحب محلات البقالة عن هبة ابنته.. فيخبره أنها في آخر سنين الجامعة الآن.. ليلعن هو الأيام التي تجري مسرعة ويردد عبارات من غرار "العيال كبرت جدًّا" أو "إنه زمانهم يا حج"..

ثم تركني وأنقد النادل ثمن المشروبات... بعد أن أقسم بكل الأيمانات التي أعرفها والتي لم أسمع عنها في حياتي أنه هو الدافع... ثم منحني ابتسامة أبوية حنون واحتضنني حضنًا كنت أشتاق إليه منذ أن منحني مثله يوم وفاة أبي.. الحقيقة أني أرى في وجهه ابتسامة الأستاذ فهمي حبيب مدرس أول التاريخ في مدرسة الطبري الثانوية بنين.. وموجه المادة ووكيل الوزارة لاحقًا.. الرجل الذي وضع في يدي جريدة الأهرام يوم أن كنت طفلًا في العاشرة وأشار نحو صورة أحمد بهاء الدين وقال لي بصوته الوقور الدافئ:

- شايف ده؟

- مين ده يا بابا؟

- ده صحفي اسمه أحمد بهاء الدين.. يوم ما تكبر عايز اشوفك قاعد على كرسيه في الاهرام وبتكتب مقالة في نفس عموده.. يوم ما تعمل كده ابقى كملت رسالتي في الحياة وما بقتش عايز حاجة من الدنيا.

ثم وضع في يدي قلما وكراسة خاوية وقال:

- اوعى تبطل تكتب اللي انت عايزه.. اكتب عن المدرسة واللي حصل فيها.. اكتب عن صحابك اللي بتلعب معاهم في مركز الشباب.. اكتب عني وعن ماما وعن أمجد وأسما إخواتك.. إوعى تبطل تكتب مهما حصل.

الهاتف المحمول يعوي طالبًا مني إنقاذه من كل تلك الكلمات المحشورة في حلقه الضيق.. إنه عماد.. يبدو أنه تذكرني أخيرًا بعد عشر اتصالات..

- تو ما افتكرت يا بيه..

- يا جدع إنت هو انت صحبتي.. وبعدين إيه تو دي..

- أنا بسمعهم بيقولوها كده الحقيقة.

- اسمعني بقه وخلينا في المهم.. أنا عايز منك خدمة مهمة جدًا جدًا.. وهنتقابل الساعة ٨ عندي في المديرية الصبح.

- أؤمر يا قمر أمرك يمشي..

راح يملي علي أشياء أفعلها وأماكن أزورها.. وكل ذلك لا بد أن يتم قبل منتصف الليل.. والساعة الآن العاشرة مساء!!!.. لا يعرف سعادته أني لو فكرت الخروج فقط من هنا سيستغرق الأمر ما يربو على الساعة..

ولكن ضباط الشرطة لا يعرفون ماذا تعني عبارات "مرور مزدحم" أو "الإشارات كثيرة ومزدحمة" لا وجود لها في قاموسهم في الواقع..

ولما جاء وقت إنهاء المكالمة قال مسرعًا:

- آه أكرم.. كنت هنسى اقولك يا أخي.. في جثة ظهرت وجنبها نفس الهباب الكتاب إياه في بولاق.. محامي عاطل عن العمل.. راجل أكل أكلة فول وطعمية دسمة حبتين وبعدي رفع قزازة فينيك وبعدين ذبح القط بتاعه وربنا خلصه من عذاب الدنيا.. أكرم.. بقولك إيه.. أكرم.. هي الشبكة بتقطع ولا إيه..

* * *

- *"كأنك في رحم أمك"*

- *أقسم بالله لأقطع رقابيكم جميعًا لو ما فاقش حالًا*

* * *

(٩)

مديرية الأمن.. التاسعة صباحًا

- أنا حقيقي في غاية السعادة من اللي انت بتقوله ده.. حقيقي فخور بيك والله.

- بلاش تريقة وحياة والدك.

- بلاش تريقة.. إنت هتستعبط يلا.. إنت عايز تثبتلي إن كل حاجة بتلف وتدور حوالين الكتاب الاهبل المصدي ده.. وإن اللي بيشتري الكتاب يا بيتقتل يا بينتحر.. إنت مدرك للي بتقوله ده ولا خلاص مخك اتلحس من كتر الكتب الهابلة اللي بتقراها؟؟!!

- أنا مدرك لكل كلمة بقولها يا عماد.. اللي عمل الكتاب ده بينفذه على أرض الواقع وبيقتل كل حد بيقع في إيده الكتاب..

تركني واتجه لباب غرفة مكتبه وفتحه على مصراعيه متابعًا:

- جميل أوي.. أنا عايزك تخرج من الباب ده وتطلع دورين لحد مكتب مساعد الوزير تقوله إن المتهم الرئيسي في جريمة قتل علاء مسعود البلطيمي وآخرون هو كتاب اسمه الرُّهاب مؤلفه واحد مجهول اسمه إبراهيم صفوت في الخمسينات وإنه بيجري ورا كل اللي بيشتري الكتاب ويموته.. آه ما تنساش تبقى تشرحله نظريتك كويس قبل ما يجيب القميص الابيض ويلبسهولك بالمقلوب.

احمرت أذناي من كثرة الإحراج وصوته يملأ طرقات المديرية مجلجلًا فنهضت غاضبًا عازمًا على الرحيل.

- أنا فعلًا هخرج من الباب ده بس على بيتنا على طول ومش هتشوف خلقة اللي خلفوني تاني.. إوعى من وشي يا عماد.

- وحياة امك بطل شغل العيال ده واترزي مكانك..

ثم دفعني نحو المقعد الجلدي فغصت فيه مشيحًا وجهي ناحية النافذة الزجاجية الكبيرة.

- أشرف.. إنت يا زفت.

- أوامرك عُماد باشا.

- هاتلي اتنين قهوة عالريحة وتدخلهم بنفسك.. ومش عايز أي حد يدخل عليّا أيًّا كان السبب.. لو وزير الداخلية شخصيًّا ما يدخلش..

ثم صفع الباب في عنف وعاد إلى مكتبه.. وراح ينقر سطح المكتب بطرف قلمه الجاف.

- معلش يا أكرم حقك عليّا..

- ولا يهمك..

- إنت ما تعرفش أصلك مساعد الوزير عمل فيا إيه الصبح.. ده شطفني.. أنا ممكن اقلع الرتب والبس البيجامة واقعد جنب امي لو ما جبتش اللي عمل كده.

تشاغلت بتنظيف غليوني غير ناظر إليه.

- ما تشغلش دماغك.. مفيش حرج على تور لو كسر سور الجنينة.

- تشبيه سخيف زيك.. إنت عارف كويس إني لا بعتبرك صحفي شاطر ولا صديق والكلام ده.. إنت اخويا والوحيد اللي بثق فيه وفي دماغه.. وبعدين إنت بتعرف تتحرك بسهولة من غير إذن نيابة ولا مذكرة ضبط وإحضار.. وفي الشغل علاقتنا تكافلية زي ما إنت بتقول على طول.

- زي الخرتيت وطائر القراد بالضبط.

- ماشي يا سيدي أنا خرتيت.. وتور وكل اللي في نفسك تقوله.. بس حتى الخرتيت والتور ما يقبلوش كلام زي اللي انت بتقوله ده.

- عشان إنت معدوم الخيال يا حضرة الظابط.

- اللي إنت بتقوله ده شطحان مش خيال.. خلينا نتكلم بجد شوية بقه..

اعتدلت في جلستي ورفعت نظارتي الطبية على قصبة أنفي في وضع هجومي مستفز.

- أنا بتكلم بجد يا عماد بس إنت اللي مش عايز تسمع.. الكتاب ده بيظهر في كل مكان حصلت فيه أي جريمة هو ومؤلفه المغمور إبراهيم صفوت.. عمر جمعة مات تحت عجل أتوبيس النقل العام ولقوا معاه الكتاب زي ما عرفت من تقارير الحادثة بتاعته سنة ٨٥

ولقيت نعي منشور باسم إبراهيم باشا صفوت ليه.. وابوه الله يرحمه مات سنة ٧٠ برضه وفي نعي باسم الزفت إبراهيم صفوت ليه.. وبعدين الكتاب نفسه وقع في إيد صديقه محمود الطيب وبعدها بأسبوع مات هو كمان في بيته بأزمة قلبية ونفس النعي منشور من نفس الإبراهيم صفوت برضه في الجرنان.. وبعد ٢٨ سنة يموت أربع بني آدمين في جرايم قتل متدبرة حلو أوي وبرضه تلاقي نفس الزفت الكتاب معاهم.. وتقولي صدفة وشطحان.. ده الشطحان ذاته إنك ما تصدقش إن كل حاجة ليها علاقة بالزفت اللي متلقح على مكتبك ده.

- برضه ده مش دليل على كلامك.. أي حد ممكن يفكر التفكير ده ويتحرك بالطريقة دي عشان يضللنا ويكمل هو براحته كده.

نهضت حاملًا ورقة صغيرة ألقيتها على مكتبه فنظر فيها ثم حدجني بنظرة جحيمية غاضبة:

- أنا بدور في الكتاب ده بقالي ساعتين ولقيت شوية العناوين اللي في إيدك دي.

- وافهم انا إيه من العناوين دي يا عبقري زمانك؟؟

- هقولك يا حضرة المعاون.. إسمع يمكن تفهم..

ثم أمسكت الورقة ورحت ألقي بالعناوين مفسرًا:

- قصة اسمها (الثانية صباحًا) بتحكي عن راجل عنده خوف من دقات الساعة القديمة.. وفي يوم اشترى ابنه ساعة حائط قديمة لقاها في محل أنتيكات وعلقها وابوه نايم.. وفجأة الراجل الكبير

يصحى من النوم يروح الحمام الساعة اتنين صباحًا فا يسمع دقات الساعة ويطب ساكت بأزمة قلبية.

- أنا ما بحبش صوت دقات الساعة القديمة برضه.. بس مش هطب ساكت لما اسمعها يعني.

- لو كان عندك ستين سنة ومريض قلب أصلا هتطب ساكت من الخضة.

دقات على الباب فأجفلت وأمسك عماد بمسدسه شاهرًا إياه ناحية الباب قبل أن يدرك أنها دقات باب مكتومة عادية..

- مين؟؟

- القهوة يا عماد باشا.

- تعالى يا أشرف.

دخل المجند البائس حاملًا القهوة ووضعها أمامنا ثم ناول عماد مظروفًا صغيرًا وقال:

- علي باشا ساب ده لحضرتك من شوية.. بس تعليمات سيادتك إن محدش يخش فا هو سابه مع بيومي، وهو اداهلوي أسلمه لحضرتك.

- طب روح إنت يا أشرف.

فض المظروف وراح يقرأ ما فيه مسرعًا ووجهه يتبدل نوعًا.

- في إيه الظرف ده يا عماد؟

- بعدين هقولك.. كمل نظريتك..

- وبعد ما رجعت الأرشيف والميكروفيلم في كذا جرنان لقيت إن الأستاذ جمعة الفيومي والدعمر واللي عرفت اسمه الثلاثي من كتابة

بالقلم الرصاص في ظهر الكتاب مات بأزمة قلبية في البيت سنة ٧٠ ولقينا النعي إياه.. الغريب بقه إن محمود الطيب صاحب عمر اللي مات في بيته برضه كان عنده طفل عمره سبع سنين خبطته عربية نقل حمرا من بتوع زمان دول قدام باب الفيلا بتاعته في المعادي.. ولما قلبت في الكتاب لقيت قصة اسمها (أحمر) بتتكلم عن واحد مات بسبب خوفه من اللون الأحمر لما شاف صورة ابنه محطوطة جوه برواز أحمر في بيته.

- إيه الهيافة دي..

- النعي بقه متوجه من إبراهيم صفوت للأب.. إيه علاقة إبراهيم صفوت بالراجل ده.. أنا رحت لمراته وانا بحاول اخلص الحاجات اللي طلبتها مني.. الست كبرت وعجزت وما بقتش تشوف قدامها مترين بس ذاكرتها حديد وفاكرة كويس إنها رمت الكتاب ده في الزبالة تاني يوم وفاة جوزها لأنها اقتنعت إنه نحس.. وإن جوزها كان معدود الأصحاب وما كنش ليه صديق اسمه إبراهيم صفوت نهائي!!

انعقد حاجبا عماد في شدة وكانها بدأ يشم رائحة غير محببة في كلامي فاقتنصت الفرصة متابعًا:

- في نفس السنة وقبلها بأسبوع مات عمر جمعة مصدومًا بأتوبيس نقل عام في مصر الجديدة.. ونفس النعي برضه في نفس الجرنان باسم إبراهيم صفوت.. دلوقتي افتح الكتاب على صفحة ٨ هتلاقي قصة اسمها حافلة الموت افتح الكتاب.. القصة دي بتتلكم عن واحد بيخاف يعدي الشارع وفجأة لما قرر يتغلب على خوفه ويعدي الشارع...

- صدمه أتوبيس نقل عام.

- دلوقتي إحنا على نفس الموجة..

نهض عماد شاردًا وأشعل لفافة تبغ وراح ينفث دخانها في شرود وهو يجوب الغرفة كالهائمين على وجوههم في الطرقات المظلمة ولم يقطع شروده سوى صوت رشفاتي للقهوة عديمة الوجه سيئة الصنع.

- إيه القهوة المقرفة دي.. إنتو بتجيبوا البن ده من شونة غلال.

- أكرم.

- ها.. عايز إيه..؟؟

- قريت جرايد النهاردة؟

- والله العظيم ما انا اللي سربت اسم علاء البلطيمي ولا..

- لا لا.. أنا بتكلم عن صفحة الوفيات في جرنان (...) المستقل.

ثم تناول جريدة مستقلة أصبحت واسعة الانتشار منذ ثورة يناير وقال متابعًا:

- صفحة الوفيات في الجرنان ده عبارة عن مساحة صغيرة كده جنب الإعلانات في الصفحة قبل الأخيرة.. النص اللي تحت فيه نعي صغير موجه لأسرة البلطيمي.. أيوه موجه زي ما قولتها لأنه نعي سياسي.. موجه من أمين حزب الحرية في السنبلاوين.. وده في حد ذاته شيء غريب ومدهش جدًا.

- وإيه الغريب في كده؟!! البلطيمي رئيس حزب وابنه المتحدث الرسمي ولازم شوية مجاملات كده بين الأحزاب وبعضها.

- المدهش يا سيدي إن حزب الحرية معندوش أمين لجنة في السنبلاوين

من أساسه.. الحزب لسه بيشكل لجان فرعية ومش ناوي أصلا يعمل لجنة في السنبلاوين لأن عنده لجنة عامة في المنصورة.

- يا سلام.!!

- ده كلام رئيس الحزب نفسه لما كلم رئيس المباحث النهاردة الصبح.. وكان مضايق أوي بقه وناقص ياكل شعره من الغيظ عشان عايز يعرف مين اللي بينكت النكتة السخيفة دي وبيحاول يوقع بينه وبين عيلة البلطيمي وهم في حالة حداد.. وبالخصوص بقه إن النعي موجه من السيد..

- ما تقوليش إنه..

التفت نحوي نافثًا دخان سيجارته في وجهي متابعًا:

- الظاهر إن الأستاذ إبراهيم صفوت له نشاط سياسي كمان!!

* * *

حاشية لا بد منها

لا جديد كل صباح إلا عصام

الحقيقة يا أمل إنك تعتبرين نفسك محظوظة.. بل أنتِ أكثر بنات عصرك حظًا لأن الله رزقك بذلك الحاني العطوف الكريم الوسيم الرقيقَ.

صباح جميل آخر والسبب أن هاتفك المحمول أشرق عليك صباحًا بوجه عصام على شاشته مخبرًا إياك أنه يستعد لجعل يومك أفضل وأفضل..

تحلمين كثيرًا بذلك اليوم الذي تصبحين فيه زوجته.. منذ أن رأيتيه أول مرة في عيادته البسيطة في أطراف حدائق المعادي وأنتِ تحلمين.. منذ أن لمست يديه وهو يصافحك يومها وأنت تحلمين.. منذ أن طلب يديك

للزواج ووضع خاتمه الذهبي الأنيق حول بنصرك الأيمن وأنت تحلمين..

أنت الفتاة الفقيرة.. حمراء الشعر.. هزيلة الجسد.. النمشاء كما كان الأستاذ عرفة يلقبك في طفولتك.. المريضة بداء عضال لا يبدو أنك ستشفين منه قريبًا.. عصام قال إن علاجه صعب ويحتاج إلى تكاليف ويمكن أن تعيشين به.. فقط تجنبي الجروح وارتدي حذاءً مريحًا وواسعًا..

عصام لا يتضايق من كثرة النمش على وجهك ولا من تلك البقعة الحمراء في رقبتك.. عصام لا يتضايق من مشيتك المتعرجة نوعًا بل ويسعد بها..

عصام لا يعرف أنك تعملين في ذلك المشتل حتى تساعدي نفسك وتدخرين مالًا لذلك الوحش الكاسر المسمى (جهاز العروس).

أبوك رجل فقير.. موظف في إحدى الشركات الخاصة التي تحلبه كالبقرة مقابل جنيهات تغطي تكاليف البيت وإخوتك وأمك.. أينقصه أن تنغص عليه حياته فتاة رقيعة في عشريناتها تريد الزواج من طبيب محدود الدخل!!

إذن فلتعملي في وظيفتين أو ثلاث فأنت يا فتاتي مثل الآلاف من حاملات الدبلوم أو كما تسميه أمك (الدبلون) تذهبين إلى الثانوية التجارية وتدرسين ثلاث سنوات بجهد ثم تتخرجين لتعملي مندوبة مبيعات أو عاملة سنترال شعبي أو منسقة ورود كما يحب الأستاذ عبدالتواب صاحب المشتل أن يلقبك..

أنتِ موهوبة في هذا يا أمل..

دائمًا ما يلقيها الأستاذ عبد التواب ـ السفير السابق ـ على مسامعك كل مساء في بداية وقت عملك.. هو لا يحب ذلك الفتى الرقيع الذي يعمل في وقت الصباح ويغازل بنات المدارس والمعاهد.. هو يأتي بالمال نعم.. ولكن من قال إن الأستاذ عبد التواب يحتاج إلى المال!!

المشتل يزدحم في أيام المناسبات.. وسكان المعادي لطيفو المعشر يمرون عليك مساء ويتحدثون معك كأنك صديقة أو فرد من العائلة.. أخي مريض يا أمل وأريد باقة ترد له عافيته فور أن يراها.. أختي أنجبت ولدًا (so cute) يا أمل وأريد باقة ورد (lovely) احتفالًا به..

تتراقص أصابعك فوق الورود في تناغم وأنت ترتدين ذلك القفاز المطاطي الذي منحك عصام إياه كي تحمي يديك من نزف الأشواك.. القفاز الذي يمنحك منظر المحترفة النظيفة وهو ذلك المنظر الذي يعشقه سكان المعادي النظيفين كحيهم.

تتخيلين لو كان هذا المشتل في البساتين قرب بيتك.. لو رآك عم شافعي البقال وأنتِ تقطعين بهم الجبن المصنوع من بودرة الحليب أو تتناولين بهم الطرشي البلدي لوصفك بالرقيعة المدللة!! ولطردك من البقالة إلى قارعة الطريق.

الفقر يفقد الناس إحساسهم بكل شيء حتى يظنون أن النظافة والنظام نوعان من الرفاهية والتدليل.. الأستاذ عبد التواب عندما رآك ترتدين القفازات انعقد حاجباه في مرح وخلع نظارته الأنيقة قائلًا:

- هايل يا أمل.. موهوبة وفنانة وبتحافظي على نظافة المكان كمان.. بلغي تحياتي لعصام بقه وقوليله إن ربنا بعتله هدية من السما.. الزوجة النظيفة فعلًا هدية من السما.

يحمرّ وجهك خجلًا فتتذكرين كلمات عصام عن الفتنة والسحر اللذين يراهما في وجهك عندما يحمر خجلًا فتصبحين كتلة من الأحمر الفاتن الساحر.

اليوم يوم هادئ يا أمل.. لا زبائن ولا مناسبات.. الساعة تقارب العاشرة.. إذن فلتقرئي صفحتين أو ثلاث من ذلك الكتاب الغريب ثم

فلترحلي حتى تلحقي بميكروباص البساتين.

كتاب وجدتيه أمام عتبة باب المشتل أمس.. قديم ومهترئ ويحمل اسما غريبًا ظللت ساعتين تحاولين قراءته حتى قرأه لك الأستاذ عبد التواب.

- رُهاب.. اسم غريب أوي.. ومين إبراهيم صفوت ده؟!!

- حضرتك تعرفه يا أستاذ عبد التواب؟

- عمري ما سمعت بيه أبدا.. أنا قريت حوالي مليون كتاب بتلات لغات طول سنين عمري الستين.. وعمري ما سمعت لا عن رُهاب ولا عن إبراهيم صفوت.. تلاقيه كان واحد من كتاب الخمسينات المغمورين ولا حاجة..

الكتاب قديم ومهترئ ولكنه ساحر.. تحبين القصص التي يقشعر لها بدنك وتصيبك بالخوف والرعب.. والاثارة.

كنت تذهبين مع صديقاتك إلى السينما الرخيصة في أطراف المعادي أيام الدبلوم لتشاهدي أفلام الرعب - الرخيصة كذلك - ولا تتوقفين عن الصراخ في استمتاع من أول دقيقة في الفيلم حتى تضاء أنوار القاعة.. عصام قال لك إنك تتلذذين بإخافة نفسك حتى تعوضي نقصًا ما في شخصيتك بتلك اللذة الماسوشية.. وعندما غضبت من كلامه - الذي لا تفهمينه غالبًا - قال لك إنه يعاني من نفس الحالة وإنه سعيد بالتوافق بينك وبينه حتى في الأمراض النفسية!!

مثلا هذه القصة تدعى (الجرح الأخير).

إنها تتحدث عن فتاة فقيرة معلمة مصابة بمرض عضال يجعلها تنزف بلا توقف تذهب مع حبيبها إلى مشتل زهور وعندما يدخلان يطلب منها أن تحضر له وردة من ركن الورد الوحشي كثير الأشواك لأن الورد كثير

الأشواك كثير السحر والعطر أيضًا.. فقط لتذهب إلى ذلك الركن فتجرح
ا رقبتها من نبتة متوحشة علقها هو في سقف المشتل وتنزف بلا توقف
'مت قدميه وهو يتابعها في تلذذ..

فيرتعش جسدك من السعادة والمتعة والرعب.. هذه المركبات المتشابكة التي حدثك عنها عصام يومًا.. تضعين الكتاب أمامك وأنتِ ذاهبة إلى ذلك الطرف القصي من المشتل وتحدثين نفسك متلذذة.. ذلك الطرف الذي يحمل لك كل ذكريات لذيذة تنعش جسدك.. مع كل لذة اضافها لك ذلك الكتاب..

" الله.. قصة مرعبة وحلوة أوي.. أنا جسمي بيترعش من الفرحة والرعب.. إنت معاك حق يا عصام.. طول عمرك معاك حق يا حبيبي".

* * *

- أنا آسف.. مضطر اشيل التنفس الصناعي.. النبض وقف تمامًا.
- والله العظيم لتحصله لو فكرت بس تعمل كده
- أنا عايز جهاز الإفاقة بالصدمات حالًا.. وإلا هقفلكم المستشفى دي فورًا.
- "ظلام.. ظلام خال من الشوائب".

* * *

(٩)

جريدة (.....) المستقلة.. العاشرة صباحًا

عماد يجلس في سيارته الفيات المتهالكة يحرق السيجارة تلو الأخرى كسيارة ميكروباص رامو.. وأنا تقريبًا أستجوب ذلك الفتى الصغير الخائف في مدخل تلك البناية النظيفة التي تقع بها جريدة (.....) المستقلة التي أصبحت من أشهر تلك الجرائد بعد ثورة يناير.

- يا عصمت يا حبيبي ما هو كده مش هينفع.. لازم تفتكر.. الضابط اللي قاعد في العربية هناك ده روحه في مناخيره ومعاه شهادة معاملة أطفال.. وأقلها هيحولك عالنيابة بكرة الصبح وتصبح تلاقي نفسك خدت لقب مزور عن اقتدار.

- أنا لا زورت ولا عملت حاجة لا مؤاخذة.. أنا جاني زبون عايز ينشر نعي في الجرنان.. ولما قولتله اسمك ايه قالي أنا إبراهيم صفوت أمين حزب الحرية في السنبلاوين.. رحت موريله الفورم بتاع النعي

وكل فورمة هتتكلف كام.. راح منقي الفورمة اللي اتنشرت ودفع وخد الإيصال.. يعني لا مؤاخذة لو في حد زور حاجة يبقى هو، أنا ماليش فيه لا مؤاخذة.

الفتى يبدو واثقًا.. إذن لنلعب لعبة الصداقة ونجرب فتح ثغرة في حائط أمنه.. شرطي جيد وشرطي سيء كما يسمونها.

بص يا عصومة.. خد سيجارة الأول.

متشكر ما بغيرش.. لو شربت سجارة من دول هتعود عليها لا مؤاخذة وبيتي هيتخرب.

بلاش السيجارة.. بص أنا حاسس بيك كويس.. أنا في أول ما دخلت المهنة المهيبة بتاعتنا دي كنت بتنشق على أي نعي أو إعلان أو كلمتين في خبر أهبل في طرف صفحة في قلب الجرنان.. وعارف إن رئيس التحرير ما بيرحمش ولازم تجيب شغل عشان ما تلاقيش نفسك راجع القهوة تاني.. بس إنت في مشكلة كبيرة.

مشكلة إيه ولا مؤاخذة.

- مشكلة كبيرة طبعًا.. إنت نشرت نعي من حزب الحرية رايح لحزب الحق.. والحزبين اليومين دول في بينهم مشاكل كبيرة بعد موضوع الدستور..

- وانا اعرف منين ولا مؤاخذة.. الاتنين بدقون والاتنين بتوع قال الله وقال الرسول.. وانا لا مؤاخذة ماليش في السياسة.

ثقب صغير يظهر في الجدار.. ارفع معولك وواصل العمل يا أكرم

- أنا عارف والله عارف.. إإنت راجل شقيان وتعبان ومش فايق للسياسة والرغي الفاضي.. أنا هفهمك بقه.. الحزبين اليومين دول

مولعين في بعض في الجرايد والبرامج.. ده كان مع الدستور وده كمان كان مع الدستور.. قوم بقه بعد الدستور رئيس حزب الحق طلع في مؤتمر، وقال إنهم بالبلدي كده اشتغلوا كل الأحزاب عشان الدستور يعدي زي ما هما عايزين.. وبعدين ساعة الانتخابات لما ياخدوا الأغلبية هيقيفوا القوانين زي ما هما عايزين.. قوم بقه رئيس حزب الحرية طلع في برنامج تاني يقول إن حزب الحق بيزيف الحقائق وإنه إلخ إلخ.. وشوية حلوين من اللي قلبك يحبهم وقامت الخناقة.. يقوم رئيس حزب الحق ابنه يموت وحزب الحرية ينشر نعي موجه من أمين لجنة مش موجودة أساسًا.. يبقى إيه الحال.. لا مؤاخذة كده؟؟

- الحال يبقى كرب لا مؤاخذة.. بس انا مالي هو انا اللي كتبت النعي.. ده واحد...

- ومن هيصدق ساعتها بقه.. الاتنين هيجوا ساعتها ويقعدوا فوق دماغ الأستاذ عبودة رئيس التحرير.. ويهددوه إنهم هيوقفوا كل الإعلانات والدعاية اللي تبعهم وتبع رجال الأعمال اللي تعبهم.. وانت عارفه راجل مناضل وثورجي طول عمره وما بيحبش يزعل حد.. ساعتها بقه هيجيبك فوق المكتب ويخليك تعمل عجين الفلاحة عشان تثبت إن اللي عمل كده حد تاني.. وساعتها هيسألك عن صورة بطاقة ولا باسبور ولا حتى كارنيه نادي.. هترد تقول إيه بقه لا مؤاخذة؟؟؟

زاغ بصر الفتى وتهاوت تلك النظرة الواثقة من عينيه كما تهاوى كتفاه.. بل وابيضت شفتاه حتى ظننت أنه ابتلع كامل ريقه.. لم أكن أعرف أني بارع في لعب دور الشرطي الجيد الذي يتظاهر بذلك.. لو رآني خالد الصاوي

الآن لغير وجهة نظره وأداءه في ذلك المشهد في فيلم الجزيرة وجلس ، افبني!!

- لما طلبت منه صورة البطاقة عشان ادبسها في صورة الإيصال لا مؤاخذة.. قالي إن البطاقة والرخصة اتسرقوا مع عربيته اللي اتسرقت من أسبوع.

- ومين يصدق بقى ساعتها.. هتبقى ساعتها إنت الوغد العميل الممول اللي عايز تفسد العلاقات التاريخية الأصيلة بين الحزبين.. وإنك فلول وعندك أجندة وعدو للمشروع الإسلامي في مصر.. وساعتها رئيس التحرير هيضحي بيك عشان الإعلانات وترجع تنام في بيتكم وتستحمل زن الحاج والحاجة، وتلفّ على كعوب رجليك عشان تلاقي وظيفة كاتب في مكتب محامي أرياف.. ده إلا بقه لو كان عندك معلومات تقولها لحضرة الضابط اللي قاعد في العربية هناك ده.. وساعتها هو هيحميك من رئيس التحرير، وتبقى البطل الهمام اللي ساعد في كشف المؤامرة الخطيرة على المشروع الإسلامي في مصر..

نظر الفتى نحوي وعيناه تائهتان طالبًا المدد.. تلك الرعشة في يده تدل أنه انهار تمامًا.. يا لك من وغد يا أكرم.. كنت تظن الفتى لن ينهار مع هذا الحوار وأنك ستحتاج إلى مجهود إضافي لفتح ثغرة في جداره.. لكنك لمست أكثر نقطة هشة في الجدار فانهار بأكمله.. اللعنة على الفقر والحاجة.. اللعنة على رؤساء التحرير الذين لا يرحمون.!!

- قولت إيه بقه يا عصومة..؟؟

- أنا اعرف شكل الراجل ده كويس.. واقدر اطلعه من وسط مليون بني آدم..

- حلو أوي.. إحنا دلوقتي هنركب العربية مع حضرة الضابط ونطلع على مديرية الأمن.

- مديرية الأمن.. لا مؤاخذة إحنا ما اتفقناش على كده..

- بصورة ودية يا جدع.. إنت شاهد مش متهم.. إنت هتقابل رسام الشرطة وتقعد معاه ربع ساعة ونفطر سوا..

- سبقتك يا باشا الحمد لله.. لا مؤاخذة أنا اوصف وانا هنا ما اروحش مديرية الأمن.

- يا سيدي بلاش فطار.. تشرب الشاي بتاعك في مكتب الباشا معزز مكرم وبعدين تتوكل على الله ولا كأن في حاجة.. وبكده يوم ما حد يفكر يقربلك تكون انت أمنت نفسك والمباحث عارفة كل حاجة.. يلا يا عم عصمت ربنا يهديك.. يلا يا حبيبي.

ثم تأبطت ذراعه واتجهت ناحية سيارة عماد..

فقط ليسقط بجواري كجوال البصل!!

* * *

- إخلاء.. دلوقتي..

- *" لحظة أن خسرت أول جنيهاتك"*

- *سلبي.. لسه مفيش نبض.. إخلاء..*

* * *

غدًا تصبح ملء الفم يا هيثم!!

غدًا تتصارع الصحف وبرامج القنوات الرياضية للحصول على كلمات بسيط منك ويتخاطفك مقدمو البرامج بشكل يومي

انتهى عصر الصغار وبدأ عصر القمة والشهرة لك

تجلس في فراغ شقتك الجديدة التي أحضرك إليها رئيس النادي الشهير وسلمك العقد وهو يمنحك ابتسامة واسعة تخفي كل ما يشعر به من سخط عليك.. أنت يا ابن قرية ميت الحبش أصبحت أشهر مني وأصبحت الجماهير تهتف باسمك لأنك سجلت هدفين في فريقنا.. أنت يا من أكلت البلهارسيا في جسد أبيك وأضاع التيفود بصر أمك أصبحت تتقاضى آلاف الجنيهات شهريًا..!!

إلا أن كل هذا لا يهمك في شيء يا هيثم.

أنت الآن رجل الساعة.. غدًا ستقف أمام الكاميرات تحمل قميص ناديك الجديد وتقبض مقدم تعاقدك وتضرب فلاشات الكاميرات في وجهك لتصبح نجم الموسم الكروي.

تفتح التلفاز المسطح الذي لم تره إلا في التلفاز القديم الصدئ في بيت أبيك بميت الحبش لترى برنامجًا رياضيًا يستضيفون به لاعبًا شهيرًا.. تتخيل نفسك غدًا مكانه وأنت تجلس على نفس المقعد والإضاءة الحارقة تلمع فوق راسك الذي غطيته بأكوام الجل وكريمات الفرد المستوردة.. وداعًا للفازلين إذن!!

الهاتف المحمول يرن بصوت مرتفع بتلك الرنة القبيحة.. غدًا سوف تستبدله بأحد هواتف الآي فون التي تراها في أيدي لاعبي الفرق الكبرى

عندما يهبطون من حافلاتهم، فقط أجب تلك المكالمة قبل أن يذهب المتصل.

- هيثم.. إنت فين يا معتوه انت.. يوم ما اوصل البلد ألاقيك سافرت.

- أنا في مصر يا دكتور.. قاعد في شقة كده في الزمالك حاجزها لي نادي الزمالك عشان إن شاء الله هنمضي العقد بكرة..

- الزمالك يا هيثم.. والله ولعبت معاك يا ولا وهتحلو.. يالا ربنا معاك.. شد حيلك.. أنا ماليش في الكورة ولا بحبها بس اسمع إن الزمالك عنده وعكة اليومين دول يا شحاتة.

- ربنا يكرم يا دكتور.. وبلاش شحاتة ديه أصل الجرايد مش رحماني ومسمياني أبو كف.

- وحياتك أنا ما افهم مين شحاتة أبو كف ده.. أنا لا بحب الكورة ولا بحب سيرتها.. أنا اسمعهم بيقولوا كده في التلفزيون بس.

ابتسمت لسخافة الفكرة.. أنت متعلم ولست لاعبًا بالإعدادية العامة..
سمعت يومًا ذلك المحلل السياسي الشهير وهو يتحدث عن أهمية كرة القدم وأن كل من لديه نقص من ناحية لاعبي الكرة يدعي عدم اهتمامه بها وأن أسعار اللاعبين ارتفعت وأن... إلخ إلخ هذا الهراء.. رغم أن بعض الممثلين والكتاب يحصدون الملايين من مواهبهم.. هل هو حلال لهم وحرام عليك يا بن ميت الحبش؟!

- طب إنت مش ناوي تزورني ولا إيه.. أنا قاعد في الزمالك لحد ما النادي يجيبلي شقة كده في مدينة نصر.

- يا هيثم يا اخويا أنا ممكن أقابلك في ميت الحبش أسهل من إني أجيلك الزمالك.. نورت مصر يا اخويا ومسيرك هتعرف.. شد حيلك كده وسمعني عنك الخير.. سلام يا ابو الكباتن.

عصام طبيب مجتهد.. هو عبقري في مجاله الذي لا أعرف فائدة له.. ما الفائدة أن تكون طبيب أمراض مناطق حارة؟!! في النهاية ستجد أن تخصصك لا يساوي شيئًا في السوق المصري.. ثم تفتتح عيادة صغيرة في أطراف حدائق المعادي وتصبح طبيب باطنة تكتب أدوية للإسهال وعسر المضم!!

تفتح حقيبتك التي خيطتها بالأمس لتصبح لائقة بوضعك الجديد.. تخرج ثيابك البسيطة.. غدًا سوف تمنحها لذلك البواب كهدية له وتشتري ثيابًا من تلك المحلات التي تنير شوارع وسط البلد.. تقولها لنفسك مرارًا وتكرارًا (سوف أكون لائقًا بوضعي الجديد)!!

كتاب في قلب الحقيبة؟؟ من وضع كتابًا لك هنا؟؟ أنت لا تحب القراءة ولا تطيقها.. إذن لمن هذا الكتاب؟؟

لا بد أن عبير شقيقتك قد وضعته بالخطأ في الحقيبة.. ربما يخص عصام فهو قارئ شره لكل الكتب.. الكتاب قديم ومهترئ وكأنما أصبح جاهزًا ليعشش عليه العنكبوت.. اشمئززت للفكرة وارتعشت يدك.. أنت لا تحب العناكب ولا تطيقها.. إذا رأيت أحدهم ينصب بيته في مكان ما تفر تاركًا المكان وأنت موشك على إفراغ بطنك!!

فلتتركه هناك على طاولة السفرة كنوع من ادعاء الثقافة.. لربما جاء برنامج ما ليصور شقتك.. فلتجعل من نفسك مثقفا تقرأ كتبًا قديمة أكل عليها الدهر وشرب.!!

لماذا لا تقوى على النوم؟؟

تجلس فوق تلك الأريكة الواسعة المريحة.. اطفأت الأنوار وشربت اللبن البارد وخفضت التكييف إلى درجة قارسة البرودة.. ولكنك لا تستطيع النوم.. ذلك الكتاب يحتل جزءًا كبيرًا من تفكيرك.. الغلاف

الجلدي القديم.. العنوان المطبوع.. يا ترى ماذا تعني كلمة (الرهاب)؟؟
غدًا سوف تسأل عصام عن معناها.. أنت متعلم ولكنك لست مثقفًا ولكن عصام كذلك..

تقترب من الكتاب رويدًا رويدًا حتى تفتح صفحاته المصقولة ذات الرائحة القديمة.. تقلب الصفحات حتى تقف على تلك الصفحة المطوية على قصة ما.

القصة تدعى (أرملة سوداء)..

فقط تبدأ الآن في القراءة.. إنها قصة سخيفة تتحدث عن رجل يجلس وحيدًا في منزله ليلًا ولا يقوى على النوم.. فقط عندما تبدأ عيناه في الانغلاق يظهر ذلك العنكبوت الضخم من أسفل الأريكة فيقضم فخذه ويهرب.. لينزل أسفل الأريكة من جديد.. الرجل يصيبه الدوار والغضب معًا.. الغضب يفقد التوازن فما بالك بالدوار أيضًا.. وعندما يحركه غضبه لينظر تحت الأريكة محاولًا اصطياد ذلك الكائن المقزز يفاجأ بتلك اللدغة في رقبته.. الدوار يتسع، وذلك العنكبوت الضخم يلعق قوائمه في تلذذ..

لماذا ألقيت بالكتاب كأن ذلك العنكبوت لدغك أنت.. ورحت تنظر إلى تلك القوائم التي راحت تنبت للكتاب؟؟

لماذا تشعر بأن ذلك العنكبوت قد لدغ رقبتك أنت الآن؟؟

لماذا ألقيت برأسك المنهكة من الدوار للخلف؟؟

إنه دوار تعب السفر يا هيثم.. خاصة إذا اختلط بقرص الترامادول الذي ابتلعته صباحًا لتخفي ملامح الإثارة والجنون في وجهك وتطفي قليلًا من البلادة على شعورك وأنت تحتضن أمك الضريرة الباكية..

نم يا عزيزي..

فغدًا يوم طويل..

إذا جاء..!!

* * *

(١٠)

مستشفى الهلال.. الواحدة مساءً

- الحمد لله الواد كان رايح في داهية.. لولا إن دكتورة آمال سعيد كشفت موضوع التسمم بسرعة ولحقته قبل ما يروح فيها.

- دكتورة آمال سعيد مين؟؟.. قصدك آمال سعيد خبيرة السموم؟

- إنت تعرفها؟؟

- ومين في مصر دلوقتي ما يعرفهاش يا عماد.. دي أكتر خبيرة سموم شهرة في المجال.. الست دي بتكتشف نوع الإصابة والسم كمان نوعه إيه من نظرة واحدة على الجثة وبعد الوفاة بكام يوم.. غير إنها ناشطة سياسية معروفة ووكيل مؤسسين حزب الإصلاح الديمقراطي.. أنا مش عارف إنت ظابط شرطة ولا مبيض محارة.

- يا عم خلاص عرفنا.. هو انا مخي دفتر..

ثم أشاح عماد وجلس إلى جواري فاردًا ساقيه الطويلتين في عرض الطريق.. وأشعل لفافة تبغ غير عابئ بلوحة ممنوع التدخين التي ذهبت الأتربة بألوانها الحمراء.

- إحنا في مستشفى يا نور.. اطفي السيجارة دي

- خليك في حالك..

ولكزني بذراعه محطمًا ضلعين على الأقل في قفصي الصدري الواهن، وتابع:

- بتفكر في اللي انا بفكر فيه؟؟

- الحقيقة لولا العناية الإلهية ثم مجهود دكتورة آمال كان الواد ده راح في شربة ميه.. بيتهيأ لي بقه مفيش حجة كده.. مجرد ما يفوق تجيبوا رسام الشرطة، ومن الوصف يديكم شكل الأخ اللي عمل النعي ال fake ده.. وفي ظرف كام ساعة تحط إيدك عليه..

- والله إنت اللي fake يا أكرم.. أبسط القواعد بتقول إن الراجل هيروح متنكر عشان محدش يكون أي معلومة عنه..

نظرت إليه في حدة وكأنه احتمال مستبعد ثم فطنت إلى غبائي الشديد وأنه من الطبيعي أن يكون متنكرًا!!!

- عمومًا الجرنان كان فيه كاميرات مراقبة وانا طلبت تفريغ الشرايط في اليوم اللي قبل يوم نشر النعي.. وكلها كام ساعة واخينا ده يفوق ويدلنا على شكل الأخ ده في الكاميرات..

فقط لتخرج الدكتورة آمال سعيد بقامتها الفارعة الممشوقة التي لم تتأثر بسنوات عمرها الخمسين.. وشعرها الأشقر المعقوص كذيل حصان في أناقة.. فانتصبت قامة عماد قاطعة عليّ مجال الرؤية.

- دكتورة آمال.. ممكن اشوف المجني عليه.

- No way يا سيادة الرائد.. المريض mentally disordered .. هو فاق نظريًا آه.. هنستنى لما حالته تستقر ويعدوا الكام ساعة الجايين وبعدين يبقى بتاعك إن شالله تشرحه حتى..

- يا دكتورة اعذريني الوضع مش مستحمل تأخير.. في ثلاث جرايم قتل حصلوا..

- أربعة أربعة..

كانت هذه مني همسًا حتى إن الدكتورة آمال ألقت علي بسهام نظراتها الثاقبة من خلف نظارتها الطبية الأنيقة حتى كادت تقتلني خجلًا فابتسمت في غباء وعماد يتابع:

- في أربع جرايم قتل لمجموعة من الأبرياء مالهمش أي ذنب غير إنهم اشتروا أو قروا كتاب المختل اللي حاول يقتل الولد الغلبان اللي راقد جوه.. والولد ده هو طرف الخيط الوحيد اللي حيلتنا دلوقتي.

- اعذرني يا سيادة الرائد.. أنا احب إن الشرطة تشوف شغلها hundred perecent.. وأنا كمان اشوف شغلي بنفس النسبة.. بس I'm so sorry .. المريض حالته حرجة ومن واجبي إني أحميه لحد ما حالته تستقر.. وبعدين يعني غريبة أوي.. هي كل جرايم السرقة والنصب والقتل خلصت.. ولا عشان ابن البلطيمي فيها يعني.. إنتو ما تشوفوش شغلكم إلا عشان كده.

- مش عارف ليه حاسس بنبرة سخرية مش عاجباني في كلامك يا دكتورة.

- أنا ما طلبتش منك تعجب بنبرة صوتي ولا بطريقتي يا عماد باشا..

بعد إذنك عشان ورايا شغل.. وكمان مرة بقولهالك.. مفيش تحقيقات من غير ما انا اسمح.. أوكيه.. excuse me.

ثم نصبت قامتها وواصلت طريقها مبتعدة.. تاركة عماد كمن تلقى صفعة على وجهه تتعمق آثارها مع دقات كعبها المتوالية السريعة فوق بلاط المستشفى.

- قليلة الذوق جدًا جدًا

- يعني هي قالت حاجة غلط يا عمدة..

- وانا مال أمي أنا إن في ضباط ما بيشفوش شغلهم عدل.. أنا راجل بحب شغلي..

- إنت بس.. لكن أغلبية الداخلية...

- بص.. ما تخلنيش اكسر رقبتك نصين واخد فيك تأبيدة إنت كمان.. الكلمتين بقه بتوع الشرطة المتخاذلة والداخلية اللي عايزة معرفش إيه تقولهم لأي حد تاني غيري.. إنت عارفني كويس وعارف إني راجل بتاع شغل وعمر ما كان لي في اللوع ده.. ولا هو كل واحد عايز يعملي فيها مناضل يرميها على أي ميري يلاقيه في وشه من غير تمييز..

- خلاص يا عم قلبك ابيض

دوّى صوت هاتفه المحمول يقطع الحديث، فأجاب مستخدمًا لغته الشهيرة في طمس كل الكلمات:

- همم.. إمم.. جميل.. فين بقه.. إمم.. هممم.. طيب أنا في الطريق..

ثم أغلق الخط، ونظر إليّ قاطعًا خيط فضولي:

- عبد التواب البشري.. ملحق سابق في سفارة مصر في زيمبابوي..

- أهلًا وسهلًا.. مين بقه؟

- ما هو لو تبطل تقاطعني زي المرّة ال.. استغفر الله العظيم.. ده صاحب المشتل اللي كانت بتشتغل فيه أمل

- أمل مين؟

- البتّ اللي ماتت مقتولة في المشتل يا أكرم.. ده انت طلّعت ميتين أهلي يا أخي.. أنا ماشي وبينا تليفون.. سلام..

كنت أنظر إليه بنصف عين من أثر أربعة أيام من الاستيقاظ المتواصل حتى أني لم أقوَ على رفع صوتي لأردّ عليه!! لكنه وكأنما تذكر شيئًا مال نحوي وضاقت عيناه حتى رسمتا أخدودين على قسمات وجهه.. وقال ضاغطًا على كل حروف كلماته:

- أنا عايز اعرف كل حاجة عن نوع السمّ اللي كان هيموّت الواد صفوت بتاع الإعلانات ده.

- عصمت قصدك.

- صفوت.. عصمت.. جن ازرق؛ هو انا هناسبه.. وعايز اعرف إيه موضوع السم اللي لقوه في دم الواد لعيب الكورة.. وإيه علاقة العنكبوت اللي اسمه العذراء السوداء بالموضوع؟!!

- الأرملة السوداء...

- أرملة.. عذراء؛ مش مهم.. المهم انا عايز اعرف الكلام ده في ظرف ساعتين.. تتشقلب بقه للدكتورة آمال دي.. تعملها أراجوز.. تعملها ميّت.. أنا مستنيك كمان ساعتين في المديرية ومعاك الخلاصة.. فهمت؟!

الهاتف يرن من جديد.. وعماد يهمهم ويتهته من جديد:

ممم.. فين... هممم... إوعي تحرك حاجة من مكانها.. هبعتلك التهامي ومصطفى حالًا.. وانا وراهم.

ثم أغلق الخط وتخطاني كأني جزء من ممرّ المستشفى المزدحم فحثثت الأطى وراءه محاولًا اللحاق به قبل أن تصيبني جلطة.

- عماد.. انت يا عم اصبر هموت..

مفيش وقت.. في جثة تانية في بنها.. عيل سواق لوري مشنوق في ثلاجة فاكهة.

- وانت رايح بنفسك ليه.. مديرية الأمن هناك مافيهاش مباحث!!

- لا فيها يا خفيف.. بس الوزير بنفسه مدّي تعليمات إن محدش يقرب لأي حاجة تخص القضية دي غيرنا في مباحث العاصمة..

- وهما عرفوا منين إن الجثة تبع القضية؟!

- لأنهم لقوا نفس الكتاب في جيب الجثة يا أكرم.. ممكن تعمل اللي طلبته منك بس.. الله يرحم والديك.. ده انت أسئلتك تفوّر الدم!!

* * *

- *هي دي كحّة برضه ولا دي خيالاتي المريضة؟؟*

- *في نبض هنا في نبض.. بسرعة عايز عشرة ملليجرام من ال....*

- *أكرم.. please give me a dam answer*

* * *

(١١)

مكتب الدكتورة آمال سعيد.. جامعة (....).. الرابعة مساء

- أشكرك على حسن استقبالك يا دكتورة.. والله إنتي ما تعرفيش أنا معجب بشغل حضرتك إزاي على المستويين العلمي والإنساني..

- أكرم.. ده أقل واجب مني ناحية صحفي talent وhardworker زيّك.. أنا قريت التحقيق الصحفي بتاع قضية الدكتور طارق حسين.. ولما عرفت إنت حليت الموضوع إزاي قولت: wow , we have an excellent detective here ..

ثم أطلقتْ ضحكة عالية مجلجلة عندما لاحظت خجلي.. وراحت تتسلى بترتيب بعض الأوراق على مكتبها الشبيه بطاولات تشريح دكتور علام وقد تناثرت أجزاء الجثث الورقية فوق كل شبر منه مع أقداح القهوة.

- ودلوقتي أنا معاك.. ده بقه حوار صحفي ولا جلسة استجواب ودّية عشان صاحبك ظابط المباحث!!

- زي ما حضرتك تحبي أنا معاكي.. بس قوليلي بقه حضرتك عرفتي منين إنه صاحبي؟!

- أكرم.. Don't play games with me .. مش انت لوحدك اللي ذكي وبتعرف تربط..

- بس حضرتِك كنتي شديدة عليه شويتين.

- غصب عني يا أكرم.. هو آه شكله ولد مكافح ومحترم وبتاع شغل، وكان honest جدًا، وهو بيقوللي إن الوقت ضيق والوضع صعب.. بس انا عندي مشكلة كبيرة أوي مع الداخلية يا أكرم.. من ساعة الثورة واللي شفته بعيني في الميدان وانا عندي مشكلة كبيرة أوي مع الداخلية عمومًا.. seriously it's not personal .. بس انا كده مع أي ضابط.. ممكن اكون مصابة بمرض ولا اكون policophobic ..

ثم أطلقت ضحكة مجلجلة أخرى كادت تدمع عيناها معها.. لا أدري حقيقة ما الطريف في وسم نفسها بمرض الخوف من ضباط الشرطة!! إن ـ فشتها عايمة ـ كما يقول التعبير العامي.. يبدو أننا سنقضي الجلسة في خمس جمل وعشرين ضحكة مجلجلة!!

- Sorry يا أكرم والله ما قصدي.. بس الفكرة خلتني هموت من الضحك.. أنا قعدت أسبوع معتصمة في الميدان بحاول أقنع الشباب معانا في الائتلاف إنهم ما يبقوش Islamophobics وإن ده مرض سيئ وإننا لازم نتفتح على عقول وثقافات بعض.. وكنت بعمل rounds كتيرة على الخيم والقعدات بتاعت الشباب عشان كده.. وإن كل حاجة فيها الكويس والوحش ولازم ما نجمعش كل البيض في نفس ال basket .. وأنا شخصيًا مش عارفة اعمل كده مع نفسي.

ثم واصلت الضحك مع نهاية أحرف جملتها حتى كاد اللعاب أن يتطاير من فمها الصغير المطلي بأحمر الشفاة.. ورفعت يديها نحو وجهي معتذرة.. ثم هدأ ضحكها قليلًا، وخلعت نظارتها الطبية ملقية إياها في إهمال وسط أكوام الأوراق.

- خلاص خلاص.. أنا معاك آهو.. إتفضل اسأل عشان اجاوبك..

- عندي سؤالين يا دكتور الحقيقة..

- إديني أصعبهم الأول..

- إيه هو السمّ اللي كان هيموت الأخ عصمت؟؟

- Atropin..

انعقد حاجباي حتى كادا أن يلتحما فتابعت:

- ال Atropin مش سم في الأساس.. إحنا بنستخدمه كتير جدًّا في عمليات العين عشان بيوسع قزحية العين شوية زيادة وفي حالات ال Cardiac Arrest

- أفندم..

- توقف القلب.. سوري أنا هحاول أقلل المصطلحات شوية في الكلام.. غصب عني يا أكرم..

- ولا يهمك يا دكتور أنا بتعامل..

- Any way .. الأتروبين مفيد.. آه.. بس ده ما يمنعش إنه سامّ جدًّا لما بيتاخد Oral قصدي من الفم يعني وبالذات لو كانت الجرعة نباتية.. سمعت عن نبات اسمه Atropa Belladonna؟؟

- لا الحقيقة ما حصليش الشرف..

- النبات ده شبه الباذنجان لو حبينا نقرب الصورة.. أنا ماليش في علم النبات ولا تصنيفاته بس أنا اعرف كويس أوي أي نبات بيطلع منه سم.. ال toxic plant ده مجالي الأساسي.. المهم إن الولد ده خد جرعة من النبتة دي عن طريق الفم.. جرعة صغيرة أوي ما تقتلش.. اللي اداله الجرعة دي حدّ professional جدًّا.. ولما بدأ الأتروبين يتسرب لدمه بدأت الأعراض من غير هو حتى ما يحس بيها.. حدقة العين توسع جدًّا.. عرق كتير أوي.. جفاف الحلق.. زوغان العين and so on..

وأنا الذي ظننت أن طريقتي القاسية في الاستجواب كانت السبب في انصباب عرق الفتى واضطراب نظراته!!

- معلش يا دكتور اعذريني أنا عارف إنه سر المهنة.. بس حضرتك عرفتي ده ازاي من غير تحليل الدم.. سوري الولد كان مغمى عليه..

- شوف يا سيدي.. الولد شفايفه كانت شبه الإسكيمو في بياضها.. وبعدين جسمه كان بيترعش أوي وكأنه متكهرب.. بالذات رجله الشمال.. شكّيت الأول في السيانيد بس لقيت مفيش vomiting ولا diarrhoea.. إسهال يعني.. بس عينيه كانت مفتوحة حتى وهو غائب عن الوعي.. ولما لقيت البقع الحمرا تحت إيده قولت ده hundred percent Atropin .. عشان كده طلبت منهم يدوله جرعة Pilocarpine عشان يخفف شوية من تأثير الأتروبين في الدم.. وبعدين عملنا غسيل معدة سريع وادينا له شوية Potassium Permanganate عشان نقضي على أي بقايا للسم في معدته.. دي طريقتي الشخصية اللي ناس كتير ما بتحبهاش.. but whatever أنا مقتنعة إن كده صح.. هو بس في ملاحظة قد كده..

- ملاحظة إيه حضرتك؟!

- الشخص اللي اداله الجرعة ذكي أوي ومحترف أوي.. وكان متأكد إنك هتبقى هناك في الوقت ده يا أكرم.. من الآخر اللي حصل ده just a muscles show.. عايز يعرّفك إنه قادر على حاجات كتير أوي فا عملك قرصة ودن يعني..

- واشمعنى أنا شخصيًا.؟؟

- ده سؤال تسأله لنفسك مش لي.. سؤالك التاني بقه عشان عندي محاضرة بعد نص ساعة.

- الواقع إني لا أستبعد نظريتها أبدًا.. هي لا تعرف شيئًا عن الموضوع كما يبدو لي.. لكنها ذكية ويبدو أننا نتعامل مع شخص يعرف أين يضع قدميه.. بينما نحن كالفئران العمياء نتحسس طريقنا فلا نجده!! وإننا نحتاج إلى بعض العقول المتحركة التي تلعب خارج الصندوق مثل عقل هذه السيدة التي رشحت لجائزة بنيامين فرانكلين حينما كانت تعيش في أمريكا.!!

- إيه هو اللاتروتوكسين Latrotoxin؟؟

- القهوة دي بردت وما بقتش تتشرب خالص.. إنت بتتكلم عن Black Widow بقه.. تشرب قهوة معايا

ثم نهضت من خلف مكتبها في رشاقة نحو ماكينة قهوة أمريكية صغيرة، وراحت تتحدث وهي تحاول ضبطها لصنع قدحين من القهوة:

- بص ال Latrotoxin ما بيقتلش زي الإتروبين إلا بقه لو كانت الجرعة عالية أوي.. النسبة بتاعت التسمم من السم ده بين ١٠٠ ل ١٤٥ ميلليجرام لكل كيلوجرام.. يعني تقريبًا خمس عناكب مع

بعض ممكن يسمموا بني آدم وزنه ستين كيلو.. عشرة جرام سم تقريبًا لو حسبناها...

- معلش اعذريني حضرتك.. أنا ما جبتش سيرة بني آدم أصلا.. ده مجرد سؤال عن...

- أكرم.. إوعى تعمل كده معايا.. Don't jumb around the Bushes.. أنا ليا معارف أنا كمان وبعرف برضه اللي بيدور جوه المطبخ.. غير إني كنت بتعشى مع مدام علام امبارح.. ودكتور علام شخصيًّا is a very best friend..

ثم منحتني ابتسامة صفراء لا بأس بها، وناولتني كوب القهوة الأسود متابعة:

- الدكتور علام حكى كل حاجة كصديق وكزميل عايز يستشير حدّ في الموضوع، وده مش عيب ما دام I can keep secrets .. ومن غير ما افحص الجثة يا أكرم أنا متأكدة.. لدغتين عنكبوت مش ممكن يقتلوا الولد ده.. أما بالنسبة للعضة اللي في رقبته.. فا هي مش عضة عنكبوت نهائي يا أكرم..

ثم تناولت كتابًا فخمًا مليئًا بالصور من قلب كومة الأوراق المبعثرة.. وفتحته على صفحة ما ثم ناولته لي..

في تلك الصفحة يوجد صورة ملونة جميلة لجثة بشرية ازرقت شفتاها وأطرافها مع صور جانبية لأشياء تشبه الثقوب..

- الجثة دي ما بتفكرش بحاجة؟!!

- شفت شبهها في مشرحة زينهم من سنتين.. كان رجل أعمال اتقتل بالسم وغطّسوا جثته في المية عشان تبان إنها حادثة غرق عادية..

- ما شفتش حاجة شبه كده من كام يوم يا أكرم.. حدّ مصاب بتسمم وفي أعراض زي دي عليه ماهاش علاقة بتسمم اللاتروتوكسين..

- حضرتي تقصدي إن..

- Bingo

يبدو أن حلقة مفقودة مني هنا.. الكلمات اللاتينية تحت الصور عسيرة الفهم وتمتلئ بمصطلحات عميقة لا أفهم منها حرفًا.. عن أي تسمم تتحدثين يا سيدتي؟!!

- الموضوع واضح لينا جدًا يا أكرم.. السم اللي كان في جسم الولد كان خليط من بثوال الصوديوم وكلوريد بوتاسيوم وحاجة كمان اسمها بانكورونيوم بروميد.. اللي معروفة جدًّا في أمريكا بـ Lethal Injection..

- ثواني ثواني.. لو انا مش غلطان حضرتك تقصدي...

- أيوه.. اقصد حقنة الموت يا أكرم..

* * *

(١٢)

مديرية الأمن.. الثامنة مساءً

- جميل.. يعني احنا كده متفقين إننا قدام قاتل متسلسل.. بيقتل حسب ترتيب عشوائي لقصص في كتاب قديم لمؤلف مغمور.. من غير دافع ولا هدف ولا تسلسل محدد.. أنا محظوظ والله.. أكتر ضابط مباحث محظوظ في المجرة.. لا مجرة إيه.. ده انا أشهر ضابط مباحث في الكون..

- ما تتهدّ يا جدع إنت وتسمع كلام الراجل الكبّارة اللي قاعد.. قول يا دكتور سليمان الله يكرمك..

الدكتور علام يجلس في طرف المكتب بجوار الطاولة فاردًا ساقيه المصابتين بالخشونة، وعيناه الرماديتان تحدقان إلى دكتور سليمان في ثبات من خلف دخان سيجارته المنعقد في هواء الغرفة الكئيب..

تنحنح الدكتور سليمان عدة مرات كعادته بعد إدمانه للمعسل..

- في الحقيقة يا رائد عماد إحنا قدام قاتل في منتهى الذكاء ومنتهى الاحترافية.. إحنا بقالنا ساعتين في العيادة عندي بنتناقش أنا والدكتور علام وكيمو عشان...

- كيمو ده اللي هو أكرم؟!!

- ما علينا.. إحنا درسنا النسخة اللي مع أكرم كويس أوي.. وزي ما توقعت الراجل كاتب مجموعة من القصص القصيرة السطحية جدًا اللي مرتبطة بالرُّهاب أو الفوبيا..

- ودي حاجة كلنا عارفينها..

- صبرك عليا يا عماد يا ابني.. أنا لسه ما خلصتش كلامي..

ثم أطلق زفرة ملل محدقًا فيّ بحدة؛ وكأنه يقول لي لائمًا: "أنت من طلب مني الحديث مع هذا الضابط الملول قليل الذوق".

- هي عادته ولا هيشتريها يعني يا دكتور!!

- خليك في حالك يا.. يا كيمو.. كمل يا دكتور بعد إذنك.. مساعد الوزير ناقص يبعتلي اتنين عساكر يقبضوا عليا عشان كده تلاقيني مستعجل بس.

- بص يا عماد.. إحنا بعد مناقشات مطولة.. اتأكدنا إن الكتاب ده كوموفلاج.. تمويه يعني.

- وضح أكتر الله يباركلك.

- طعم يا عماد باشا.. أرنب سبق يا سيدي.

كانت هذه من الدكتور علام، فأشار له الدكتور سليمان بإبهامه مؤيدًا ثم تابع:

أي حد درس علم نفس جريمة واحتك بموضوع ال Serial Killers أو القتلة المتسلسلين عارف دايمًا إنهم بيحبوا الشهرة.. بيحبوا يتسلوا بشعور الأقوى والأذكى والمتحكم في زمام المبادرة.. وده راجع لشوية مركبات نقص على شوية رغي تحليل نفسي مش هيفيدوك كتير..

- المفيد يا دكتور سليمان..

- المفيد يا حضرة الرائد إن الأخ ده أيًا كان هدفه ما بيقتلش بتسلسل قصص الكتاب وبس.. ده بيقتبس القصة وينفذها حرفيًا، بس مع شوية إضافات.. القاتل ده بينفذ جرايمه بطريقة علاجية قديمة من الفوبيا كانت مستخدمة في أواخر السبيعينات في الاتحاد السوفيتي لعلاج المرض النفسي.. الطريقة اسمها...

- واجه مخاوفك قبل أن تقتلك..

- برافو عليك يا عماد..

- أنا ضابط شرطة آه بس اعجبك يعني.. اتفرجت مرة على فيلم على ناشونال جيوجرافيك عند أخينا ده كان بيتكلم عن الموضوع المكعبل ده.. بس اللي انا فهمته دلوقتي إن الأخ ده بيي..

حانت مني ابتسامة ساخرة وأنا أقاطع عماد متابعًا:

- بالضبط يا حضرة المعاون.. القاتل ده أخذ على عاتقه تطهير كل هؤلاء المرضى من مخاوفهم بمواجهتهم ليها.. حتى ولو كانوا غير مرضى أصلًا.. من الآخر يا عماد وبمختصر المفيد.. القاتل بيطبق

كل وسائل العلاج بالمواجهة على القتلى الغلابة.. بمنتهى الحماس ومنتهى التفاني.

- بس معنى كده إننا..

ثم دار ببصره في وجوهنا نحن الثلاثة ثم توقف على وجه دكتور سليمان متابعًا:

- معنى كده يا دكتور إننا لازم نتحرك بسرعة قبل ما يفوت الأوان..

- هو كلامك مضبوط في حالة واحدة بس يا ابني.. إن الأوان يكون لسه ما فاتش أساسًا!!

* * *

- *هيدروفوبيا.. هيدروفوبيا..*

- *أكرم.. سامعني.. علي صوتك شوية.. بتقول إيه.؟؟*

* * *

(١٣)

مديرية الأمن.. الثالثة صباحًا

فرخ كبير من الورق المقوىٰ يلتصق بحائط من حوائط غرفة مكتب عماد، وقد كتب عليه بخط صغير منظم أشهر عشرين نوعًا من الفوبيا.. بينما أصر الدكتور سليمان علىٰ وضع أسماء القصص التي تتعلق بهذه الأنواع أمامها إلا أن عماد طلب منه أن يستريح قليلًا لأن فريقًا كاملًا من مخبري المباحث يقومون بذلك الآن.. ثم يمكنهم إضافة ما استخلصوه..

عماد قد فكّ أزرار أكمام قميصه ولفافة التبغ المشتعلة تتدلىٰ من طرف فمه، وهو عاقد ساعديه كجنرال يحاول أن يشرح لمجموعة من الضباط حديثي العهد بالقتال.. تصوره لأرض المعركة القادمة..

- دلوقتي يا دكتور سليمان أنا علىٰ حسب ما فهمت منك.. الأخ ده استخدم خمسة أنواع من طرق القتل اللي عايز تسميها (قتل تطهيري) ولو إني مش فاهم معناها إيه.. وإن الخمس أنواع دول

لسه في غيرهم حوالي خمستاشر أو عشرين نوع مشهور من الفوبيا.. ده غير بقه الأنواع نادرة الإصابة غير الأنواع اللي لسه العلم بيكتشفها.. كده أنا واصلاني المعلومة صح؟؟ دكتور سليمان.. يا دكتور سليمان..

صوت غطيط الدكتور سليمان يصمّ الآذان.. الرجل العجوز فقد القدرة على التحكم بجهازه العصبي، وذهب إلى سبات عميق يأكل فيه أرزًا مع الملائكة..

- إيه ده.. هو نام!!

- لا ما تشغلش بالك.. دي السيمفونية العاشرة لبيتهوفن..

زفر عماد في ملل ونظر إلى ساعة الحائط التي تشير للثالثة والنصف..

- أكرم..

- خير..

- روح نام إنت كمان يا أكرم.. قعدتنا دي مالهاش لازمة دلوقتي.. مفيش تحركات جديدة للقاتل واحنا مش عارفين نوصل لأي نتيجة.. مالوش لازمة التطبيق والفرهدة عالفاضي.

- ما تشغلش دماغك بيا.. أنا معاد نومي الطبيعي فات من ساعتين.. بقولك.. ما تيجي نتمشى شوية تحت واعزمك على حجرين معسل عالقهوة.. يلا يا جدع يلا..

ثم ربتّ على كتفه العريضة وناولته سترته التي أوشكت على أن تبلى من كل أطرافها.. وتركنا المكتب مترجلين على سلالم مديرية الأمن التي بلت أطرافها كسترة عماد.

- إنت يا جدع انت مش ناوي تجيبلك حتتين حلوين بدل الجواكت

اللي هتدوب وتبقى شبه هدوم شحاتين السيدة

- إنت شايفني فاضي حتى أشوف امي العيانة.. ده انا بيات في المديرية بقالي خمس تيام.. وبعدين توضيب الشقة بالع اللي ورايا واللي قدامي.. وحضرتك ظابط شرطة بقه.. يعني لازم شقتك تبقى على أحدث طراز وأحسن توضيب.. غلابة ما يعرفوش اللي فيها.

- ما تدعيش الفقر عليا ياد..

- جتك خيبة أمال لو ما كنتش بمدّ إيدي في جيبك كل شهر.. بالمناسبة معكش ميت جنيه سلف لحدّ ما نقبض البدل..

- على رأي المثل.. شحات يشحت من شحات يطلع في.... إيده حسنة

- آه يا وسخ..

إلى الشارع الخاوي أمام مديرية الأمن ترجلت أقدامنا ورحنا نتسكع ناالأيام الخوالي.

- بتضحك على إيه يا اسطى؟

- افتكرت أيام الطبري.. لما كنت بتقول للأستاذ فهمي الله يرحمه إنك نازل تذاكر عندي.. وانا اقول للعقيد محمود حمدي الله يرحمه إني رايح اذاكر عندك.. واحنا في الاخر ماشيين بنتسرمح في مصر الجديدة الساعة ثلاثة بعد نص الليل.. فاكر...

- إلا فاكر.. طب دي قهوة السوايسة ياما شافت عشرات دومنة كنت بهزأ اللي خلفوك فيها.. فاكر الظابط اللي وقّفنا عند الاتحادية الساعة ثلاثة صباحًا وكان عايز البطايق.. ولما عرف إن مفيش بطايق كان هيشحنّا عالبوكس زي المسجلين..

- ودي حاجة تتنسي.. طب ده لولا إني قولتله أنا عماد محمود حمدي

ابن العقيد محمود حمدي رئيس مباحث مصر الجديدة كان سح...
عالقسم.. وكان ابويا مات بالذبحة الصدرية من قهرته على ابـ...
الفاشل..

- أنا فاكر لما شاف كارنيهات المدرسة صدقنا مش عارف إزاي
وانت اللي كنت لسه بتشتمني قبلها بربع ساعة عشان خدتك من
إيدك عند المشرف الاجتماعي عشان نعملها.. كنت بتقول عليها
ساعتها عيل سيس تربية ستات.. آدينا كنا هنبقى سيس رسمي
يومها إنت قررت إنك لو حتى جبت ٩٠٪ في الثانوية برضه هتدخل
كلية الشرطة عشان محدش يوقفك في الشارع تاني.

- ويومها قررت إنك هتبقى ظابط عشان نفضل سوا.. ونعمل بقه
ثنائي ولا ريجز ومورتاه في زمانهم (أبطال فيلم السلاح القاتل).

ثم تبعها بضحكة ساخرة وضربة فوق ظهري كادت تلقيني على
الرصيف قتيلًا..

- يومها قولتلك إنك معصعص واضبش بنظارة وما تنفعش ضابط
إيقاع حتى.

- ويومها أنا قولتلك إنك غبي ومخك على قدك وما تنفعش أمين
شرطة في إشارة مرور.

أطلق ضحكة صافية مجلجلة.. وأخرج لفافة تبغ محاولًا مع قداحته
الخربة.. إلا أنها استجابت رغم ذلك.

- أيامها كنا فاكرين العيشة سهلة.. والواحد ممكن يبقى اللي هو عايزه.

- وطبعا كالعادة ابن الظابط طلع ظابط عشان ابوه قام بالواجب.

- وعم فهمي الله يرحمه مارضيش يفتّح مخه ويشخلل عشان تعدي.

ثم اتجهنا نحو أحد المقاهي التي تضع مقاعدها في الشارع.. فجلست وصفقت بيدي لذلك النادل النحيل الذي ما إن رأى عماد حتى انتصبت قامته وركض مسرعًا.

عماد باشا.. نورت المكان يا معالي الباشا.. أؤمرني

إزيك يا عزوز.. عامل إيه وإزاي عيالك.. هما بقوا كام دلوقتي؟

ثلاثة والولية بنت الكلاب حامل تاني.. قال إيه لازم تجيبلي واد يشيل اسمي.. قال يعني هيشيل اسم ابو تريكة ولا مؤاخذة.. ما علينا يا كبير مش عايز ادوشك معانا.. أوامر البهوات.

اتنين شاي تقيل.. وشيشتين قصّ.. بس قصّ يا عزوز مش معجون الصراصير اللي بتحطوه فوق الشيش.. ما تفضحوناش قدام الأجانب.

- عينيا يا عماد باشا.

- السكر برّة يا عزوز الله يكرمك.

- عينيا يا أجنبي باشا.. وعندك معسلتين قصّ واتنين على بوسطة سكر برّة وصاية للباشا الكبير.

وانطلق الفتى يتعثر ويتخبط من أثر الرهبة، بينما وضع عماد ساقًا فوق ساق وقال:

- قوللي بقه يا كيمو.. إيه رأيك في كلام الدكتور سليمان؟

- إحنا بنضيع وقت في حوار الفوبيا وربطها بالجثث الصراحة.. المفروض نركز مع عصمت وكاميرات المراقبة بتاعت الجرنان اللي اتنشر فيه النعي.. بالمناسبة الواد ده فاق صحيح؟

- والرسام ادانا صورة مبدئية عملنا بيها إخبارية ومذكرة ضبط وإحضار كمان.. وتقريبًا كاميرات المراقبة حددت لنا جسم الراجل وطوله مع الصورة ممكن يجوا بفايدة.

- وتقرير الدكتور علام.. خلص؟؟

أتى الفتى بالشيشة ووضعها أمامنا، فراح عماد يسحب أنفاسًا عميقة تليق بمعلم في سوق الخضار ثم قال متابعًا:

- جثة الواد لعيب الكورة فعلًا محقونة بالحقنة اللي قالتلك عليها دكتورة أجاثا كريستي.. العنكبوت دخله حالة دوار وانعدام وزن خلت القاتل يعرف يحقنه في رقبته بسهولة.. جثة البنت بتاعت المشتل كانت مصفية دمها كله تقريبًا، والجرح بتاع الكعب هو السبب في النزف.. بس الغريب بقه إن دكتور أحمد بيقول إن البنت صفت دمها في مدة أقل من المفروض يحصل معاها.. وإنه احتاج كام جرح كمان عشان الهبوط يحصل وتموت.. غير بقه شوية الجوابات والصور بتاعتها هي وخطيبها الدكتور ده.. اللي أكد ساعة استجوابه إنهم اتسرقوا منه من أسبوع..

- ما يمكن حب قديم وبينتقم مثلًا؟؟

- لا بعيدة شوية.. البت عمرها ما كان ليها أي علاقة بأي راجل طول عمرها غير ابوها واخوها.. بيضا خالص ولسه خام.. الواد خطيبها دكتور فاتح عيادة باطنة في حدائق المعادي عشان يلمّ فلوس رسالة الدكتوراة بتاعته ويعرف يتجوز.. حطلي معلقتين سكر الله يباركلك. تسلم إيدك.. علاء ابن البلطيمي بقه كان مأجر شقة في العمارة دي إيجار جديد من شهر.. والبواب قال إنه كان بيجي لوحده ويمشي لوحده. ولما فتحنا الشقة لقينا كنبة وترابيزة وكرسيين.. وميزان حساس..

ده إتجار كمان مش تعاطي..

هو الاتنين الحقيقة.. تحليل الدم لقى آثار مخدر.. وترامادول.. وباركينول.. غير بقه إن دكتور علام شك في حاجة فا عمل تحليل مش عارف اسمه كرامتوجرافيا ولا معرفش إيه.. فا لقى في دمه محلول اسمه بنثوال الصوديوم.. عندك فكرة عنه؟؟

..سحبت نفسًا عميقًا من الشيشة الحارّة حتى توهج الفحم وأصدر ا.. وأنا نليق بناره المستعرة.

الصراحة كل اللي اعرفه عنه من القصص بتاعت نبيل فاروق إن اسم الشهرة بتاعه محلول الحقيقة.. وزي ما يكون بيخلي المحقون بيه زي المتنوم مغناطيسي كده..

فكرتك عنه قريبة من الحقيقة شوية.. هو زي ما قال الدكتور هولمز علام بيعطل وظائف المخ المتقدمة زي القدرة على الابتكار والإبداع.. غير ضعف التحكم في العضلات والأعصاب.. يعني بيخليك عروسة معدومة الرأي تقريبًا.

،فثت دخان الشيشة في تلذذ وجرعت جرعتين صغيرتين من كوب الشاي، وقلت وأنا أعدل من وضع نظارتي:

والمحامي وسواق اللوري؟؟

المحامي بقه شارب كمية حمض كاربوليك.. الفنيك يعني زي ما فهمني دكتور علام.. المشكلة بقه إن ساندوتشات الفول اللي لقوها جنبه...

مسمومة.؟؟!

- سيانيد.. سم فتاك وسريع العمل.. خلّص عليه بعد قطمتين تقريبًا..

وبعدين راح ذابح القطة وراميها في حجر القتيل ومشي.. الفنيك كان
تمويه عشان عمرنا ما كنا هنفكر نحلل الفول لولا دكتور علام.. سواق
اللوري بقه هو الحادثة الوحيدة الطبيعية.. واحد خنقه من وراه وعامله
في ثلاجة فاكهة على درجة سالب خمسة مئوية لدرجة إننا لما لقينا الجثة
كانت زي ما تكون مقتولة من ساعة، وطبعًا في حوالي ستة طن موز
راحوا في الحادثة.. في شوية ترامادول في معدته ودمه بس مفيش أي
سموم.. يا عزوز..

ثم ألقى بمبسم الشيشة رافعًا عقيرته لينادي على ذلك النادل الذي راح
يقسم الأيمان كلها إن الحساب وصل وإن المعلم سيقطع رقبته إذا أخذ مليمًا
فزجره عماد غاضبًا:

- يا باشا والله ما ينفع كده...

- ولا يا عزوز.. من إمتى ياد بشرب عندكو شُكك.. ما تخلنيش
احلف ما اعتبها تاني..

- لا يا باشا الطيب احسن..

أنقده الجنيهات التي طلبها مع بقشيش محترم يعادل سعر ما شربناه.. ثم
اصطحبني مترجّلين في طريق العودة إلى المديرية حينما قلت:

- يعني لو افترضنا إن نظرية دكتور سليمان صح.. يبقى احنا عندنا
خمس حالات تطهير من خمس أنواع فوبيا.. أكروفوبيا (الأماكن
المرتفعة) أنثوفوبيا (الزهور) أركانوفوبيا (العناكب) إيلوروفوبيا
(القطط) فريجوفوبيا (التجمد).. تفتكر ده معناه إيه؟؟

- معناه إنك لازم تنام شوية عشان مخك لفّ.. وعشان انا كمان لازم
اكون بكرة الصبح في ديوان الوزارة عشان عندي تحقيق.

خير عملت إيه.؟؟ يكونش أهل البلطيمي اشتكوك؟

لا أهل البلطيمي حطوا الجزم في بقهم لما عرفوا موضوع الحشيش، وطلبوا مننا سرعة البحث بس ولو احتجنا منهم أي مساعدة فهما حاضرين بكل... إلخ إلخ.. والهرتلة دي.. ده ضابط زميلنا عامل مصيبة في قسم الدرب الاحمر وهما طالبني للتحقيق عشان كان شغال معايا هنا في المباحث قبل ما يروح هناك.. الحقيقة هو يستاهل كل خير.. مش كان دفعتي وصاحبي.. لكن استغفر الله العظيم لو اتحرق صاحي يبقى حلال فيه..

زفرت في ملل وأنا أصعد معه درجات السلم الرخامي الذي خرب نصفه وتحول إلى فخ للسقوط من عل.. ودلفنا إلى المكتب لنجد الدكتور سليمان نائمًا كالفيلة!!

- دكتور سليمان.. يا دكتور سليمان..

- يا أم جمعة قوتلك النهاردة أجازتي وانا.. مين أكرم؟؟.. هو انا فين؟؟!!

- في مديرية الأمن يا دكتور.

- وكم الساعة لو سمحت؟؟

- الساعة فاضلها دقيقتين وتبقى خمسة صباحًا

نهض متمطعًا وفاردًا ذراعيه:

- جميل بقه كده الواحد يصحى يصلي الفجر ويفوق شوية.. صباح الخير عليكم جميعًا.. مفيش قهوة قريبة هنا الواحد يشرب قهوته الصباحية وياخد حجرين معسل بسرعة؟

- أول مجلس الأمة في قهوة كويسة.

- طيب تمام.. تيجي معايا يا أكرم.. يلا تعالى وبعدين اوصّلك الدقي في طريقي.

ثم تقدم نحو باب المكتب، ونظر نحو الورق المقوى.. وكأنما تجمد في مكانه.. توقف وظهره لنا.. ثم التفت ناحية الفرخ المقوى وانعقد حاجباه وهو يتقدم نحو الحائط حتى كاد يلتصق به..

- أكرم.. ناولني قلم إذا سمحت.

ناولته القلم فراح يضع دوائر حمراء حول بعض الحروف في أسماء مصطلحات الفوبيا التي انتشرت على الورق المقوى وأنا وعماد نراقبه ثم قال متابعًا:

- أظن يا سيادة الرائد إني عرفت الهدف القادم لأخينا سفاح الفوبيا.

اتسعت عينانا في دهشة وانعقد حاجبا عماد كديدنه كلما لفت انتباهه شيء وهو يشير لنا بطرف القلم كي نقترب من لوح الورق وقال:

- فاكرين لما اتكلمنا على حب القاتل المتسلسل للظهور والميديا وإنه كمان بيحب يسيب دليل وراه للشرطة عشان يعرف يمرح معاها شوية.. لو طبقنا الكلام ده هنا.. هنلاقي الدوائر الكبيرة اللي رسمناها حوالين الخمسة أنواع التي اكتشفناها في جرايم القتل الخمسة، أما الدوائر الصغيرة اللي عملتها بالقلم فبتبين حسب تصوري الحروف الخمسة اللي بتوضح نوع الفوبيا اللي هيستخدمه القاتل.

رحت أنظر إلى الدوائر الصغيرة في الكلمات الخمس ثم قلت متابعًا:

- اعذرني يا عم احمد.. إنت بس مش متعود على نومة الكنبة فا مش

مركز معانا في نقطة هنا.. فرضًا إن نظريتك صح مية في المية.. إنت معلم بخمس دواير على خمس أنواع اللي هما:

- Arachnophobia – Hemophobia – Acrophobia Frigophobia – Ailurophobia

- المرتفعات ـ الدم ـ العناكب ـ القطط ـ التجمد

- تمام.. هو ده قصدي.

- ده بقه مش صح يا دكتور.. بفرض صحة النظرية.. فا الكلمة الصح هي Anthophobia أو الخوف من الزهور.. بمعنى أصح وبوضوح كده.. الحروف الخمسة بتوع حضرتك مش مظبوطين.

- اعذرني يا أكرم ولكن إنت اللي دماغك مشوشة من قلة النوم.. البنت حسب تقرير الطبيب الشرعي بدأت النزف من كعبها الأول وبعدين بقية الجروح.. وجرح الكعب كان بآلة حادة.. والقصة اللي في الكتاب المخبول اسمها (الجرح الأخير) بتتكلم عن خوف البنت من مظهر دمها وده خلاها ما تاخدش بالها إنها بتغوص في الجروح تاني ومفيش أي زهور في الموضوع.. وضحت الصورة؟!

ثم تناول قلمَ خطٍّ عريضٍ كان ملقىً فوق مكتب عماد وكتب خمسة حروف إنجليزية متجاورة قائلًا:

- الحرف الأول من الكلمة الأولى A الحرف الثاني من الكلمة الثانية E الحرف الثالث من الكلمة الثالثة A الحرف الرابع من الكلمة الرابعة U الحرف الخامس من الكلمة الخامسة هو O.. مما يعني أن عندنا كلمة AEAUO.. عندك فكرة الحروف دي ممكن تجمع كلمة واضحة؟؟

- يا دكتور سليمان الموضوع مش...

- سيبه يكمل يا أكرم وما تقاطعوش بعد إذنك..

- يا سلام.. ده إيه الخيال الجامح اللي نزلك عليك فجأة انت كمان...

حول بصره ناحيتي وأشار بيده أن أصمت قبل أن أقطع رقبك فابتلعت لساني ودكتور سليمان يتابع:

- هي فعلًا كلمة عديمة المعنى.. بس لو حطيت قصاد كل حرف الرقم اللي بيقابله في الأبجدية الإنجليزية.. نعمل جدول صغير كده عشان اوضحلك الصورة.. كده يبقى عندنا أرقام ١ و٥ و١ و٢١ و١٥

- وبعدين.. برضه مفيش أي معنى لـل...

- ما تصبر على رزقك يا بني آدم.. جمع بقه الحروف دي يبقى عندك رقم.. واحد زائد خمسة يبقوا ستة وواحد سبعة وخمستاشر يبقوا...

- المجموع ٤٣ يا دكتور.. ٤٣.

عماد انطلق كالفهد إلى مكتبه ورفع نسخة الكتاب النائمة فوقه في خمول وتحدٍّ وفتح الصفحة رقم ٤٣ ثم قرأ بصوت عال:

- أربع حيطان!!

ثم نظر نحوي ونحو دكتور سليمان متسائلًا، وتابع القراءة:

- إن زقزقة الطيور فوق أعشاش أشجارها الملتوية هي شيء يبعث البهجة في صدور بني البشر، عدا أمجد، إن هذه الزقزقة تبعث في قلبه قشعريرة تصيبه بالخوف حتى تطمئن نفسه وتركن إلى نومه متلحّفا بالسماء الزرقاء الصافية، في هذا الوقت فقط يبدأ صباح أمجد المتكرر المستديم، ولهذا فقط يدفع إيجار تلك الغرفة الباهظة في أطراف المحروسة حتى ينام بجوار باب الغرفة الخشبي الضعيف

ملتحفًا سماء زرقاء تشعره بالطمأنينة والسكينة... أنا مش فاهم حاجة من الهبل ده!!

- عدّي كام سطر وكمل يا عماد..

- طب خد انت بقه عشان انا ما فياش دماغ للهبل ده..

ألقى عماد بالكتاب إليّ كأنه يتخلص منه فعدلت نظارتي وأكملت:

- *ولكن ذلك اليوم لا بد أن يأتي، يوم ترتكب إرادته الحرة الطليقة كغزلان البراري ذلك الخطأ، ويظل أمجد ساهرا خارج بيته إلى منتصف الليل فلا يجد من يقلّه إلى منزله في أطراف القاهرة الهادئة، إذن فلا بد أن تنام في ذلك الفندق يا أمجد، لكن هل يمتلك الفندق سطحًا مفتوحًا إلى عنان السماء كغرفتك الصغيرة؟؟ إنهم يطردونك الآن من "متاتيا" لأن التعلميات تقول إننا سنغلق في العاشرة مساءً، إن الأحكام العرفية يا أمجد أفندي لا تعرف خوفك المستديم من حوائط الغرف الضيقة، والبوليس لا يرحم الشاردين والمتسكعين من الأفندية أمثالك، بيد أنك بعد كل هذا لو استطعت عبور الحواجز والمتاريس سوف تفاجأ بعربات جيش الإنكليز تغلق الطريق، كما أن الطريق إلى جنوب القاهرة...*

- السطر الأخير يا أكرم إذا سمحت الله يكرمك..

نظرت نحو عماد الذي راح يسجل ملاحظات في ورقة ما وكأنه ليس معنا، بينما الدكتور سليمان يحدق إليّ في نفاد صبر.. فتابعت:

- *أنت نائم الآن هنا يا أمجد في غرفتك الضيقة المنزوية في نهاية الممّر الخالي من النزلاء، تحاول اجترار الذكرى الجميلة كي تبعث طمأنينة في نفس المستعرة شوقًا إلى نوم ما بعده تعب، إن النوافذ مغلقة وقد صُبغ زجاجُها بالأزرق الداكن حتى لا ترى الطائرات ذلك الضوء*

الضعيف الذي يخرج من لمبة الجاز، والحائط يضيق عليك وا...
تصرخ، تصرخ مثل امرأة سلبوها ولدها الوحيد في ليلة شتاء زلة،
لكنك مشلول الحركة لا تستطيع الركض، أنفاسك تضيق والحائط
يضيق، حتى صراخك لا يخرج من حلقك يا أمجد، والغرفة تض...
كسَمِّ الخِيَاط..

رفعتُ عيناي مذهولًا من فوق الكتاب بينما عماد يجري مكالمة هاتفية غاضبة:

- صباحية مباركة يا اخويا.. دي خامس مرة يا علي.. يعني إيه الساعة ستة صباحًا هو احنا شغالين في بنك.. اصحى معايا وفوق كده.. هتكلم رئيس مباحث حلوان وتصحيه من النوم.. وتاخد بعضك وتطلعله على القسم.. عايز كردونات حوالين كل المباني هناك.. أي حد بطاقته مش على حلوان يتفتش ويتعرف أصله وفصله.. والله لو خرجت صف الضباط والمخبرين كلهم حتى دي مش قصتي.. أيوه الموضوع ليه علاقة بسفاح الكتاب.. شكرًا يا سيادة النقيب.. مستني منك مكالمة كل ربع ساعة تديني فيها تقرير مفصل عن كل حاجة..

ثم أغلق الخط، ونظر نحونا فتلقفه الدكتور سليمان بابتسامة عريضة قائلًا:

- ولو إني عارف ليه.. بس اشمعنى حلوان يا عماد؟

- على حسب كلامكم عن الكتاب والدراسة اللي عملتها المصنفات حوالين الكتاب.. الكتاب ده اتألف بين سنة ٤٠ وسنة خمسين تقريبًا.. هما بقه بيفهموا في مواضيع نوع الورق وطريقة الطباعة والتغليف والفنيات اللي انا ما بفهمش فيها دي.. القصة دي مكتوبة

أيام الحرب العالمية الثانية ووقت إعلان الأحكام العرفية من حكومة الوفد.. الأخ إبراهيم صفوت قال إن بطل القصة ساكن فوق سطح عمارة في مكان ما جنوب القاهرة.. المعادي أو حلوان.. في الوقت ده كانت المعادي لعلية القوم بس، وهو كلمه في القصة وقال (أمجد أفندي) يعني واحد من أفراد الطبقة الوسطى زي ما بتسموها.. وأيامها حلوان كانت فاضية صحيح بس كان فيها عمارات أكيد.. ولو الأخ اللي بينفذ جرايم القتل ملتزم بالكتاب حرفيًّا زي ما حضرتك قولت.. يبقى مفيش غير حلوان هنا..

رفعت كفي مصفقًا وأنا أربت على كتفي عماد وابتسامة الانتصار على وجهه حادّ الملامح كطفل ألقى على مسامع معلمه قصيدة صماء بدون أخطاء.. بينما رفع دكتور سليمان إبهامه إليه متابعًا:

- كده الواحد عمل اللي عليه وساهم في إنه ينورلك السكة يا حضرة الرائد.. اروح بقه اشرب القهوة والحجرين وانام وانا مطمن قبل ما اروح العيادة.. جاي معايا يا أكرم..

- لا يا دكتور أنا هتمشى شوية واركب تاكسي.. ويمكن اعدّي عالجرنان الأول.. اتوكل انت على الله..

- طيب زي ما تحب.. ابقوا طمنوني..

ثم رفع يده مودعًا وترك المكتب بينما نظرت نحو عماد قائلًا:

- أنا كمان محتاج انام شوية كفاية أوي كده.. لو في أي حاجة كلمني..

- إنت ما روحتش مع الراجل ليه طيب.. غاوي شعبطة وقرف التاكسيات..

- يا عمي ده راجل ساكن في عين شمس وانا قاعد في شقة خالي في

الدقي.. يبقى اشحططه ليه.. وبعدين الدكتور سليمان عداد سر...
بيوقف عند الاربعين والواحد مش ناقص شلل.

- شوف ازاي.. مش انت اللي بتشتكي إني ما اعرفش سرعة تحت الثمانين وإني هموتك مرة ناقص عمر.. دلوقتي مش عاجباك السرعات الهادية!!

- هو انا يا جدع انت يا اموت مقلوب يا اموت مشلول.. نهايته سلام انا بقه ومستني تليفونك.. خلينا ننشرلنا كلمتين من وراكم نستنفع بيهم..

- سلام يا مستنفع..

ثم ربت على كتفي حتى كاد يحطمه وقادني إلى باب غرفته بينما هاتفه المحمول يرنّ.

رحت أجرّ قدماي متثاقلًا والنوم يرغم أجفاني على السقوط نائمًا فوق درجات سلم مديرية الأمن لكني تماسكت حتى لا أبيت ليلتي في تخشيبة المديرية أو أتهم بالاعتداء على منشآت الدولة!!

فقط عندما بلغت باب المديرية وجدت محمولي يئزّ في إصرار برقم عماد:

- إيه يا عمدة.. ما تقوليش نسيت حاجة عندك.

- أكرم.. مش هتصدق اللي حصل فعلًا..

- إيه.. ما تقوليش إنكم قبضتوا على القاتل..

- إنت بتتريق.. ده اللي حصل فعلًا.. قبضنا عليه وهو بيرتكب جريمته السادسة يا أكرم.. ده الدكتور سليمان طلع عبقري واحنا مش عارفين!!

* * *

هيدروفوبيا.. هيدروفوبيا..

بتقول إيه يا أكرم إحنا مش سامعينك يا ابني

لو سمحتم شوية هدوء.. الـ Imipraminc بيتسحب من دمه خلاص..

هو قال هيدروفوبيا مش كده.؟!!

* * *

حاشية لا بد منها:

إنك تعرف جيدًا يا برعي أنهم لا يقدرونك..

انت مجرد سائق لوري عبرت النصف الأول من أعوامك الأربعين، انت بلا تعليم وبلا مال وبلا ولد..

تمتص قرص الترامادول في تلذذ ثم تتبعه برشفتين من شاي أسود كئيب دايامك ولياليك الطويلة على مقهى السبع في أطراف بشتيل.. أين تقع بشتيل يا برعي؟؟ إنها مثلها مثلك.. متربة.. مجهولة.. مهمّشة!!

ترفع عيناك المجهدتين نحو أضواء أعمدة النور فوق الطريق الدائري.. فلا تجد سوى الخواء والظلام.. أحدهم حطم أغطية الكشافات وسرق اللمبات الصفراء العملاقة وقرر أن الطريق كذلك أفضل.

تبصق على الأرضية المتربة.. تبصق بصقة تخرج كل ما في صدرك من آثار المعسل وآثار البانجو وآثار الشاي المغشوش وآثار وجبة المسقعة التي أصابتك بحموضة قاتلة..

- مساء الفل يا اسطى برعي

- آهو مسا وخلاص..

- يا اسطى ردّ السلام زي الناس

- إخفى من وش دين أمي يا حلمي بدل ما اجيب كرشك واخلص..

حلمي.. الشاب الثلاثيني الهزيل.. النحيل.. الشبيه بعود قصب، تكاتف عليه خمسة أطفال فحولوه إلى فضلات..

- مالك يا صاحبي؟؟ شايل عبد القادر وزاعق ليه؟!!

- طهقت بقه وما بقتش قادر يا حلمي.. قبل الزفتة الثورة كنا عايشين وبندفع إتاوات الأُمَنا في الكماين، والحمولة تعدي ونعرف نعمل بدل النقلة خمسة.. وحتى لو وقفنا في كمين، والظابط كان ابن ستين في سبعين كنا بنعرف نسلّك أمورنا برضه.. دلوقتي بقه بقينا بندفع للحكومة.. وملوك الطريق.. وبيضرب علينا نار.. وبيطلع دين أبونا في عشرة لتر سولار.. وبعدين تلاقي الـ.. من دول طالعلك في التليفزيون يقولك اصبروا واستحملوا.. وهو بدين أمه بيفطر كافيار وبيتعشى لحمة.. يا أخي ملعون ميتين أم دي شغلانة بنت...

سبّة بذيئة تخرج فيها كل معلوماتك العظيمة عن السباب التي اكتسبتها من تربيتك يتيمًا في شوارع بولاق الدكرور.. سبّة تبعتها ببصقة أخرى، وكأنك تبصق روحك من جسدك.

- إن شاء الله بكرة تفرج يا شقيق وتروق.. قول يا رب.

- يا رب يا خدنا يا عم ونرتاح من الهم والقرف ده بقه..

حلمي يقترب منك مضيقًا عينيه.. وانت تعرف حلمي عندما يقترب منك مضيقًا عينيه.

- مش عايز حاجة ترفع معنوياتك شوية.

- حلمي.. ابعد عن دين أمي بقه أنا مش ناقصك.. نص القرص

لسه ما اشتغلش والصداع فاشخ دماغي.. وبعدين هاخد حاجة ترفع معنوياتي ليه.. عشان اخش في حيطة.. ما انت عارف اني مش متجوز يا اسطى وماليش في العوج.

نسحب نفسًا عميقًا من الشيشة وحلمي لا يكف عن ممارسة دوره الذبابة.. ذبابة تبحث في عقلك عن مضرب ذباب لتطيح بها من سجل الكائنات الحية.

- وبعدين انا عالحديدة يا روح امك.. وانت ابن كلب تبيع امك عشان الفلوس.

- لا دي هدية.. خد أمسك.. مد إيدك ما ترفسش النعمة.

يمد يده لك بكتاب له غلاف جلدي قديم.. أنت لم تكمل تعليمك بعد الابتدائية لكنك تقرأ الجريدة مثل القرود كما تقول المرحومة أمك.. كتاب!! وهل يحلي الكتاب أيامك؟؟

- تصدق أنا هطلع ميتينك دلوقتي وافلق دماغك نصين عشان اخلص منك ومن الصداع في يوم واحد.

- اصبر بس يا عم الاسطوات.. ما تخليش المظاهر تخدعك.. افتح كده وسمّي..

تفتح الكتاب لتجد أسطوانة كمبيوتر تلمع في الضوء الخفيف الذي تصدره مصابيح قهوة السبع الصفراء.

- إيه ده ياد يا حلمي.

- مش انت طالع النهاردة على تلاجة السبع ولا مؤاخذة..

- وانت إيش عرّفك يا روح امك.. بتراقبني؟!

- أنا مش تلموذ يا اسطى برعي، ده انا حلمي إبليس.. إنت والسبع متخانقين بقالكم ست اشهر وما بتكلموش بعض.. تقوم تيجي النهاردة بالذات تقعد عالقهوة اللي هو بيقعد عليها!!

- والسيديهاية دي لا مؤاخذة حوارها إيه..

- حوارها إن السبع مركب دي في دي في الكابينة يا اسطى.. ومعاه شاشة عشرة بوصة وانا اللي جايبله حماصة بتاع السايبر يركبه لا مؤاخذة.. يعني بقت عندك تسلية مجاني والبركة في حبيبك حلومة.

تقلب الأسطوانة في يدك ثم تقرب رأسك من رأس حلمي وتهمس:

- هي السيديهاية دي..

- سكس طبعًا.. هو انا هديك سيدهاية ل (عبوهاب) مثلًا عشان تسليك.

- وطي صوتك ياد هتفضحنا.

- وإيه الفضيحة في كده يا اسطى لا مؤاخذة؟!

تتراجع في مقعدك متحسرًا على حالك، وتتذكر كم يبلغ عمرك يا اسطى برعي.. أنت في الثالثة والأربعين يا برعي.. رجل بالغ في الثالثة والأربعين يتلهف على فيلم بورنو رخيص يقدمه له حلمي إبليس؛ كما يشتهر في بشتيل.

تتناول الأسطوانة داخل الكتاب في صمت

- بس انا قشفور يا حلمي..

- الحساب يوم الحساب يا اسطى برعي.. اعتبرها تذكار من ملك المزاج.. سوفونير.

..تبسم من تفاهة حلمي الذي يصمم على حشر كلمات إنجليزية ليشعر الناس أنه مثقف.. ثم تنهض عازمًا على إنهاء هذه الجلسة رافعًا عقيرتك ... النادل الذي يرتدي ملابس حقيرة مهترئة تشبه ذلك الكتاب الذي ..مله.

- يا عربي.. الحساب عند المعلم السبع..

ترفع يدك مودعًا حلمي، وتقفز في رشاقة لا تعترف بسنوات عمرك الأربعين نحو كابينة القيادة.. تغرس السيجارة في طرف فمك وأنت تحرك نحو الطريق الدائري.. بالأمس استدعاك السبع مع أحد الأصدقاء المشتركين - كما يحب أن يقول - لأن هناك نقلة فاكهة تذهب إلى البحيرة من الطريق الزراعي.. وهو يريدك أنت على هذه النقلة لأنك رجل ودمك حامي وشرس، وتعرف كيف تتعامل مع هؤلاء الرعاع على الطريق.. أنت محتاج إلى المال برغم أنك لا تطيق أن ترى وجه السبع خمس دقائق.. لكن ما باليد حيلة.

تنهب الطريق نحو أول الطريق الزراعي الذي أظلم أغلبه.. ترفع نور الشاحنة الأمامي، وتغلق النوافذ لتتقي لفحات الهواء البارد حتى تستطيع المواصلة.. حتى وإن كنا في أواخر مايو يا برعي لكن من قال إن الطريق يعترف بهذه القواعد.. أنت ترتدي (السويتر) كما تسميه من منتصف أكتوبر!!

ترفع الأسطوانة في يدك اليمنى وتودعها في مشغل الأقراص فقط لتظهر لك رسالة عربية رديئة على شاشة الجهاز الزرقاء.

لا يمكن تشغيل ملف

اللعنة عليك يا حلمي.. تسبه بسبة بذيئة وأنت تتخيل نفسك تحطم عنقه بقدر ما كنت تمني نفسك برؤية كل ما حرمك فقرك وضيق حالك منه..

فلتقد على صوت عبد الوهاب الرخيم ينبعث من ذلك الراديو المشوش.. عندما يأتي المساء.. لا يحدث شيء من وجهة نظرك عندما يأتي المساء سوى أن يومًا آخر انتهى في هذه المأساة التي تسمى حياتك.

وكأن الحال ينقصه أن يحدث لك ذلك.. السيارة الضخمة تميل إلى طرفها الأيمن من الخلف.. أنت متمرس وتعرف ذلك يا برعي.. إن الإطار الأيمن الخلفي قد أوشك على الخواء.. إنه يسرب الهواء فلا بد أن تتوقف الآن.

على امتداد بصرك ترى ذلك المقهى.. ليس مقهى يا برعي إنه مقعدين وطاولة ولمبة بيضاء باهتة تعلو لوحة كتبت بخط يدوي قبيح.

توقف سيارتك بجانب الطريق.. ومحمولك لا يعرف ما تعنيه كلمة "شبكة" في هذا القفر.. إذن سوف تبيت في السيارة حتى يظهر لك أحد يقدر أن يساعد في تغيير هذا الإطار الكبير..

تأخذ كوب الشاي في يدك، وتخرج ذلك المقعد المطوي من جانبك وتفرده بجوار السيارة.. علبة السجائر الاحتياطية في جيب السترة الجلدية التي اهترأت ياقتها.. تمسك في يدك ذلك الكتاب المهترئ المصفر.. ماذا يعني ذلك العنوان؟؟ الرُّهاب.. أنت تعرف من قراءتك للقرآن ـ أحيانًا ـ أن تلك الضمة تعني النطق وكأن هناك واو.. ماذا يعني هذا الاسم؟؟

تقلب الصفحات في ملل وكوب الشاي الأسود يحرق أطراف أعصابك من سخونته.. ثم تجد هذه الكلمة في نصف صفحة مطوية من أعلاها.

تحت الصفر

تضحك في صوت تردد الغيطان صداه.. أنت تحت الصفر فعلًا.. وهذه الثلاجة التي تقودها قد تصل إلى تحت الصفر إذا كانت تحمل لحومًا.. أو إلى ما يقرب الصفر إذا كانت تحمل فاكهة أو خضارًا.

تقرأ الكلمات التي تبدو لك عميقة ومهمة.. تقرأ عن سائق اللوري الذي يقود سيارة تجر ثلاجة فاكهة.. تقرأ كيف أن السيارة تعطلت في وسط طريق مقفر ليس به بشر.. تقرأ كيف أن السائق جلس على طرف الطريق يدخن منتظرًا من يمرّ به أو يساعده.. تقرأ كيف أن ذلك السائق رأى عابر الطريق فطلب منه النجدة.. غير عارف أن عابر السبيل هو قاتل سوف يفتك به طمعًا في السيارة وحمولتها.. سوف يقتله خنقًا بحبل بلاستيكي!!

تقرأ ولا يوقفك شيء سوى ذلك الحبل البلاستيكي الذي يلتف حول رقبتك الآن..!!

* * *

- أكرم.. ارفع صوتك شوية.. إنت بتقول هيدروفوبيا؟!!
- الضغط نزل تاني يا دكتور..
- يا تسيبوه يفوق ويرجع لوعيه.. لا تقتلوه وتخلصوه من الهم ده.
- " الظلام.. الحقيقة".

* * *

(١٤)

مديرية الأمن... الثانية عشرة ظهرًا..

الدخان ينعقد في هواء الغرفة مثلما ينعقد حاجبي.. وعماد يشرح لي كيف قبضوا على ذلك الرجل..

- بمعنى؟؟

- بمعنى إن الدكتور سليمان كان صحّ وصحّ جدًّا كمان.. القاتل كان خلاص هيرتكب الجريمة السادسة في أوضة فوق سطوح عمارة في حدائق المعادي.

- حدائق المعادي..!! مش انت كنت باعتهم حلوان يا ابني!!

- ربنا كان رايد إنه يقع في إيدينا.. المجني عليه صرخ لما القاتل حاول يطعنه بسكينة في صدره.. الجار اللي تحت سمع الصرخة وقلق لأنه عارف جاره كويس.. مدرس ابتدائي أرمل وعايش لوحده.. الجار

النشيط مسك شومة كانت عنده في البيت وطلع جري عالسطح فا خبط بالصدفة في القاتل.. وربنا ألهمه حسن التصرف راح خابطه بالشومة على دماغه موقعه على البسطة، وراح جاري مكلم النجدة فورًا.

- ولقيته الكتاب إياه..

- على باب الشقة فوق الدواسة..

أفرغت التبغ المحترق من الغليون الخشبي في المنفضة.. وأخرجت من جيب سترتي عدد التسليك والحشو.. ورحت أنظفه في هدوء كأي ميكانيكي يعكف على وضع لمساته السحرية في محرك سيارة فيات متهالكة.

- مالك ساكت ليه..

- أنا.؟؟

- أمال امي.. سيب الهباب اللي في إيدك ده وردّ عليّا

- قوللي الأول.. المجني عليه مات؟؟

- الحمد لله؛ لا.. العناية الإلهية أنقذته، والطعنة جت في دراعه بس..

كنت قد فرغت من حشو الغليون فأشعلته ورحت أحدق في فرخ الورق المقوى الراقد في مثواه على الحائط الحكومي المتسخ.

- مش عارف بس..

- بس إيه.. ما تقوللي إيه اللي بيجرى جوه صندوق البلي اللي فوق رقبتك.

- مش مقتنع يا عماد.. إزاي قاتل محترف.. ذكي جدًا وقعد يلاعب فينا، ويرميلنا كتاب وموت يبان كأنه انتحار، وعمل معضلة الأرقام

والحروف والكلام ده.. ويقع بالسهولة دي.

- دكتور سليمان قال مرة إن القاتل المتسلسل بيرمي للبوليس أدلة في السكة عشان يوصلّه، وده زي ما قال ناتج عن حب الشهرة وكلام الدكاترة النفسيين ده.

- أيًا كان يا عماد.. بس مش بالسهولة دي.. ده حتى طعنة السكينة ما ركزش فيها عشان يكمل جريمته صح..

- إرادة ربنا يا أخي إن الراجل يعيش..

- عماد.. ورحمة ابوك بطل شغل ربات البيوت ده.. كله بإرادة ربنا، بس ربنا ادانا عقل نفكر بيه ونستخدمه عشان نوصل لنتايج صح.. أنا المشكلة عندي بقه إنه مش قادر يبلع الموضوع بالكامل.. ده لولا إني عارف عماد وعارفك شغال عالقضية دي إزاي كنت قولت إنكم هتخلصوها على مختل نفسيًا..

- تصدق لولا بقى انا عارف عماد كويس ده انا كنت رميتك من الشباك..

ثم ابتسمت في إنهاك.. إنها الساعة الثانية عشرة وأنا لا أزال مستيقظًا ولم تدخل معدتي المسكينة قطعة خبز حتى.!!

- ومين بقه صاحب الحظ السعيد؟؟

- مدرس في مدرسة ابتدائية.. الصراحة حظه كان سعيد فعلًا لأن الطعنة...

- عماد.. أنا قصدي الجاني مش المجني عليه يا حضرة المعاون..

- رجل عنده ٤٤ سنة.. اسمه جمال إبراهيم أحمد علي محمد.. زي ما مكتوب في رقمه القومي..

- جمال إبراهيم.. راجعتو اسم ابوه على الكمبيوتر؟

- خدتها من على طرف لساني.. مفيش صفوت في إسم أجداده اللي ظاهر عندنا لحد الرباعي بتاع جده.. شغال سكرتير في مصنع أدوية من اللي اتخصخصوا واتباعوا لشركة أجنبية.. الوزن والطول والهيئة العامة قريبة جدًّا من الصورة اللي رسمناها والراجل اللي ظهر في كاميرات الجرنان.. الغريب إنه ساكت تمامًا وثابت جدًّا من ساعة ما قبضنا عليه.. لا بيقول إنه بريء ولا بيقول إنه مظلوم ولا الكلام المعتاد اللي زي كده.. حتى أول ما بدأنا التحقيق.. وأول ما عَلِي قَرَص عليه بموضوع قتل خمسة والشروع في اتهام السادس.. ابتسم في هدوء وطلب كوباية قهوة وعلبة سجاير!!

- لو هو فعلًا لازم يبقى كده حسب نظريات دكتور سليمان اللي إنت بقيت مقتنع بيها أوي.

- يعني بس مش لدرجة قهوة وسجاير وثبات انفعالي عظيم زي كده.. في سخرية غريبة في طريقته خلتني أقلق شوية.. بس أنا سايبه لعلي لحدّ ما يفرهده وبعدين اخش انا أخلص عليه..

ابتسمت أنا الآخر متصورًا نفسي في مكانه، والشرطة توجه لي اتهامًا بقتل خمسة أشخاص مع سبق الإصرار والشروع في قتل السادس.. كنت سأطلب تبغًا لغليوني الحبيب، وكوبًا من سمّ الفئران المخلوط بحمض الكبريتيك المركز بنسبة تسعين بالمائة.

تصورت ذلك أيضًا.. الواقع أنني سوف أسخر من الشرطة لأنهم لم يقبضوا علي إلا بعد أن نفذت خمس جرائم، وكنت على وشك إنهاء السادسة لولا القدر ومشيئة الله.. الأمر ليس متعلقًا بمهارتهم.. ولو أن عماد كان قريبًا؛ في الحقيقة!!

- تحبّ أستشير الدكتور سليمان؟

- الرجالة كلموه من خمس دقائق عشان نطلب رأيه رسمي.. كلمناه في البيت وردّ علينا الواد الطباخ، وقالنا إنه في الجامعة؛ كلموه فجاه وراح على هناك.. سبناله خبر يتصل بينا.. بعد ما الأخ الطباخ قالنا إن الدكتور معندوش موبايل وما بيحبش يستخدمه!!

- الدكتور سليمان دقة قديمة شويتين.. هو ما بيحبش حد يخش جوه خصوصياته ولا حد يطلعله في كل حتة بيسأله إنت فين..

استند عماد إلى مكتبه في هدوء وعقد ذراعيه أمام صدره القوي متابعًا:

- الغريب برضه إن التحريات المبدئية النهاردة الصبح قالت كلام مختلف تمامًا عن سلوك أي قاتل قابلته في حياتي.. الراجل في حاله.. من البيت للشغل ومن الشغل للبيت.. مالوش أي نشاطات غريبة.. ما بينزلش من البيت كتير.. مواطن كادح زي ما الكتاب بيقول.

- دي بسيطة بقه.. لو هو اللي عمل كده يبقى ده طبيعي جدًّا.. عندك إيدي جين.. مدير فندق طريق أمريكي (موتيل) وإنسان في منتهى الذوق والأدب.. وتيد بندي كان عامل توصيل طلبات، وكان الجميع يشهد لهم بالطيبة والاستقامة!!

- سيبك من شغل إم بي سي تو.. حتى لو لقينا البصمات بتاعته.. إيه بقه موضوع الكتاب والفوبيا والكلام ده؟

- ستايل يا عم.. إنت ما بتفهمش في استايلات الإخوة السفاحين ولا إيه.. ما شفتش فيلم "سفاح النساء" بتاع فؤاد المهندس.. عروسة خشب مكان ارتكاب الجريمة.. ماركة مسجلة زي حرف الآر اللي جوه الدايرة قدام العلامات التجارية.

ابتسم في سخرية ثم فك استناده إلى مكتبه وربّت على كتفي متابعًا:

طيب يا ستايل.. يلّا روح انت واضربلك فطار تمام ونام حبتين.. آه الوزير مصمم على عدم النشر لحدّ النهاردة بالليل لما يبقى في اعتراف كامل.. بس أول ما يبقى في نشر هتبقى انت أول واحد ياخد تفاصيل وصور كمان..

ده كرم حاتمي والله.. إنت هتستعبط يلا.. فهّم وزيرك إني بكرة بالليل هدخّل التحقيق المطبعة، ولو من غير صور.. وبراحته بقه.

انت مش هتهمد إلا لما اطخّك رصاصتين في بقك عشان لسانك ينفجر مع راسك.

ورفع طبنجته الميري في وجهي محذرًا وعلى وجهه ابتسامة حاول جعلها غاضبة.. فاتسعت ابتسامتي وأنا أحاول إخراج الكلمات من حلقي.. وزيرك ليس له الحق أن يمنعني من النشر وأنا كنت سأنشر الآن قبل غدًا، وعلى موقع الصحيفة الإلكتروني قبل التفاصيل غدًا.. وكل تلك الجمل التي لم تخرج من فمي حتى وجدت نفسي استقر على ذلك المقعد في سيارة تاكسي بيضاء!!

أتناول هاتفي المحمول

- ولاء..

- إنت فين يا عم انت.. ده رئيس التحرير...

- قالب الجرنان عليّا.. غيره يا ولاء.. مفيش جمل جديدة.. ابتكروا شوية.

- ماشي يا مبتكر.. إنت فين بقى.

- احجزيلي نص الصفحة التالتة ورتبيلي مساحتين لصور كده وانا هبعتلك مقالة بالميل كمان نص ساعة هتتحط في المساحة دي. وعايز عنوان صفحة أولى في أي حتة بس يبقى مثير شوية.. وتستني مني الأوكيه عشان تدخّلي الكلام ده المطبعة..

- كلام جميل كلام معقول.. الموضوع عن إيه بقه عشان اظبطلك عنوان حاشوم كده يجيب توزيع.

- في بنت تقول حاشوم.. إنتي إيه متربية في زريبة!!

- تلميذتك النجيبة يا كبير الجاموس.. اخلص بقه بدل ما اطول لساني عليك.

- استني طيب بس هجيب الجرايد واكمّلك.. خليكي معايا.. هات الأهرام المسائي والمساء يا ابني.. كام..

منحني فتى الجرائد في إشارة المرور الجريدتين المسائيتين الأشهر.. فقلبت الأهرام المسائي لأرى نصف الصفحة الأولى السفليّ.

- الموضوع بقه بيتكلم عن سفاح كان بيسيب نسخة من كتاب اسمه الرُّهاب في...

- الرُّ إيه يا اخويا؟!!

- الرُّهاب يا جاهلة.. الفوبيا يعني.. وعايزك بقه تبرزي موضوع الكتاب وال.. أحييه إيه ده!!

- في إيه يا أكرم؟!

كانت عيناي عالقة بذلك العنوان الذي كتب بخط كبير في نصف الصفحة السفلي، مع صورة لوجه رجل في أربعيناته، يبدو كسكرتير مصنع أدوية، والمانشيت العريض يقول:

" القبض على سفاح الفوبيا "

"انفراد المسائي: السفاح قاتل علاء البلطيمي وأربعة آخرين يسقط أسيرًا في يد الشرطة"

- أكرم.. رد عليا يا جدع انت في إيه؟؟!!

- اقفلي يا ولاء.. وانسي موضوع المقالة دلوقتي.. هكلمك تاني.. سلام.

طلبت رقم عماد.. لا يرد.. المحاولة الخامسة ورأسي تغلي كغلاية بيض.. السبق الصحفي ضاع للأبد.. أجب يا هذا وإلا ارتديت حزامًا ناسفًا وحولت مديرية الأمن إلى ركام تذروه الرياح.

- عايز إيه يا زفت.. عندي تحقيق.

- إنت قولتلي الوزير مانع النشر ها!!

- آه يا أكرم.. والموضوع ده مافيهوش هزار ده فيه تحويلي للاستيداع لو كلمة اتسـ...

- إنت هتستعبط يلا.. ابعت حد يجيبلك نسخة من الأهرام المسائي يا عماد.. وابقى شوف مين عندك بيسرب أخبار وانت قاعد زي خيبتها.. سلام.

ثم أغلقت الخط وألقيت بالهاتف في دواسة السيارة، فانكشف غطاؤه، وسقطت البطارية في طرف الدواسة.

- في حاجة يا أستاذ؟؟

- خليك في حالك الله يباركلك.. ولّا تنزلني واخلص!!

- لا يا باشا.. تليفونك وانت حرّ فيه إن شالله تاكله حتى.

- طيب خليك في طريقك بقه..

وغصت في مقعدي مراقبًا الطريق المزدحم..

* * *

حاشية لا بد منها

الطريق لا زال طويلا يا سمية..

تحدثين نفسك دائمًا.. الحقيقة أنك لا تحدثين نفسك.. أنت تحبين ا تسميهم أصدقاءك الافتراضيين.. هناك "صفوة" الخليعة الرقيعة ال تحرضك على إتيان تلك الأفعال المشينة - على الأقل من وجهة نظر أ ا العجوز - وهناك "ليلى" الحالمة الشاعرية التي تجعلك تفكرين في ا الأفكار الشاعرية الحساسة - المشينة أيضًا من وجهة نظر أمك - الحقيقة ا أمك لا تحب اي أفكار تأتي بها فتيات جيلك، ما لم تكن تنحصر في ثلا: مواضيع:

الزواج - الأطفال - الطبخ

وأنتِ يا عزيزتي لستِ مؤهلة لأيٍّ من هذه المواضيع.. الواقع أنك لا تقدرين على الأولى ولا تستطيعين أن تأتي بالثانية بدون الأولى.. كما أنا تكرهين الثالثة كرهك للموت!!

الطريق لا زال طويلًا يا سمية..

أمك العجوز المريضة التي تركها إخوتك الكبار وحدها مع فتاة ؛ أواسط عشريناتها.. فتاة لا تعرف شيئًا من الدنيا سوى ارتداء أجمل الثياب وقصات الشعر وأنواع أحمر الشفاه التي تبيعها إيفون!!

... أبوها ـ رحمه الله ـ أراها أجمل ما يمكن أن تراه فتاة في سنين
... وا.. فقط ليرحل بلا رجعة وأنت في بدايات سِني الجامعة.. ثم يلحق
...اك إلى الخليج أيضًا بلا رجعة.. ثم تنقطع أخبارهم ومعها أموالهم
...ا التي تكفي بالكاد لطعامك أنت وأمك المريضة.. ثم تجدين نفسك
... ول أن تعملي سكرتيرة في مكتب طبيب نفسي.. دكتور مجانين كما تلقبه

يعني مفيش غير دكتور المجانين اللي تشتغلي عنده يا سمية؟!!

لما مايكروسوفت تفتح باب التوظيف وترضى تُشبع مؤهلاتي العظيمة وقدراتي الخارقة.. أوعدك إني أفكر.

ه.ه "صفوة" الماجنة التي أجابت أمك.. أنت تعرفين أنها تسيطر عليك
... هذه الأيام.. بينما ليلى الطيبة الودودة الحالمة لا تظهر إلا عندما تقع
...الك على عصام!!

عندها فقط يدور ذلك الحوار العميق مع ليلى.. عندها فقط لا تخجلين
... ان تحدّقي به وهو يتكلم مع ذلك الوغد الذي يلقب نفسه بمساعد
...ب ـ وهو لا أكثر من خادم ـ تحدقين به وهو يتحدث بكل تلك البساطة
والتواضع، بينما ذلك الوغد يتحدث بمنتهى الغرور وكأنه صاحب المكان!!

كيف يقبل عصام ـ وهو طبيب ـ أن يتحدث معه ذلك الخادم بهذا الشكل؟!! هو لا يراه عندما يدخل العيادة في أول المساء يحمل تلك المقشة وأداوت النظافة القذرة ويبعثر الأتربة هنا وهناك، حتى تتساوى على كل قطع الأثاث، ثم يحمل أوراق الدكتور ـ التي أرسلها معه ـ ويدخل بها إلى الغرفة التي يمنع الجميع من دخولها عداه.. ثم بعدها يأتي عصام.. وهنا يبدأ اليوم.

هو طبيب مناطق حارّة ـ كما أخبرني ـ ولكن لأن ذلك الفرع من الطبّ

لا يؤكل خبزًا ولا لحمًا في مصر.. ولأنه يعمل جاهدًا كي يضمن حياة كر...
تمنحه القليل كي يتزوج من ابنة الحلال - يداه بلا خواتم كما تلمّح لك ا...
- فقد افتتح عيادة في حدائق المعادي، وعمل كطبيب بشري يعطي ...
القيء وأدوية الاسهال والملينات، ويفشل في الحصول على منحة للدكتوراه

- إنتي مدركة لمعنى كلامي يا سمية؟!

- أنا خرجت من تانية آداب فرنساوي يا دكتور.. يعني مش جاهلة يعني!!

يبتسم لك فتشرق الدنيا، وتبدأ "صفوة" الماجنة في مراقبة شفتيه و... يلتويان إلى الخارج عندما يخبره ذلك الخادم أن الدكتور لن يأتي اليوم.

- كنت عايزه في موضوع شديد الأهمية..

- كان على عيني يا دكترة والله.. البروف تعبان شوية ومش نازل العيادة النهاردة.

- ليه سلامته؟!!

- السكر علي عليه شويتين.. فا حب يريح النهاردة عشان المضاعفات.

يهبط كتفاه قليلًا في إحباط فيصيبك الدوار.. يا له من رجل وسيم يستحق ألا يحبط أبدًا.. يستحق الدنيا وما فيها.. أنت لستِ ملكة جمال ولكنك جميلة.. وهو رجل يستحق أن ينال من جمالك قبسًا.

- الراجل عايز شوية حنية يا بت ما تديله حنية.

- اقفلي بقك يا "صفوة" وإلا هاكل زورك بسناني.

- هتاكلي زورك يا هابلة.. أنا حتة منك يا حمارة.. وبعدين بسيطة اعمليها، وبكرة الصبح الدكتور فرويد. بتاعك هيرميكي في العباسية ونخلص منك.

إذن اليوم ستجلسين تمارسين هوايتك الأثيرة.. الواقع أنها ليست هواية
ءءمل.. إنها طريقة أخرى للهروب من ثرثرة ذلك الخادم الذي يدعونه في
مافنه (إبليس)، والواقع أنه عندما يرددها أمامك في فخر تشعرين أنه
حقها فعلًا!!

أخرجتِ ذلك الكتاب الذي أعطاه لكِ عصام بالأمس.. كتاب مصفرّ
منبق واسمه غير مفهوم لكِ إطلاقًا.

- الرُّهاب..!! إيه الاسم الغريب ده؟!!

- بيفكرك بحاجة الاسم ده؟!!

- هي الكلمة تقريبًا معناها الخوف.. هو كتاب رعب مثلًا عن؟!!

يغمز بعينيه فيسقط قلبك بين قلميك، ويتابع:

- أنا هسيبلك الموضوع ده تكتشفيه لوحدك..

- طب اعذرني هو انت لابس الجوانتي الأبيض ده ليه وانت ماسك الكتاب؟!

- أنا عندي حساسية بشعة من الجلد القديم.. ممكن افضل طول اليوم مش على بعضي بسببه.

تقلبين الكتاب في يدك وتتحسسين جلده الخشن ثم تقلبين في صفحات الكتاب فتجدين ورقة مطوية من صفحات الكتاب، وتلك الصفحة تتحدث عن قصة ما..

ظلمات..

قصة قصيرة هي.. تتحدث عن فتاة مسكينة تجلس في شقة ما هي مكتب افوكاتو شهير.. قديمة هي هذه القصة، خاصة وهي تتحدث عن أفوكاتو

وليس محاميًا.. وعن شقة في الطابق السادس في أعلى مباني القاهرة!!

الفتاة تجلس خلف المكتب وقد أغلقت النافذة وأشعلت كل الإضاءات.. تجترّ ذكرياتها الصغيرة من زمن أبويها اللذين توفيا وتركاها تلاطم أمواج الحياة.. توفيا والظلام يعمّ المكان فكرهت الظلام وكره كل ما يمت له بصلة.. فقط عندما نهضت لتصنع كوبًا من الشاي على ذلك الملف الذي يسخّن الماء لتنقطع الكهرباء وتظلم الشقة كلها.

تمسكين بالكتاب في يدك وأنتِ تحاولين خلط النسكافيه في ذلك الكوب الفخاري الملون.. القصة تسرقك من حياتك.. الفتاة تحاول تحسس الحوائط والأثاث لتصل إلى مكتبها، وتشعل شمعة تستقر فوق المكتب عندما تسقط على وجهها وتصاب بإغماءة لم تفق منها أبدًا.

يا لها من قصة سوداوية رقيقة.. لا بد من إسقاطات ودلائل هنا.. لا بد أنه يتحدث عن ظلام روحيّ وليس ظلامًا حسيًّا.. فلتشرب النسكافيه ولتنظر في هذا الكتاب مجددًا.. لا بد أنه يحتوي على العديد من القصص الشجية المؤثرة مثل هذه.

فقط سوف تفعل ذلك عندما تعود الكهرباء.. عندما تستطيع أن ترى أمامها.. عندما تتمالك نفسها وتستقرّ ضربات قلبها.

إن انقطاع الكهرباء أصبح مشكلة خطيرة في بلادنا!!

* * *

- Did he said Hydrophobia؟؟

- أنا بيتهيأ لي ما قالش غير شوية تخاريف.

- هيدروفوبيا.. هيدروفوبيا.. هيموت.. هيموت

* * *

(١٥)

جريدة (......) اليومية.. السادسة مساء

أجلس فوق مكتبي ساهمًا محدقًا في اللاشيء.. لقد تلقيت ضربة موجعة في رأسي لن تمحى آثارها بيسر.. بل قد لا تمحى أبدًا من تاريخي كصحفي.. حتى إن لم يعرف أحد بما حدث لكني سأظل أتذكر هذا اليوم طوال حياتي في هذه المهنة.

كنت أعد التحقيق الصحفي الذي يتحدث عن ذلك الكتاب والسفاح للنشر.. وأحاول جاهدًا أن أضع كل ما أعرفه من فنون الجذب الصحفي والإثارة المفتعلة وبعض الملاحظات العلمية الرصينة من دكتور علام ودكتورة آمال.. محاولًا جهد أمري أن أصنع شيئًا مختلفًا ربما يعوض سرقة السبق مني.. نعم سُرق السبق مني سرقة لأني كنت ملتزمًا من أجل صديقي.. فرحت بأنني الوحيد الذي يتداخل مع الشرطة وأول من يلتقط

الصور وأول من يعرف بها يحدث أولا بأول.. فقط ليأتي أحدهم ويس...
مني كل شيء!!

ولاء تأتي نحوي وأنا أضع وجهي في شاشة الكمبيوتر المحمول.. أس...
دقات كعبيها على الأرض، فأتظاهر أني منشغل أكثر وأكثر.

- واد يا أكرم..

- عايزة إيه؟!

- إنت هتفضل متلقح قدام الزفت ده لحدّ إمتى؟!

- هو انا معطللك عن حاجة يعني.. فكيني يا ولاء بقه، أنا عايز اخلّص
التحقيق قبل ما رئيس التحرير يتصل.. لازم انزله المطبعة النهارده،
والّا اسيبني من الصحافة واقعد اقمّع بامية جنب امي!!

- إنت مكبر الموضوع ليه أوي كده.. هو ده أول ولّا آخر سبق صحفي
يطير منك.. ما ياما شفنا فشل، وياما اشتغلنا لحد ما طلع ميتين أبو...
وفي الآخر اتبلع في كرش رئيس التحرير.. وبعدين محدش عرف...
حاجة غيري فا انت في السليم.

- طيب هدي اللعب عشان صاحبك حسين جاي وانا معنديش
استعداد اترفد اليومين دول.

حسين مسلم.. مصور الجريدة الثرثار اللحوح معدوم الموهبة.. يقترب
نحونا، وطرف فمه يحوي لفافة تبغ من نوع صيني انتشر في مصر مؤخرًا..
وهو يشبع بشكل كبير رغبات حسين المكبوتة في الاستعراض بفلتر التبغ
الملون بدل التبغ المصري ذي الفلتر الأبيض!!

- مساء الخير يا ولاء..

- ولاء دي بتلعب معاك في الشارع!!

طب خلاص ما تزقيش.. معلش يا أستاذة ولاء.. إزيك يا بروفيسير.. كده برضه تعمل الحركة دي فيّ.

حركة إيه يا سحس ولا مؤاخذة..

املأ لفافة التبغ في كوب قهوتي الممتلئ حتى نصفه حتى كدت أقفز ... حنجرته، وتابع في سماجة يحسده عليها باعوض الصحراء:

أنا تِبْعَتْني القصر العيني وانت هناك في التجمع بتصور وبتكتب وبتنفرد.. وبنط ستة وتلاتين، وجسمي يقشعر وحبيبي يا سونة.. طب شفت بقه ربنا عمل فيك إيه.. آهو الموضوع اتبلع منك كله، وحتة عيل تحت التدريب في الأهرام طلع انصح منك.. ده انا فرحان فيك أوي..

إنت بتتكلم عن إيه عشان انا مش مجمع ومش فاضي لشغل النسوان ده.

شغل النسوان ده هتعمله في مكتب رئيس التحرير كمان شوية لما يسألك على الانفراد اللي ضيعته يا بروفيسير.. وما تسألنيش عرفت ازاي.. عشان علاقاتي كتير أوي فوق ما تتصور يا أكرم بيه.

ثم نهض من مكانه وهو يحدجني بنظرة متشفية ساخرة.. هو يظن نفسه .. هزمني بكلماته الملتوية.. علاقات!! وهل يسمي مجالس نميمة النسوة التي يعقدها مع فتيان التوزيع في الصحف الأخرى بالعلاقات.. ضربة مكسية قد ترد بعضًا من كرامتي التي بعثرت أمام هذا ال... حسين..

- بقولك إيه يا حسين..

- أستاذ حسين لو سمحت..

- بقولك يا أستاذ حسين.. وطي بس هقولك حاجة.. وطي.

خفض رأسه في حذر متوقعًا مني حركة صبيانية ما، إلا أني تابعت
هامسًا:

- أنا قولتلك وطي عشان ولاء ما تسمعش الكلمتين دول.. لو كنت
فاكر إني هفق ولا عشان محترم هخليك تتكلم معايا كده عادي
إنت عارف كويس أوي أنا ابقى إيه في الجرنان ده.. وانا برضه ليا
علاقاتي، واعرف اجيب اللي انا عايزه كويس.. وإذا كنت فاكر إن
الصورتين اللي بتسرقهم من مواقع النت وتكتب تحتيهم اسماء
دول محدش يعرف عنهم حاجة.. أنا اللي مخليني ما اقولش لرئيس
التحرير إني ما بحبش اقطع عيش حدّ.. بس انت ما سبتليش حل
تاني.. بكرة الصبح اعتبر نفسك منقول مكتب الجريدة في جنوب
الوادي.. وأن علاقتك بقسم الحوادث انتهت من دلوقتي.. ولو
فاكر إن لقب أقدم مصور وأعرض مصور والشغل الرخيص ده
هينفعك.. يبقى إنت حرّ وذنبك على جنبك..

- إنت بتهددني..

- لا؛ أنا باعرّفك مقامك بس.. ويمين الله يا حسين ما هسيبك تشوف
يوم عدل في الجرنان ده طول ما انا هنا.. ودلوقتي تخفى من وش أمي
بدل ما تبقى فصل نهائي وخصم مستحقات..

ظل يحدق فيّ وجسده مائل نحوي فعدت برأسي إلى الوراء صارخًا:

- بالسلامة..

- أستاذ أكرم..

- اتفضل بالسلامة..

سقط ذراعاه إلى جواره، وراح ينظر إلى ولاء وإليّ.. فمنحته ولاء ابتسامه

ساخرة.. ثم زادت عليها بضحكة ساخرة عالية، بينما حولت بصري إلى شاشة الكمبيوتر غير عابئ بنظرات الاستجداء في عينيه.. ثم انصرف يسبّ ويلعن اليوم الذي دخل فيه الصحافة ووطأت قدماه هذه الجريدة.

- يا ابن الهرمة.. إنت عملت في إيه؟؟

- ولا حاجة.. أنا بس دوستله على الحتة اللي بتوجع.. كلها يومين وهيترمي في مكتب جنوب الوادي يعمل شاي وقهوة، وحوافزه هتنزل النصّ وهيتحرم من مرمّات رئيس التحرير والأفراح اللي بيروح يصور فيها كل ليلة.

- شرير إنت أوي يا مان..

- من بعض ما عندكم يا أختي.. مش إنت اللي قفشتي الصور المضروبة عنده.

أطلقت ضحكة عالية مجلجلة، ومالت برأسها نحو المكتب قائلة في دلال:

- كده برضه يا كيمو.. أنا برضه شريرة!!

- مش لايق عليكي المحن ده يا بت..

ارتفعت ضحكاتها المجلجة من جديد حتى أن عم طاهر ساعي الجريدة الذي لم ير بيته منذ أسبوع كان يقف على باب المكتب محملقًا فينا..

- إيه يا عم طاهر في إيه!!

- يا أستاذة ولاء صوتكم جايب آخر الجرنان.. مش هينفع كده.. رئيس التحرير مش عارف ينام في مكتبه.

ثم انطلقا يضحكان في سخرية وأنا أراقبهما، وعلى وجهي شبح ابتسامة..

اللعنة عليك يا أكرم.. لماذا تعقّد الأمور وتصنع من الحبة قبة، كما كانت أمك تقول لك دائمًا.. هل عم طاهر خالي المشاكل؟.. بالعكس.. إنه يحمل أكثر ما تحمله من هموم: زوجة عاجزة، وثلاثة فتيات يحتجن إلى من يلبي طلبات جهازهن حتى يتزوجن، ويقررن في بيوت أزواجهن، وراتب لا يكفي غذاء قطة سيامية.. لكنه يطلق الضحكات الصافية المجلجلة يوميًا في وجه كل الناس.. حاضر الدعابة.. بينما أنت تصنع المشكلة من تحت الأرض حتى تجلس كثيبًا متهجمًا لأن ـ فقط ـ سبقًا صحفيًا ذهب منك أدراج الرياح!!

انصرف عم طاهر بعد أن منحته ولاء لفافة تبغ من علبتها.. وأشعلت واحدة لنفسها متابعة..

- بقولك إيه يا بروفسير..
- قولي يا أختي..
- ما تيجي اعزمك على اتنين قهوة في إكسليسيور وآهو نفك شوية ونشم هواء في وسط البلد.
- طب اخلّص التحقيق ده ونتجه.. متفقين..
- يا عم.. أبو أم التحقيق.. هي كلها ساعة ونرجع.. يلّا بقه ما تبقاش قفل..

ثم وقفت وراحت تجرني من قميصي حتى أطاوع رغبتها في الانطلاق.. إلا أن الهاتف الداخلي أطلق رنات متقطعة فرفعت السماعة..

- أكرم..
- نعم يا ريس..
- تعالالي المكتب عايزك..

ثم وضع السماعة دون أن يمنحني حتى حق الاعتراض أو التملص..
نظرت إلى ولاء وهززت كتفي فقالت:

- مين.. الكرش الكبير؟!

- عايزني في مكتبه دلوقتي حالًا..

- الله ينكد عليك يا ماهر يا رفاعي يا ابن... إنت تعرف اسم امه؟!

- أوعدك بعد ما يرفدني اسأله عشان أروي فضولك.. استني لما اشوفه عايزني في إيه..

بخطوات حذرة اتجه نحو مكتب ماهر الرفاعي.. رئيس تحرير جريدتنا الناشئة.. وسكرتير تحرير ثلاث صحف على الأقل في بدايات الألفية الثالثة.. الرجل الذي تسلق سلم الصحافة من البدروم إلى القمة.. والذي ذبح بقلمه الكثيرين ممن عارضوه أو وقفوا في طريق صعوده.. المناضل الفذ الذي لا يُشق له غبار في سبعينات القرن العشرين.. والموائم الفذ في تسعينات القرن العشرين.. القلم الحر الذي يملك كل الحرية في أن يخالف ما قاله في نفس المقال..!!

دققت الباب في هدوء، فجائني صوته الرخيم الخشن يطلبني للدخول..

- مساء الخير يا ريس..

- مساء الخير يا اخويا.. اقعد، يا طاهر...

عم طاهر يأتي مهرولًا للمكتب.

- هاتلي اتنين قهوة عالريحة.. واقفل الباب ده كويس ومحدش يخشلي.. نرمين روحت؟؟

- آه يا ريس من نص ساعة كده.

- طيب خلاص.. بسرعة الله يكرمك.

انصرف عم طاهر مهرولًا لينفذ الأمر السماوي الذي أطلقه ماهر الرفاعي من فوق مقعده الجلدي الضخم.. القابع خلف مكتب عملاق من خشب الزان الأصلي.. النائم في غرفة فسيحة معطرة بأحدث أنواع منقيات الهواء برائحة التوت البري النفاذة..

ماهر الرفاعي ذي الستين عامًا.. الذي أمضى السنوات الخمس الأخيرة من حياته جالسًا خلف هذا المكتب العملاق.. مرتديًا حُلّته التي خاطها له أشهر خياطي محلات موريس حنا.. وحذاؤه الإيطالي اللامع دائمًا كبنورة مكتبه الزجاجية.

- إزيك يا أكرم.

- الحمد لله يا ريس عايشين..

- مال وشك مصفرّ ليه..

- ولا حاجة يا ريس قلة نوم.. وقلة مزاج.

- وإيه اللي قالل نومك ومزاجك يا سيدي؟!

هذه الطريقة لا تريحني أبدًا.. هذا الرجل يستجوبني بطريقة تشبه طرق الآباء في جعلك تعترف بجرمك المشهود بلا أي ضغط منه أو سؤال..

عم طاهر يدلف بالقهوة في فنجانين خزفيين، لونها كلون بشرته البنية.. وكوب الماء الشفاف النظيف يقف منتصبًا بهائه المعدني الرقراق..

- شكرًا يا طاهر.. اتكل انت..

- هتؤمرني بحاجة تانية يا ريس.

- لا روح إنت.. وابقى سلملي على تحية والعيال..

يوصل يا ريس.. الله يسلم عمرك.

عم طاهر يخرج مشرق الوجه سعيدًا بأن السيد المأمور قد أطلق سراحه ا مبرًا، وسيرئ أولاده وينعم بهم.. مسكين هذا الرجل.. الحقيقة أن علاقته باهر الرفاعي متشابكة تشبه علاقة خادم مخلص بمخدوم جبار متكبر متطرس.. ورغم أنه لا يطيقه ولا يحبه إلا أنه لا يستطيع تركه أبدًا.. بل ويفرح بكل كلمة سلام وكل ابتسامة ممنوحة تأتي منه.!!

هذه العلاقة الغريبة جسَّدها العبقري الإيطالي تارانتينو في فيلمه الأخير (جانجو) عندما لعب (صامويل أو جاكسون) هذا الدور العبقري وبقي مخلصًا لمخدومه الأبيض ضد بني جنسه المستعبدين.. بل إنه وشئ بهم لسيده الأبيض حتى يقتلهم.. أعرف أن عم طاهر يملك علاقة متشابكة مثل هذه مع ماهر الرفاعي.. فقط أثق أن عم طاهر لن يشي بي أنا وولاء لكي يقتلنا السيد الأبيض!!

رشفة مسموعة من قدح قهوته الكثيف البنّ أخرجتني من عوالم تارانتينو.. وأتت بي إلى عوالم ماهر الرفاعي.. الذي أراح نظارته فوق قصبة أنفه، وراح يتأمل في بروفات طباعة عدد الغد.. فاعتدلت مقررًا أن أبدأ الهجوم المضادّ.

- هو في حاجة يا ريس؟!

- حاجة زي إيه؟!

- أصل أكيد حضرتك مش جايبني مكتبك على وجه السرعة عشان نشرب القهوة سوا..

- وفيها إيه يا أكرم.. هي يعني أول مرة..

- الصراحة أول مرة من زمن طويل يا ريس..

- يا سيدي قول إني حنيت للمرة اللي فاتت.. وبعدين انت منو، كده ليه.. هو لازم يبقى في حاجة عشان اعزمك على اتنين قهوة ا، مكتبي وندردش شوية.

(ندردش) هنا بمعنى (أستجوبك).. أنا لا أخطئ في ترجمة مصطلحا، ماهر الرفاعي أبدًا..

- ولّا انت عامل حاجة وخايف تقوللي عليها؟!

- حاجة زي إيه يا ريس..

ثم منحته أكثر ابتسامة بلهاء سخيفة استطعت إنتاجها من خط إنتاجي الشعوري.. دعني قليلًا أستخدم هذا التكنيك الناجح.. مواجهة الاستعباط بالاستعباط..

- شفت التحقيق اللي اتعمل في المسائي النهاردة؟!

- تحقيق إيه يا ريس.

- التحقيق اللي اتنشر في نص الصفحة الأولى بتاع سفاح الفوبيا..

ماهر الرفاعي يطلق أسلحته الاستباقية في وجهي.. إذن هجوم..

- آه شفته يا ريس..

- وإيه رأيك فيه؟!

- رأيي إنه أي كلام.. كلام متلزق على كام مصدر موثوق فيه من داخل المديرية.. مفيش لا صور ولا أسامي ولا تقارير طبية ولا أي حاجة تدعم الكلام.. هو فعلًا يليق بصحفي تحت التمرين في الأهرام المسائي.

- أنا ما بسألكش عن رأي صحفي.. أنا عارف كل الكلام ده كويس..

أنا بسألك عن الموضوع نفسه.. إيه رأيك فيه؟!

ىمتَ عن ادعاء الجهل أيها الثعلب وأطلق الرصاصة في وجهي مباشرة..

والله حضرتك أنا رأيي هقوله في التحقيق بتاع عدد بكرة.. أنا كنت قاعد بجهز فيه لما حضرتك كلمتني.

متأخر أوي يا أكرم.. متأخر أوي.. الصفارة ضربت خلاص النهاردة.. وأي كلام تاني بعد الصفارة هيبقى وقت ضايع.. والغريبة إن الصفارة كانت في إيدك انت، بس انت رميتها لحدّ تاني..

- تقصد إيه يا ريس مش فاهم؟؟

- بلاش استعباط يا أكرم.. أنا ماهر الرفاعي يا ابني.. أنا اعرف كل حاجة عن كل بني آدم بيشتغل معايا هنا، من أول سعفان البواب لحدّ عبد المعطي مدير التحرير.. اللي انا مستغرب له بقه.. إنت ازاي عملت كده..

بدأنا اللعب على المكشوف إذن.. هيا بنا..

- إزاي يبقى انت الصحفي الوحيد اللي كان قايم نايم في مديرية الأمن.. ومصدره معاون مباحث العاصمة.. وحاضر الحدوتة من أولها.. لا وكمان رحت المشرحة وسمعت بنفسك تقرير الطب الشرعي قبل ما يتكتب.. وفي الآخر ما نشرتش كل ده، وسبت عيل ابن امبارح في جرنان مسائي بيقراه خمسين ستين بني آدم يعمل معاك كده..

- كان لازم اعمل كده يا ريس عشان احافظ على المصدر بتاعي في صفي.. لو نشرت حرف كان هيتأذي بسببي.

- ملعون أبو المصدر قدام سبق صحفي كبير زي ده.. إنت عبيط

يا ابني.. إنت شغال في جرنان مش في مؤسسة اجتماعية.. يعني
قدامك كورة متصلحة وانت منفرد بالشبكة.. تقوم تباصيها لواحد
جاي وراك عشان الجون ما يتعورش من شوطتك.. ده يبقى اسمه
هبل رسمي.

- الموضوع مختلف شوية يا ريس لأن...

طقطق بلسانه مقاطعًا إياي وملقيًا بنظارته الفاخرة فوق أكوام الأوراق وبروفات الطباعة على مكتبه.. ثم أشعل لفافة تبغ ورشف رشفة من القهوة.. هو يتلذذ بتركي هكذا.. يظن أني خائف منه أو من قراراته التي أتوقعها.. لكن هو لا يعرف أني لا أخاف منه.. أنا لا أخاف ممن لا أحترمهم.. لأنني دائمًا أتوقع منهم الأسوأ..

- و دلوقتي هتعمل إيه..

- ما قولت لحضرت التحقيق هيبقى جاهز في ظرف ساعة وهيلحق المطبعة قبل الساعة ثمانية.. أنا عامل حسابي في نص الصفحة الأخيرة عشان نلفت انتباه شوية.

- أخيرة إيه.. أنا مجهزلك ملحق خاص أربع صفحات.. ونزلت إعلان عنه في الموقع من شوية.. عايزك تحطّ كل حاجة في الموضوع.. أقوال.. ملابسات.. تحقيقات.. صور.. عايز تفاصيل حقيقية جدًا.. حتى عدد كوبّايات القهوة وأعقاب السجاير.. فاهم يا أكرم..

- فاهم يا ريس.. فاهم..

- طب انجز.. يمكن نعرف نعوض القرف اللي انت عملته.. ولا كلمة زيادة.. على مكتبك وما اشوفش وشك غير بالملحق..

هممت بالانصراف ثم تذكرت أمرًا ما فالتفت ناحيته..

باشا.. بالنسبة لحسين مسلم.

- حسين مين.. آه المصور.. ما له؟!!

- عايزين نقرص ودنه بس ما نأذيهوش..

- وماله.. بكرة الصبح هطلع قرار بنقله الأرشيف.. والكاميرا هتتسحب منه، وتروح لوائل مسعود.. حاجة تانية؟!

- ما نتحرمش منك يا ريس.

وانصرفت غير مندهش من سرعة استجابته لطلبي.. نعم؛ الآن لن يرفض طلبًا لي أبدًا.. حتى مساء الغد.. إذا نفدت طبعات الجريدة الثلاث أو قاربت على النفاد، فسوف يرفعني إلى منزلة لم أصل لها من قبل.. أما إذا لم يصل للتوزيع المنشود.. فقد أصبح مراسلَ الجريدة من فوق رصيف مجلس الوزراء.!!

كدت أصل إلى أول الممرّ المؤدي لمكتبي حتى فوجئت بالطود العظيم يفتح باب مكتبه صارخًا فيّ:

- أكرم..

- إيه يا ريس خير!!

- خد ولاء وصّلها، وتيجي مكتبي بكرة بدري..

- طيب والتحقيق يا ريس..

همّ بالاستدارة نحو مكتبه عائدًا دون أن يجيب سؤالي.. إلا أنه تقدم نحوي وقال هامسًا:

- مفيش تحقيق.. مفيش ولا كلمة عن الموضوع من دلوقتي.. اسمع بقه كلامي وامشي..

- في إيه يا ريس أنا مش فاهم حاجة؟!!

- النائب العام أصدر قرارًا بحظر النشر.. مفيش نشر في الموضوع يا أكرم.. مفيش نشر..

* * *

(١٦)

كافيتريا شهيرة بالزمالك.. الواحدة بعد منتصف الليل

أجلس في شرفة الكافيتريا الشهيرة المطلة على النيل.. مكان استراتيجي بعيد عن كل معارفي.. كما أن شقة خالي في ميدان الدقي تبعد ساعة بالمشي الطبيعي..

رحت أراجع ما حدث لي في الأيام الماضية وكأني أشاهد فيلمًا سينمائيًا قصيرًا.. أرفع رشفات من قهوة الاسبريسو القوية وأدخن لفافة تبغ هي الأولى لي منذ ثلاث سنوات!!

ماذا حدث لي؟؟ لماذا تتعثر خطواتي؟؟ لماذا ترقد روحي في جسدي كالطين في قاع مستنقع؟؟ لماذا فقدت كل رغبتي في فعل أي شيء لمجرد تحقيق صحفي منع من النشر وأربعة أيام من عدم النوم؟!!

ليس أول ولا آخر الإحباطات يا أكرم.. تذكر أنك أفضل بكثير من

سائق التاكسي الذي حملك إلى هنا من وسط البلد.. تذكر كيف قص عليك قصة الوردية التي تقصم ظهره وقصة أبنائه الأربعة وزوجته الشمطاء.. تذكر كيف قص عليك قصة المقود الذي ينكفئ عليه.. وقصة طبق الفول الساخن الذي أصبح أقرب إليه من حبل الوريد.. تذكر ذلك الكناس الذي مال عليك وأنت تتقدم نحو الكافيتريا، وهو يلقي على مسامعك كلماته المعهودة "كل سنة وانت طيب يا باشا" راجيًا جنيهًا أو جنيهين يضافا إلى راتبه الذي يكفي لتبغ غليونك في أسبوعين!!

تخيل كم إحباط وفشل مرّ به ذلك الفتى الذي أحنى رأسه الحليق لك بعد أن أثنيت على جودة القهوة.. كم فشل وإحباط رأوه في حياتهم المريرة..

أضرب بأصابعي فوق القائمة الكرتونية الملقاة على الطاولة أمامي، وأحاول تذكر ما جعلني أبدأ في التفكير فيما أفكر فيه فلا أتذكر.. فأحول رأسي كفنار الموانئ أراقب الزبائن القليلين يقرءون الصحف أو يمارسون عملًا ما في هواتفهم الذكية.. ثم أتذكر أنني لم أعبث في هاتفي الذكي منذ خمس ساعات على الأقل.. فقط لأتذكر أنه كان مغلقًا لأن البطارية قد نفدت!!

أنا أخرف.. نعم أخرف.. عقلي الذي ارتدى عباءة اشتراكية فراح يفكر في قيمة ما أشعر به أمام ما قاساه هؤلاء.. ثم خلعها وارتدى عباءته الرأسمالية حينما تذكر أن لديه هاتفًا ذكيًا يكفي كراتب لذلك الفتى حليق الرأس!!

طأطأت برأسي من جديد مراقبًا صورة اللسان المصاب بالسرطان فوق علبة التبغ التي ابتعتها بعد أن تركت الجريدة.. فقط لأسمع آخر صوت أتوقع سماعه الآن.

- هاي يا أكرم.. إزيك

- دكتورة آمال.. أنا مش مصدق عينيّا.

Why not .. مش إنت لوحدك اللي تعرف المكان ده.. ممكن اقعد؟؟

- طبعًا اتفضلي..

بنطال جينز أنيق.. وقميص أبيض فضفاض يعتليه شال قطني أحمر هو ما يغلف هذه السيدة التي يمكن أن ترى صورتها في كتاب الحياة بجوار كلمة بساطة مصحوبة بكلمة مهارة.. بنت ناس حقيقية لو أردت دقة التعبير.

- ارجو إني ما اكونش مضايقاك.

- بالعكس يا دكتورة..

- آمال.. اسمي آمال بس.. دكتورة دي في الكلية أو المستشفى يا أكرم.

- المقامات محفوظة برضه..

- بلا بلا بلا.. كلام قديم أوي..

- أوك يا آمال.. تشربي حاجة.

- أنا already طلبت قهوتي..

ثم منحتني ابتسامة رائقة راقية.. وأطلقت مثلها في وجه النادل حليق الرأس وهو يضع قهوتها الأمريكية السوداء في قدح خزفي كبير، وما إن انصرف حتى...

- هو صحيح اللي انا سمعته ده؟؟

- قوليلي سمعتي إيه وانا اقولك..

- قبضوا على الـ Serial Killer بتاع الكتاب إياه؟!

- فعلًا.. ده حصل النهاردة الفجر..

- أصل أنا قريت الموضوع صدفة في المسائي وانا بتغدى.. واستغر
إن انت مش أول واحد نشر في الموضوع.. توقعت إن الضابط د
اللي اسمه عماد هيخلي الموضوع Exclusive ليك!!

لماذا كلما حاولت أن أنسى الأمر يذكرني أحدهم به؟؟ ألا يكفي المرو
من وسط البلد وعين شمس وإغلاق هاتفي ان لا اجد احدا يسألني عن
السبق الذي ضيعته لأني "خايف على مصدري يتأذى"!!

- لا ما هو التحقيق بتاعي كان بيتوضب لحد ما...

- Sorry.. أنا قاطعتك بس انا عايزة أسألك سؤال أهم.. إنت
مصدق؟؟

- مصدق إيه بالضبط؟؟

- مصدق إن هو ده فعلًا القاتل؟؟

- وإيه اللي يخليني ما اصدقش؟!

رشفت من قهوتها خالية السكر ولوت شفتيها مندهشة..

- لا بجد ما اصدقش ليه؟؟

- عشان ده Logically أصح يا أكرم.. قاتل نبيه وذكي وProfessional
جدًا زي ده يقع بالعبط ده وبالسهولة دي.. بص يا أكرم I'm not a
fool .. أنا ست بستخدم مخي أوي أوي، واتعلمت طول عمري إني
أستخدمه.. الشرطة هنا في مصر مش مظبوطة أوي كده عشان تقدر
تجيب قاتل زي ده بالسرعة دي..

- هي ما جابتوش لوحدها برضه.. دكتور أحمد سليمان ساعدهم كتير
في الموضوع ده.. وتوفيق ربنا في الأساس..

Whatever .. برضه ده ما يمنعش إني مش قادرة أبلع الموضوع خالص.. حاسة إن بكرة الصبح هنشوف نفس العناوين العبيطة بتاعت "مختل نفسيًا يقتل خمسة أبرياء" و"جاره أكد أنه غريب الأطوار" وكل البلا بلا بلا ده..

ابتسمت مشعلًا لفافة التبغ بقداحتي التي بدأت تلحق بقداحة عماد المربة..

- متأسف لو كان الدخان هيدايقك..

- لا لا.. مفيش مشكلة..

- عمومًا ما تدايقيش نفسك.. مش هتقري العناوين دي أبدًا.. على الأقل لفترة طويلة..

- ليه يعني.. دي ما تبقاش الصحافة المصرية لو ما عملتش كده.. إنت أول واحد عارف كده أكرم.

- النائب العام منع النشر في القضية.

- إزاي يعني..

- يعني زي ما بقولك كده.. النهاردة الساعة سبعة طلع قرار بوقف النشر في القضية لأجل غير مسمى..

- وده من حقه..

- تقدري تقولي آه..

- وده ينفع بعد ثورة قامت for freedom and truth

- ثورة.. الله يحظك يا دكتور.

نظرت لي باستغراب.. أكثره بسبب كلمة (يحظك)..

- الله يحظني.. إنت بتهرج ولا بتتكلم بجد يا أكرم.

- لا بجد يا دكتور.. الظاهر إن القصص الكتير اللي كانت بتحوم حوالين الضحية الأولانية علاء البلطيمي وموضوع الحشيش والشقة السرية ده مزعل الإخوة في حزب الحق.. ومعلوماتي إن الداخلية هددتهم يكشفوا الموضوع لو هاجموها.. فا خدوها من قاصرها وطلعوا على مكتب الباشا، وطلع الأمر بعد كام ساعة.. شوفتي الهنا اللي احنا فيه..

- Stop.. ما تكملش كلام تاني في الموضوع ده.. this is completely bull shit .. سوري يعني..

- لا؛ سوري ليه.. إنتي قولتي الحقيقة المطلقة.. ده فعلًا bull shit .. واحنا غرقانين فيه لحد وسطنا.. لدرجة إننا اتعودنا عليه وبقى جزء من حياتنا..

ثم دفنت لفافة التبغ في قلب المنفضة الخزفية الصغيرة ورفعت يدي طالبًا قهوة أخرى..

- طيب ولو حدّ كتب عن الموضوع يحصله إيه؟؟

- يتخرب بيته ويتحبس.. بمنتهى البساطة..

هاتفها المحمول ينادي بصوت فيروز الجميل.. أنا لحبيبي وحبيبي إلي..

- هاي يا محمود.. لا يا حبيبي أنا في (...).. آه اللي في الزمالك.. لا مش ناوية اتأخر.. اوك.. اوك.. لا Don't wait for me babe .. لا يلا sweet dreams .. سوري يا أكرم..

- لا ولا يهمك.. أكيد جوزك لما يتصل لازم تردي..

إيه الجو البلدي ده.. وبعدين ده مش جوزي.. أنا جوزي ميت من سنتين.. ده محمود.. ابني.

ربنا يخليهولك يا دكتور.. سوري ما كنتش اعرف موضوع جوزك.

Never mind .. أنا صحيح فقدان ماجد كان صعب عليا أوي.. بس هعمل إيه.. Life goes on يا أكرم.. مفيش حاجة هتوقف الحياة ولا الحياة هتقف عندها.. لا موت حد ولا حياة حد.. ولا خسارة حاجة ولا مكسب حاجة..

ثم رفعت رشفت باقي قدحها ونهضت متناولة مفاتيح سيارتها الأنيقة.

- ميرسي يا أكرم على الشوية دول.. أحمد.. ال check لو سمحت.

- عيب يا دكتور.. إنتي ضيفتي وده مش هينفع.

- بس يا أكرم بليز.. ما بحبش الجو القديم ده وحياة والدك..

- معلش خليها قديمة المرة دي والمرة الجاية تبقى جوها جديد.

منحتني ابتسامة راقية أخرى وأعادت حافظة نقودها الأنيقة إلى حقيبتها البسيطة.. ثم رفعت يدها ملوّحة، واتجهت نحو السلم تهبط درجاته الرخامية في أناقة.

رفعت يدي إلى الفتى حليق الرأس الذي عرفت أن اسمه أحمد.. طالبًا فاتورة الحساب بإشارة على كف يدي.. والتفتّ ناحية الطريق لأرى ذلك الفتي الذي يرفع عقيرته عارضًا بضاعته الطازجة من صحف اليوم..

- استنى يا ابني.. ابعتلي الأهرام مع أي حد تحت.. خد.

ثم تناولت جنيهين معدنيين وألقيتها إليه.. ليلتقفها في مهارة، وبيد واحدة.. ثم أرسل الجريدة مع أحد الشباب العاملين في الكافيتيريا..

رحت أفض الجريدة وأبحث عن صفحة الحوادث لأجد العنوان الـ
بخط أنيق:

"النائب العام يأمر بوقف النشر في قضية سفاح الفوبيا"

"النيابة تخلي سبيل جمال إبراهيم المشتبه به بضمان محل إقامته.. والحظر يشمل أي معلومات تخص القضية أو بمن يتعلقون بها"

صحفي خبيث وذكي.. أراد أن يسرب خبر الإفراج في قلب خبر الـ م بدون أن تطاله طائلة.. لو كان النائب العام ذكيًا لاستدعى ذلك البائس موجهًا له تهمة خرق حظر النشر لأنه كتب اسم جمال.. في نفس العنوان الذي يقرّ بأن حظر النشر يشمل المتعلقين بها.. نعم يا أكرم.. أنت أغبى من برغوث.. حظر النشر لا يشمل إلا علاء البلطيمي يا ألمعي..

ولكن ما هذا..؟؟

خلعت نظارتي وألقيت نظرة على الخبر من جديد.. كيف لم ألحظ ذلك، في غفلة انشغالي بمهارة الصحفي وخرق حظر النشر..

إخلاء سبيل..!!!

لا بد أن أرى عماد حالًا..

* * *

- *هيدروفوبيا..*
- *إنت متأكد يا أكرم؟؟*
- *هيدروفوبيا..*
- *حمدالله على سلامتك يا أكرم*

If you please all of you .. اطلعوا برة.. لازم نسيبه عشان الحالة تستقر

* * *

حاشية لا بد منها

علاء مسعود عبد العزيز البلطيمي.. ٢٨ سنة.. مطلق.. أب لبنت في الثانية من عمرها.. المتحدث الرسمي باسم حزب الحق وعضو اتحاد الشباب المسلم.. والمرشح المرتقب عن حزبه في الانتخابات البرلمانية المقبلة..

هذا ما يعرفونه جميعًا عنك يا علاء..

هذا ما تعرفه عنك مطلقتك نجوى.. وأبوك السلفي المتشدد.. وأمك الفلاحة الريفية البسيطة.. وإخوتك محمد وعمر وجويرية.. وزملاؤك في الحزب.. وبواب البناية التي تقع بها شقتك الفاخرة في قلب مصر الجديدة.. وهذا ما ستعرفه عنك ابنتك حبيبة يومًا من الأيام..

علاء مسعود عبد العزيز البلطيمي.. ٢٨ سنة.. متزوج عرفيًا من أمينة مسعد.. وأب محتمل لصبي قد اخترت له اسم أخيك المتوفَّى مصطفى.. مدمن حشيش عتيد.. لا تقوَ على الحياة بدون قرص الترامادول.. عصبي المزاج.. ومرشح محتمل للإفلاس والفضيحة قريبًا..

هذا ما لا يعرفه عنك سواك يا علاء..

هل مللتَ يا صديقي من ارتداء قناع الفضيلة.. هل مللت من تلك اللحية المهذبة التي أزلتها مساء الأمس وسط كلمات الثناء والغزل من زوجتك السرية أمينة مسعد.. الراقصة السابقة في شارع الهرم.. والتي اعتزلت الرقص وقبلت بك زوجًا سرِّيًا من فرط ما هامت بك حبًّا..!!

هل مللت الكذب على أبيك.. والاختفاء منه في شقة التجمع ا
جعلتها موطنًا لحشيشك الأثير.. ومَهربًا من كل ذلك الزيف الذي تعما
نفسك.. بل إنك ابتعتَ فيها أريكة وطاولة حتى تصبح مقرًا مؤقتًا
لكل تلك الكميات التي اشتريتها..

علاقة متشابكة هي علاقتك بالحشيش يا علاء..

علاقة تشبه علاقة طفل صغير بقالب من شيكولاتة الحليب السويس
عندما كنت صغيرًا كنت تأكل منها حتى لا تقوى بطنك على التحمل..
لتتركها عندما كبرت إلى ذلك العجين زكي الرائحة قوي المفعول..
يوم استنشقت النفس الأول.. يوم تعلمت من صديقك الذي أزاحه
من طريقك يومًا.. كيف تتعاطى الحشيش بكل صوره.. تعلمت ال
والخابور وكيف تجعل من الحشيش أحبالا صغيرة تعلقها في مسامير ثبتها
السقف.. فتشعلها لتحول تلك الشقة الخاوية إلى مكعب حشيش كبير.!!

عرفت كيف تبتكر وكيف تبدع في تعاطي صديقك المخلص.. عرف
كيف تشتريه كما تحب، وكيف تحدد جودة الصنف، وكيف تشعر بذلك م
أول لمسة للعجينة البنية المغطاة التي تعرق الزيت تحت يديك الخبيرتين..

هاتفك المحمول يرن في إصرار.. اللعنة عليكم.. ألا تتركوني أنعم
بحياتي ليومين..

- السلام عليكم
- وعليكم السلام.. مين؟؟
- مين إيه.. أنا جويرية يا علاء..
- أهلا يا حبيبتي إزاي أحوالك..

ثم تترك الهاتف فاتحًا مكبر الصوت كي تستطيع لف تلك اللفافة كما

..... في مهارة ونعومة.

إنت مختفي فين بقالك يومين.. حبيبة بتلف عليك الشقة زي المجنونة وعمالة تقول بابا بابا.. وابوك بيكلمك عالنمرة التانية مليون مرة وانت برضه ما بتردش..

مخنوق شويتين يا جوجو ومحتاج ارتاح..

طيب قولي إنت فين.. أنا جوجو حبيبتك..

بطلي تنادي فيا زي العيال يا جويرية.. أنا عند واحد صديقي برتاح شوية ويومين وهرجع البيت.

- طيب يا حبيبي زي ما تحب.. خلي بالك بس من نفسك.. لا إله إلا الله.

- سيدنا محمد رسول الله.. بوسيلي حبيبة.. واوعي بالله عليكي الحاج مسعود يعرف حاجة عني.

لسانك يمرّ فوق ورق البفرة الناعم مع ذكر اسم أبيك بدون كلمة أبي التي علمك إياها منذ سنين، ولم تستطع أن تبتلعها.. وأختك تتنهد في حزن.

- حاضر يا علاء زي ما تحب.. أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه..

- ونعم بالله.. السلام عليكم

تضغط الزر الأحمر بطرف أصبعك ويدك تتناول القداحة من فوق الطاولة لتصدم بشيء ما..

التفتّ بحدة نحو ذلك الشيء الذي اصطدمت به يدك.. لتجد شيئًا مكعبًا مغلفًا بغلاف جلدي.. كتاب قديم مغلّف بغلاف جلدي قديم، وقد نقشت فوق غلافه حروف اسم الكتاب وحروف اسم مؤلفه بنفس حجم الخط.

تحدث نفسك مندهشًا..

- إيه اللي جاب الكتاب ده هنا..؟؟ وإيه الرُّهاب ده..؟؟ في حد بـ...
كتاب.. الرُّهاب..؟؟

تشعل لفافة التبغ المحشوة بأفخر أنواع الحشيش الأفغاني.. الذي ...
لك أحد الإخوة من هناك منذ شهرين.. هو ليس أخًا بالمعنى الصحيح
هو تاجر مخدرات يتلبس ملابس الأخ.. هو ليس رجلًا مظهره كباطنه...
المرحوم مصطفى أو شابًا حافظًا لكتاب الله مثل شقيقك عمر.. هو مثال
يرتدي قناعًا وعباءة ولحية.. وأخلاقًا ليست أخلاقه..

رحتَ تتصفح الكتاب في لا مبالاة وأنت تنفث الدخان الأزرق.. تمـ...
ساقيك.. ورقة مطوية في نصف الكتاب.. كأن أحدهم قد توقف عند هـ...
الورقة، وذهب ليكمل شيئًا ما.. من أين جاء هذا الكتاب.. أنت لا تذ...
ولا تذكر كيف جئت به إلى هنا!!

تعال وقرّب عينيك المجهدتين وسط سحابة الدخان.. واقرأ معي هـ...
القصة..

إنها تحمل عنوانًا غريبًا.. (من فوق)

إنها تتحدث عن شاب ملَّ الحياة وتعب منها.. شاب لجأ إلى شرب
البوظة وامتصاص الأفيون حتى يهرب من تلك الحياة الملفقة المزيفة.. قصة
قديمة هي.. لا أحد يشرب البوظة منذ أربعينات القرن الماضي.. كما أن
الأفيون لم يعد سهل المنال مثل تلك الأيام!!

ذلك الشاب الذي جلس في شقته الصغيرة يجرع من كأس البراندي..
ويضع قطعة الأفيون أسفل لسانه..

تماما كما تضع قرص الترامادول أسفل لسانك.. كي يسري في جسدك كالدم في العروق..

راح الشاب يشرب البراندي حتى بدأت عيناه تغيم.. فنهض محاولًا استنشاق الهواء في الشرفة.. وراح يعبّ الهواء حتى اصطدم بسور الشرفة القصير بكامل إرادته ليسقط إلى الشارع قتيلًا..

غريب أمر هذا الشاب..

كيف يقترب إنسان ما من حافة الشرفة ويصطدم بها بكامل إرادته.!!

ألقيت بالكتاب في إهمال ورحت تجهز قطعة حشيش أخرى للفافة أخرى.. وأنت تلعن القصص غير الواقعية..

فقط لو تعرف لماذا يطلب منك ذلك الصوت الذي يملأ جنبات عقلك أن تشرب هذه اللفافة فوق السطح..

لماذا تريد أن تستنشق قليلًا من الهواء البارد المعبق بنسمات الفجر وأنت تدخن هذه اللفافة بالذات..

لماذا يبدو لك ذلك منطقيًا جدًّا..

ثم.. لماذا ألقيت بالكتاب إذن..؟؟

* * *

- المرسى.. العوامة.. هيدروفوبيا

- مرسى إيه يا أكرم..؟؟

- كلمولنا الرائد عماد بسرعة..

* * *

(١٧)

مديرية الأمن.. الخامسة والنصف صباحًا

- يعني إيه مفيش دليل عليه.. إنت هتستعبط يا عماد؟!!

- يعني مفيش دليل يا أكرم.. هو انا يعني سايبه بمزاجي.. روح اسأل وكيل النيابة..

- أنا بسألك انت.. مش المفروض إنك مرتب ورقك وتحقيقاتك كويس..

أشعل لفافة تبغ متجاهلًا نبرتي وجلستي الهجومية.. ومدد ساقيه أمامي وهو ينفث دخان لفافته في عنف كأنما يخرج روحه في كل نفس يخرج من أنفه.

- البصمات على السكينة مش بصماته.. المحضر بيقول إنه ما كانش لابس جوانتي ساعة القبض عليه.. المجني عليه بعد ما فاق قال إن

مش هو ده اللي ضربه بالسكينة..

طب وكان بيعمل إيه عنده ساعة فجرية.. بيوصله كومبو من ماك مثلًا!!

غلط في العمارة..

نعم يا اخويا!!

غلط في العمارة.. كان فاكرها عمارة ابن خالته اللي ساكن بعدها بعمارتين واتلخبط في النمرة..

- وهو رايح يزور ابن خالته الفجر.!!

مفيش قانون في البلد بيحدد مواعيد زيارة الواحد لابن خالته يا أكرم..

ثم أشاح بوجهه وهو يزفر متوترًا.. وساقه اليمنى ترتعش كضفدعة الفاني.. وراح يعضّ شفتيه في ضيق حتى كاد يدميهما..

- هات سيجارة يا عماد

- سيجارة إيه.. إنت رجعت للسجاير تاني

- آه رجعت للزفت وكنت ناوي ابطل من كام ساعة.. إنت هتفتحلي محضر ما تخلص..

ألقى إلي بعلبة التبغ فتلقفتها وأخرجت منها لفافة أشعلتها على سبع مرات من تلك القداحة الخربة فوق مكتبه.. نفثت دخانها في الهواء حتى شقته مواصلة طريقها المحموم نحو ذلك الشفاط القابع في طرف الغرفة.

- طيب خلينا عمليين كده.. ساعة ارتكاب الجرايم الخمسة كان عنده حجبج غياب برضه.

- الورق عندك عالمكتب.. ده منظم بشكل بشع.. كل الجرايم الخمسة ارتكبت في وقت بصمة حضوره في شركة الأدوية اللي بيشتغل فيها.. أو قبلها أو بعدها بنص ساعة.. وهو مش سوبر مان عشان يقتل واحدة في المعادي ويوصل العاشر بعدها بنص ساعة.. أو يقتل واحد في الزمالك وهو عنده وردية مسائية في العاشر بعدها بربع ساعة..

- ووكيل النيابة أفرج عنه بسرعة أوي كده..

- اليومين دول محدش بيقعد في النيابة يا عمي.. مفيش دليل إدانة واضح.. مفيش حبس.. وخاصة إن الراجل مالوش أي بصمة في أي مكان للجثث الخمسة.. إحنا كمان كنا بنجري في الموضوع ومش نمناش عشان لما يتعرض عالنيابة كل حاجة تبقى تحت إيدينا.. بس برضه وكيل النيابة كان باين عليه إنه...

ثم صمت ونظر في وجهي بلغة لا يفهمها سوانا..

- وبعدها بربع ساعة يطلع حظر نشر..

- لا؛ حظر النشر اتبعت من مكتب النائب العام بعد القبض عليه بساعة بالضبط.. رغم إننا لا بلغنا النيابة ولا كنا خلصنا تحقيق أصلًا..

- قال وانا اللي كنت بحسب إن في أمين ولا عسكري بيسرب أخبار للصحافة.. أتاري الوزارة كلها شُربة..

- إحترم نفسك ياد.. أنا مش ناقصك إنت كمان

ثم دفن لفافته في المنفضة التي تحولت إلى أصيص لزراعة التبغ.. وجرع ثمالة كوب القهوة البارد..

تشرب قهوة..

لا مش هشرب كفاية اللي انا شاربه.. قولي بقه.. الحدوتة خلصت على كده..

لا ما خلصتش.. أنا براقبه زي ضلّه.. في فرقة كاملة بتعدّ عليه النفس اللي بيخرجه وبق الميه اللي بيشربه.. لازم يغلط غلطة أو تحصل منه تكة تخلينا نحط إيدينا على الدليل.. لازم..

طرقات مكتومة على الباب.. مكتومة ولكنها لحوحة.. لحوحة كطرقات الأطفال على أبواب الحمامات..

ادخل يا علي..

وكأنما حفظ عماد بصمة طرقات كل من يعملون معه.. فتح الباب.. لا لم يفتح.. الفتح لفظ مؤدب لما حدث.. لقد اقتحم علي الغرفة اقتحامًا حتى أنه تعثر في طرف السجادة البالي وسقط على الأرض فانتفض عماد من مكانه ليساعده على النهوض.

- في إيه يا ابني.. مش تحاسب انت كمان

- رئيس المباحث عايزك فورًا يا باشا..

- في إيه ما تنطق؟؟

ألقى إلي بنظرة متشككة.. ثم حوّل نفس النظرة إلى عماد.. فترك عماد ذراعه، ونظر نحوي بنفس اللغة التي لا يدركها سوانا.. ثم انصرف مسرعًا وأغلق الباب.

أشعلت لفافة تبغ أخرى.. ورحت أراقب حلقات الدخان تركض نحو مصيرها المحتوم في هواء الغرفة الكئيب.. التفتّ لألقي نظرة على مكتب

عماد الشبيه بدولاب مراهق في الخامسة عشرة.. لأجد ذلك الكائن الع...
ذي الغلاف الجلدي يقبع هناك في طرف مكتبه..

مددت يدي أتحسس الغلاف الجلدي القديم.. ثم تناولته، ورحت ا...
فيه..

غريب أمر هذا الكتاب.. تشعر معه كأنه كائن مستقل يتنفس وي...
ويفعل.. وليس جمادًا من الورق المصقول المهترئ بين دفتين من ال...
الصناعي ذي الرائحة الكريهة.. كائن يفعل ويقتل ويغوي بالقتل.. الحر...
المنمقة داخله تشبه ألف عين وعين تكاد تلتهم وجهك وأنت تنظر لها!!

حتى عناوين القصص.. هي غامضة تشحن بطاريات الخيال.. ال...
حاول أن يصنع شيئًا يحمل معنى وملمس الخوف.. حتى الخيال مخيف...
الخيال يأخذك إلى مجاهل وأحراش داخل عقلك لم تطأها.. الخيال ...
بك من دائرة الممكن الكئيبة إلى دائرة قد تجعلك ترتجف طالبًا العودة إل...
الكآبة.. لكنه خيال يقتل ويحرض على القتل!! هل كان يقصد ذلك بالفع...
عندما خطّت أقلامه الحبرية مسودة ذلك الشيء..!!

هذه القصة التي تدعى: (إلى العمق)..

تذكرتها.. هي تلك القصة التي كلما أمسكت يداي بهذا الشيء لم
أكملها.. كأن بيني وبينها شيئًا..

*"راح سمير يقترب من سطح الماء الرقراق محاذرًا أن تزل قدما...
فيسقط على وجهه في صفحة الماء الواسعة.. إنه يحتاج أن يعرف السر
ولولا هذا لما اقترب من صفحة ماء في حياته، إنه لا يقرب الحمام في
آخر الحارة ويفضل الاستحمام بذلك الكوز وداخل الطشت الخاوي..
إنه لم يعتد أن يقترب من حديد الكوبري إلى هذا الحد.. ولم يحب النيل
ولا مراقبة صفحته الباردة من فوق سور الكوبري.. لكنه لا بد أن*

... إن النداء أقوى منه.. نداء يسحبه إلى العمق".

انحم عماد الباب.. ثم تناول سترته وطبنجته الميري.. ونظر نحوي..

معلش يا أكرم أنا آسف.. لازم تقوم معايا حالًا

إيه.. مقبوض عليّا ولا إيه؟؟

لا.. في جثة جديدة..

بكتاب ولا من غير..

لا، بكتاب.. هشرحلك كل حاجة في الطريق.. بس انت لازم تيجي معايا.. بالذات المرة دي.

ولازم ليه يعني؟؟ واشمعنى المرة دي!!

كان يوليني ظهره محاولًا أن يضع طبنجته في جرابها.. ثم توقف جسده عن التحرك..

- ما ترد عليّا يا جدع انت لازم ليه.. لهجتك مش عاجباني تمامًا
- ببساطة لأن مكان الجثة الجديدة يهمك جدًا
- ليه يعني.. هو قتل حدّ في شقة خالي ولا في بيت جدّي..
- في عيادة دكتور أحمد سليمان يا أكرم..

* * *

- *أكرم.. أنا هنا يا ابني جنبك*
- *المرسى.. العوامة.. عصام*
- *عصام.. who is that guy؟؟*

* * *

(١٨)

عيادة دكتور أحمد سليمان للصحة النفسية.. السابعة صباحًا

نحن في وسط سيرك..

هذا ما يستنتجه المرء عندما تتخطى قدماه عتبة عيادة الدكتور سليمان وعندما تقع عيناه على تلك اللوحة المعندية الأنيقة المعلقة بجوار الباب.. وقد كتب عليها بحروف حمراء وزرقاء

عيادة د. أحمد سليمان

للصحة النفسية

أستاذ التحليل النفسي بجامعة عين شمس

أمين عام الجمعية الدولية للصحة النفسية

العشرات من رجال الشرطة والبحث الجنائي والبواب والجيران

.. ان العيادة وبائع الجرائد.. ما الذي جاء ببائع الجرائد هنا.. لحسن الحظ الم البطاطا والبصل لما يعرفا بعد بالجريمة النكراء!!

وسط كل هذا يجلس دكتور سليمان عاقدًا ساعديه أمام صدره ونظارته الممة تتدلى من سلسلة فضية على صدره وهو يرتدي ملابسه الرياضية..
.. اه تحلقان في الفراغ غير عابئة بمن يمارسون هوايتهم في تحويل عيادته ملمة المرتبة إلى ساحل أندونيسيا بعد تسونامي..

،فلمت نحوه وجلست على ركبتي لأواجهه، بينما عماد يتفقد الأحوال

عم احمد.. حصل إيه في إيه؟؟

راحت..

هي إيه اللي راحت بس؟؟

سمعة العيادة راحت يا أكرم.. سمعتي العلمية والطبية راحت يا أكرم..

طب صلي عالنبي وقوم معايا بس

ومددت يدي لأعاونه على النهوض فنظر لي تائهًا غير عالم بما يمكنه فعله م راغب في المقاومة حتى..

- عماد.. مفيش مكان فاضي ممكن اقعد فيه مع الدكتور
- وانت يا عبد الباقي خليك مع مصطفى عشان البصمات..
- عماد..
- خش المكتب يا أكرم.. واقفلوا عليكم الباب.. يا علي..

ثم انصرف متابعًا إعطاء تعليماته لرجاله الذين انتشروا كالنمل فوق مساط من السكر..

دلفنا إلى المكتب الأنيق.. وأجلست دكتور سليمان فوق الأريكة الـ...
الوثيرة بينما جلست إلى جانبه وخلعت نظارتي.

- ارتاح يا عم أحمد الله يكرمك

- هم مش كانوا قبضوا عليه يا أكرم؟؟

- ما طلعش هو يا دكتور.. وكيل النيابة أفرج عنه امبارح بضمان ... إقامته والقضية لسه مفتوحة.

- بضمان محل إقامته يعني إيه.. يعني إيه واحد مشتبه فيه في قتل ... والشروع في قتل السادس يفرجوا عنه في قضية ما اتقفلتش ... بلد دي ولا تكية.

- تكية.. بلد.. زريبة.. مش ده موضوعنا.. إنت ارتاح دلوقتي و... نقعد مع عماد لما يخلصوا ونشوف الموقف إيه دلوقتي..

- الموقف دلوقتي إن بيتي اتخرب.. عيادتي اللي كنت بحبها أكتر ... بيتي بقت موصومة طول العمر إن بنت اتقتلت فيها.. تخيل المـ... عمل فيها إيه!!

- الله يكرمك ارتاح بس وبعدين نبقى نتكلم

رفع رأسه وحدجني بنظرة غاضبة..

- في إيه يا أكرم.. هو أنا كل لما اكلمك كلمة هتقولي ارتاح ارتاح

- أنا مش قصدي.. أنا بحاول اخلي أعصابك تهدى

- في حالات الصدمة يا أستاذ يا تحقن المريض بمهدئ يا تسيبه ... طاقته عشان يفوق.. وبعدين انت هتعلمني شغلي ولا إيه

- العفو يا دكتور.. إنت في مقام المرحوم ابويا.. حقك عليا وادي راسك ابوسها.

- اوعى بقه بلا راسي بلا رجلي.

- والنبي عسل يا عم احمد.

بدأت نظراته الغاضبة تتلاشى، ووضع رأسه من جديد فوق الأريكة، وراح يتأمل السقف الأبيض الذي أعاد طلاءه منذ أسابيع.. بينما دقات عماد القوية المتماسكة تداعب الباب، فيطلب منه الدخول ليدلف في هدوء ويغلق الباب خلفه.

- معلش يا أكرم ممكن تسيبنا لوحدنا شوية

- بقولك إيه يا عماد.. الراجل ده زي ابويا بالضبط.. وانا مش هتنقل من هنا إلا لما اعرف في إيه وحصل إيه وازاي أفرجتوا عن البيه وانتو مش عارفين تأمنوا بيوت الناس من شرّه!!

- إنت هتستعبط يلا.. ما انت عارف إني لا بفرج ولا بنيل.. النيابة شافت إن الأستاذ المتهم عنده حجج غياب قوية وإن بصماته مش موجودة في أماكن ارتكاب الجرائم الخمسة وإن مفيش دليل واحد ضده.. تحبسه ليه بقه على سبيل الاحتياط..

ثم جلس على أقرب مقعد وجده، وأخرج لفافة التبغ من علبته الكرتونية وأشعلها في غضب، بينما قام الدكتور سليمان بأغرب عمل ممكن أن يقوم به من في حالته.

لقد نهض مسرعًا وحمل منفضة السجائر من فوق مكتبه، وركض بها نحو عماد ثم وضعها أسفل لفافته المشتعلة، وعماد يحدق فيه ذاهلًا...

- إيه يا عماد بتبصلي كده ليه؟!

- أصل ال.. مش ال...

- هو انا عشان بقية العيادة بقت مزبلة أسيب المكتب اللي فاضل ... هو كمان، وبعدين السجادة دي hand made وطفي السجاير ... يبوظها.. ولا إيه يا أكرم؟

- لا؛ تمام يا عم احمد.. إنت صح مية في المية.

ثم غمزت بعيني لعماد فأومأ متفهمًا، وعلى وجهه تعبير (الدكا... النفساويين بيلقطوا شرارة برضه) الذي لا يكفّ عن ترديده كلما قا... دكتور سليمان!

- دكتور سليمان.. أنا آسف بس احنا مضطرين نفتح محضر ونا... أقوالك.

- ومضطرين ليه.. أنا اللي عايزك تفتح محضر وتاخد أقوالي..

- بس هستأذنك هنطلع على المديرية سوا عشان نكمل التحقيق... هناك.. يا عبد الباقي..

نهضت مسرعًا، ووقفت بينهما وأنا أقول هامسًا لعماد:

- إنت بتستعبط يلا.. هتودي الدكتور سليمان المديرية مع الأمين عبد... الباقي في البوكس.

- الدكتور سليمان على عيني وعلى راسي.. بس هو دخل دايرة المشتبه فيهم دلوقتي.. حسب أقوال الفراش محدش معاه مفتاح العيادة غير... الدكتور سليمان والفراش والقتيلة اللي اسمها سمية...

- أيًا كان.. في حاجة اسمها احترام.. في حاجة اسمها أدب.. طب اعمل حسابي يا أخي...

إنتوا بتتوشوشوا في إيه انت وهو.. ها؟!!

التفت كلانا نحوه.. ثم نظرنا إلى بعضنا البعض في ذلك الحوار العميق الذي تدربنا على ممارسته طوال سنوات معرفتنا العشرين..

ولا حاجة يا عم احمد أنا كنت بحاول اقنع عماد إننا نكمل تحقيق هنا عشان تروح إنت بالسلامة.

أروح فين بس يا أكرم.. أنا هطلع معاكم على المديرية وفي عربية الرائد عماد.. بس أنا لي طلب.. الفراش يركب معانا.. لو سمح عماد يعني..

- طبعا يسمح هو هيعترض ليه يعني..

ثم حدجت عماد بنظرة لائمة، فأشاح بوجهه وألقى باللفافة في قلب المنفضة الكريستالية الثقيلة.. إلا أنه ما إن فعل ذلك حتى جحظت عيناه حتى أوشكتا أن يسقطا عند قدمي.. ثم هبّ مسرعًا وفتح الباب...

- مصطفى عبد الناصر هنا؟؟

- أيوه يا عماد باشا تحت أمرك

- تعالى هنا بسرعة..

ثم فتح الباب على مصراعيه فتقدم رجل، أرجح أنه كان يومًا بطلًا لرياضة السومو؛ من فرط بدانته، حتى أوشكت الدهون حول اصرته وفخذيه على التساقط عن جسده نحو الأرض.. يرتدي معطفًا، ويمسك في يده بحقيبة أدوات صغيرة، بدا مظهرها مع بدانته المفرطة كدبّ قطبي يحمل عروسة باربي!!

- شوف الطفاية دي كده..

- حاضر يا باشا.. بعد إذنك لحظة

ثم جثا على ركبتيه حتى أوشك على السقوط متدحرجًا فوق السـ...
الأنيقة، وأمسك المنفضة بيديه التي غطاهما قفزات مطاطية بيضاء.. وأخـ...
من حقيبته عدة أشرطة لاصقة وضعها فوق عدة أماكن من المنفضة، وراح
يسحبها ويحملها بحرص نحو كيس بلاستيكي صغير.. ثم أخرج عد...
مكبرة وراح يقلب المنفضة في يده، وهو يتابعها بالعدسة ثم...

- آها..

خرج صوته ناعمًا طفوليًا كصوت ابن أخيك على أعتاب مراهقته
فتقدم عماد منه متابعًا:

- إيه؟؟

- نقطة دم صغيرة أوي أوي دخلت في خرم صغير جدًّا في قعر
الطفاية..

- أنا اللي بصري بقه حادّ شويتين اليومين دول.. حرَّز يلا بسرعة..

وضع منفضة التبغ في كيس بلاستيكي صغير.. ثم وضعهم جميعا في
حقيبته الصغيرة الشبيهة بحقيبة الماكياج.. ونهض بدون أن يساعده أحد - يا
للغرابة - ثم خرج مسرعًا

- في إيه يا عماد.. الأستاذ الخفيف ده كان بيعمل إيه؟

- أنا هقولك يا عم احمد.. عماد شك في الطفاية إنها تكون أداة الجريمة..
فا نده الأخ يوكوزونا (مصارع قديم اشتهر ببدانته) عشان يشوف
شغله ويحرزها..

- أنا فاهم يا أكرم.. بس هو خد بصمات من على الطفاية.. اللي هي
بصماتي أنا وعماد بس.. يعني مفيش فايدة منها.. إلا إذا...

ثم قلب نظره بيني وبين عماد، ثم تابع - وهو يشيح وجهه ناحية صورة

ـ ١م ة له ولوالدي رحمه الله في صدر الحائط المواجه لمكتبه ـ :

إلا إذا كان الرائد عماد حاططني في دايرة الشبهات.. مش كده يا سيادة الرائد؟!!

- يا دكتور سليمان.. أصل الموضوع...

- لا؛ ما دام قلت أصل تبقى خلاص.. عموما أنا صاغ سليم يا سيادة الرائد..

- يا دكتور أنا مش قصدي بس..

- لو كانت الجريمة دي وقعت بين معاد فتح العيادة امبارح الساعة ٧ مساء والساعة ٥ صباحًا لما الفراش اكتشف الجثة فا انا كنت في الوقت ده في مستشفى الدكتور حسن شوقي الساعة ٨ بعمل فحوصات وأشعة، والساعة ١٠ كنت على قهوة الليالي في عين شمس، والساعة ٣ صباحًا كنت في شقتي، وبواب العمارة شافني.. وبما إنه بيسهر لحد الفجر وبيروح يصلي فا بخليه يخبط عليّا يصحيني، وبننزل نصلي الفجر سوا، وبعدين بروح نادي الشمس امشي شوية.. أظن الإخوة بتوع القسم لما جابوني كنت في النادي.. كده حجج غيابي قوية يا سيادة الرائد؟؟

نظر عماد نحوي مستغيثًا من الهجوم المنظم المفاجئ من الدكتور سليمان، بينما ربتّ أنا على كتفه محاولًا تهدئة توتره وتأبط ذراعه وهو يحاول التملص..

- إنت واخدني ورايح فين؟!!

- اصبر بس يا عم احمد.. أنا هاخد الدكتور سليمان نشرب حجرين واتنين قهوة، واحصلك على المديرية يا عماد.. يلا بينا يا عم احمد..

- استنى يا ابني.. هسيب الشقة كده واروح اشرب حجرين!!

- الفراش ما هو هنا معاهم.. وبعدين كده كده هيقفلوا الشقة و[illegible] عليها حراسة لحد ما يخلصوا رفع البصمات والأدلة والنيابة [illegible] لسه موال كده.. يلا بس..

ثم اقتدته مرغمًا، وهو يبرطم بكلمات غامضة متخبطة نحو باب ال[illegible] لنجد ذلك الفراش محاطًا بستة من رجال عماد الشبيهين بدوالايب ال[illegible] القديمة.. حتى ظننت أن أحدهم سيخرج بطانية شتوية من فمه، و[illegible] يولول طالبًا العون من دكتور سليمان.

- الحقني يا دكتور.. هما هياخدوني على فين؟

- ما تقلقش يا حلمي.. كلمتين صغيرين مع حضرة الضابط [illegible] المديرية وهيروحوك.

- يا دكتور هي الناس دي بتعرف كلمتين ولا تلاتة

ثم نظر نحو الدوالايب البشرية المحيطة به، فقال دكتور سليمان - و[illegible] يقلب وجهه بينه وبينهم -:

- لا ما تقلقش الرائد عماد مأكد عليا إن محدش هيكلمك ولا هيمس[illegible] بسوء لحد ما تروح بيتك للست والدتك.. تمام يا حضرة الرائد؟

ورفع صوته في الجزء الأخير من الجملة فأجابه صوت عماد الجهوري:

- ما تقلقش يا دكتور الأخ حلمي في عينينا.. يا عبد الباقي الأخ حلمي هيجي معايا في العربية لحد المديرية.. خده واستنوني تحت..

ابتسم الشاب النحيل - الشبيه بذلك البرص الذي يمرح في حوائط شقة جدي في القلعة - ونظر إلى الدكتور سليمان نظرة شاكرة مهللة، لمعت فيها عيناه الصغيرتان أسفل حوض السمك الذي يرتديه فوقهما.. بينما قُدت دكتور سليمان نحو مصعد البناية الأنيقة وهو يحاول ملء الوقت بكلمات

ومنة عن الفتاة المحترمة النشيطة التي كانت خير معاون له، ثم حولها هذا القاتل المجنون إلى رقم في سجلات جرائمه المتكررة.

بس عارف يا أكرم.. في حاجة محيراني في الموضوع بتاع الأخ ده

حاجة إيه يا عم احمد؟؟

- في الأول لما اكتشفوا الجثتين.. الجريمتين وقعوا مع بعض في نفس الوقت أو في وقت قريب من بعضه أوي حسب تقرير دكتور أحمد علام.. وبعدهم بكام ساعة الجريمة الثالثة.. وبعدهم بكام ساعة الرابعة.. ثم الخامسة، وهكذا.. وبعدين فضل يومين خامل وما بيشتغلش.. آسف يعني لو كان تعبير ما بيشتغلش مقرف شوية..

- لا ولا يهمك.. بس عادي يعني ممكن يكون حس إن الموضوع في ناس شغالة عليه وإن ممكن تحركاته السريعة دي تكشفه بسرعة للشرطة، فا قال في نفسه إنه لازم يهدئ شوية..

- أو حاجة تانية ممكن تكون هي اللي بتحركه!!

- تقصد إيه يا دكتور مش فاهم؟!

كنا قد اجتزنا بوابة البناية الأنيقة عندما أخرج دكتور سليمان مفاتيح سيارته اللادا، واتجه نحو السيارة وهو يهمهم:

- الناس اللي زي دي بيبقى سلوكهم صعب التوقع شوية لكن مش مستحيل.. وغالبًا بيبقوا محبين أوي للشهرة والأضواء والأخبار اللي بتعلق على ذكائهم اللي دوخ الشرطة.. هو إيه اللي بيزن ده؟؟!!

- بيزن.. آه ده موبايلي غالبًا الفايبريشن بتاعه قوي حبتين، أو ما شاء الله ودانك اللي بقت حساسة حبتين..

- الله أكبر.. غحنا ناقصين.. طب رد وخلصنا من الدبور ده..

أخرجت الهاتف من جيبي لأجد عماد يتصل للمرة الثانية في د...
فأجبت سريعًا..

- إنت ما بتردش ليه يا بني آدم؟!!

- في إيه يا عماد.. ما انا كنت لسه جنبك فوق.. إحنا هنتحرك آهو ..
المديرية..

- لا ما تطلعش على المديرية.. عايزك في المشرحة في خلال نص سا...
بالكتير.. وتعدي على الجرنان بتاعك تجيب مصور.. عايز هليله ...
المشرحة..

- في إيه يا عماد.. إيه اللي غيرك فجأة كده؟!!

- اسمع اللي بقولك عليه وانا هفهمك بعدين..

- عماد.. أنا ما بحبش كده.. فهّمني حصل إيه بالضبط.. وبعدين م...
في حظر نشر؟! إنت عايز توديني في داهية!!

- حظر النشر هيتلغي بعد كام ساعة يا أكرم.. اللي حصل من خم...
دقائق بالضبط هيغير كل حاجة في القضية المهببة دي.

- وإيه اللي حصل من خمس دقائق.. قبضتوا على القاتل الفعليّ.

صمت عماد ولم يجب، وأنا أنتظر إجابته خارج السيارة، بينما دكتو...
سليمان يحاول إدارة محرك السيارة العتيقة.

الصمت طال فعلًا حتى جاوز الثواني العشر..

- عماد.. ما ترد عليا يا جدع انت..

- في جثة جديدة في الشروق يا أكرم.. مدرس ابتدائي لقوه في شقته ...
إسكان الشباب وحالته كانت غريبة شويتين..

- غريبة إزاي، مش فاهم؟!

الجثة بتاعته كانت مشوهة تقريبًا، ولقوا جنبه الكتاب إياه.. وحاجة كمان..

- حاجة إيه؟!!

صمت قليلًا وتحشرج صوته، وهو يجيب:

- لقوا جنبه جثة أسد.. أسد يا أكرم!!

* * *

- عصام.. مش ده الولد اللي..

- أيوه هو.. بس ليه اسمه هو بالذات..

- الظاهر إن أكرم يعرف حاجة احنا لسه ما نعرفهاش..

- هيدروفوبيا.. العوامة..

* * *

(١٩)

مشرحة كلية طب القصر العيني... الثانية والربع ظهرًا

- Sorry يا دكتور علام.. I don't mean to be aggressive .. بس الحالة واضحة.
- إزاي يا آمال.. الحالة ممكن تحصل مع أي تسمم تاني.. سيانيد أو سارين.
- No way .. السارين كان هيجيب إسهال وdehydration واضح.. لكن البنت كان جسمها دافي والقرنية زي ما انت شايف partially damaged في حالات السارين كنا هنلاقي القرنية مقفولة، وهنلاقي excretion كتير تحت مناخيرها.

عماد يقرب رأسه مني هامسًا:

- إيه الكلام الكبير ده؟؟!!

- ده البرنامج الأوروبي.. ما تشغلش دماغك انت.

ثم التفت من جديد نحو دكتور علام ودكتورة آمال، وهما مستمران في جدالهما العلمي والأحرف اللاتينية تتطاير من بين شفاههم المتوترة كسحرة القرون الوسطى.. وراحت المبارزة تتطاير شرارها ما بين الفارسين حتى استسلم كتفا الدكتور علام وتراخا ذراعاه إلى جوار جزعه..

كان عرفة - مصور جريدتنا الشاب - بصحبة ولاء، قد رحلا منذ دقائق بعد أن التقطا كل الصور الممكنة، وعقدا كل الحوارات الممكنة حتى مع طاولة الفحص المعدنية.. لا أدري ماذا سيفيدنا ذلك إذا كان حظر النشر لم يرفع بعد!!

فلنواصل البثّ التفصيلي لنتيجة هذه المباراة القوية في دوري أبطال السموم..!!

- عمومًا إنتي المتخصصة هنا.. بس الناتج النهائي إن البنت جالها فقدان بصر فعلًا قبل ما يضربها على راسها بالطفاية.. نقطة الدم اللي دخلت جوه شقوق الطفاية كان من نفس فصيلة دم البنت.

- مش فقدان بصر وبس يا دكتور.. تقريبًا كمان إرادتها كانت مسلوبة، وجسمها كان عامل زي - سوري - السفنجة اللي بتفضّي كل ميّتها.. غير كمان إن أملاح جسمها حسب تحليل الدم totally unbalanced دي حالة تسمم واضحة بال Calotropis procera.

عماد يرفع يده في الهواء كطالب فاشل في كلية العلوم.

- سوري يا دكتورة آمال.. ممكن حضرتك تعيدي الحتة دي تاني..

- قال يعني فاهم كل حاجة وجت على دي اللي مش فاهمها!!

- بس يا أكرم احسن وربنا أشقك نصين..

دكتورة آمال تخلع نظارتها الطبية الأنيقة، وتلوح بها في يدها نحو ا
الجثة التي كانت فتاة منذ ساعات..

- حالة تسمم بالمادة اللبنية اللي جوه نبات البروسيرا يا حضرة الرائد
ده سم مش شائع أوي، وحالات التسمم بيه نادرة جدًا.. لكن
ملامسة المادة دي للجلد فترة طويلة ممكن يسبب التسمم ده
واضح في إيدها إن الجلد محمرّ شوية في منطقة تلامس السم ليها.

- حضرتك تقصدي إن السم ده ممكن يكون موجود لحدّ دلوقتي في
عيادة دكتور سليمان..

- No no .. الموضوع مش كده يا رائد عماد.. الموضوع إن السم ده
اتنقلها من ملامسة حاجة مدهونة بالمادة اللبنية دي فترة طويلة
حاجة زي فرشة شعر أو علبة make up أو..

ثم صمتت قليلًا ونظرت نحوي، فتابعت وقد وصلتني وجهة نظرها.

- أو كتاب مثلًا.

- Bingo

ثم كشفت عن صف أسنانها اللؤلؤي في ابتسامة مرهقة سعيدة باكتشافها
العبقري، وكأنها طالبة في الإعدادية حلت مسألة حساب معقدة.. بينما
دكتور علام يشعل لفافة تبغه الخامسة في ربع ساعة متابعًا..

- الأعراض فعلًا زي ما دكتورة آمال بتقول.. الفرق إن الوفاة كانت
نتيجة الضربة القوية بالطفاية على راسها.. الضربة جابت تهتك في
المخ بعد ما طبقت الجمجمة.. متأسف على تعبير طبقت، بس انا
حاولت اوصلكم الصورة ببساطة.. مش عايز سيجارة يا أكرم.

- لا يا دكتور تسلم.. أنا قررت ابطل دخان فترة لحد ما صحتي تتحسن شوية..

- وبعدين ترجعله تاني.. عارف انا الكلام ده كويس.

ثم أطلق ضحكة عصبية متوترة، واللفافة تتدلى على طرف فمه وهو يحاول خلع القفازات المطاطية وهو يشير لنا؛ كي نصحبه إلى مكتبه في طرقات الكلية المزدحمة.. حتى ما إن وصلنا للمكتب حتى استقبلنا دكتور سليمان وعلى وجهه أمارات فزع غير مبرر..

- إيه يا دكتور احمد مالك؟

- أنا ما بحبش القعدة لوحدي في مكان مقفول يا عماد.. وبعدين انتو اتأخرتوا أوي.

- طب يا عم احمد ما انا قولتلك تعالى معانا المشرحة..

- لا يا سيدي.. أنا استحمل القعدة في الأوضة المقفولة ولا استحمل قطع غيار البني آدمين اللي بينتجها الراجل ده..

ابتسم دكتور علام واللفافة السوبر الطويلة لا تزال تتدلى من طرف فمه، فبدا كجزار محترف انتهى من تشفية جمل عملاق.

- ما هو انت لو دخلت طب كنت نشفت شوية.

- يا سيدي أنا مش عايز انشف.. أنا راجل بتاع تحليل نفسي مش جزار في مدبح.

- الله يسامحك يا سيدي..

أطلقت دكتورة آمال ضحكة ساخرة لا تناسب توتر الجو السائد بعد عودة ذلك السفاح لممارسة هوايته في قتل الناس بكتابه المشئوم.. بينما جلس

دكتور علام خلف مكتبه الخشبي العتيق.

- ودلوقتي يا حضرة الرائد الوضع بقى شبه مفهوم.. الأخ ده مش بيستخدم مهاراته وذكاؤه في تضليلنا.. لا وكمان خبير سموم محترف..

- As you said يا دكتور أحمد.. سيانيد وبروسيرا وجرعة البيلادونا إتروبينا المزبوطة بالميكروميللي.. ده مش بعيد يكون درس معانا في الكلية في وقت من الأوقات.. very weird.

- وفي حاجة كمان يا آمال.. دكتور سليمان لفت انتباهي لحاجة صغيرة جدًا قبل ما ندخل المشرحة..

التفتنا جميعًا إلى دكتور سليمان الذي بدا محرجًا قليلًا وهو يحاول أن يضبط نفسه في موقع المحور الذي ينتظر ملاحظته الجميع.

- يعني من واقع معرفتي بالسلوك النمطي للإخوة القتلة اللي زي أخينا ده.. طريقة القتل تقريبًا في كل مرة كانت بتتشابه.. ما عدا حالة سواق اللوري المشنوق؛ لأن دكتور علام مالقاش أي حاجة في دمه أو في جسمه غير أعراض الوفاة بأسفسيكا الخنق.. الطريقة بقه كانت بتتم في مكان مقفول أو مهجور.. القتل بيتم بنمط الطريقة بتاعت العلاج التطهيري من الفوبيا.. ولازم قبل القتل حقن السم أو المخدر أو المثبط.. وغالبًا طريقة القتل بتبقى نضيفة شويتين.. عدا جريمة البنت اللي كانت في المشتل وجريمة البنت دي.. كلامي صح يا دكتور علام؟!

- عدا الجريمة الجديدة يا دكتور سليمان..

دكتور علام يرفع إبهامه علامة عن التأييد، وعيناه لا تفارقان جهاز

الكمبيوتر الذي ينتمي للعصر الطباشيري محاولًا كتابة تقرير تشريح الجثة بطريقة النقرة كل دقيقة.

- في جريمة البنت سابها تنزف لحدّ الموت وهو غالبًا عارف إن عندها مرض لويس بار بتاع ضعف الشرايين، وفي الجريمة دي ضرب البنت بطفاية عملّها تهتك في مخها، وسابها تنزف ونضف الطفاية بحرص أوي.. يعني ما كانش عايز العيادة يحصلها حاجة، لكن قتل البنت بطريقة عنيفة شويتين.. حقنة الموت والرمي من الدور الرابع والسيانيد كلها طرق موت تعتبر لحد ما نضيفة شوية.. سيبك من دبح القطة في جريمة المحامي اللي مات بالسيانيد.. بس سلوكه بدأ يبقى عنيف أوي كمان مع الراجل اللي طلق عليه الأسد.. وده في رأي إن دل على شيء فهو يدل على حاجتين..

ثم فرد كفّ يده أمامنا كعادته وراح يكمل محاضرته المفيدة..

- القاتل ده عنده علاقة وثيقة جدًّا بالبنتين أو هو مصاب بنوع ما من العقد ناحية الجنس الآخر..

- بس اللي مات في الشروق راجل مش ست يا عم احمد.

- ما تقاطعنيش يا أكرم عشان هسكت خالص.

- اسكت يا نيلة انت هي ناقصاك.. كمل يا دكتور سليمان لو سمحت..

- شكرًا يا عماد.. الراجل اللي مات في الشروق بالطريقة البشعة اللي حكهالي أكرم بتقول إن برضه ده خروج عن سلوكه المعتاد في القتل بشكل نضيف شوية.. بمعنى إن الراجل ده برضه له علاقة كبيرة جدًّا مع القتيل، وبينهم حاجة حولت القتيل في إحدى مراحل المرض النفسي للقاتل إلى عدو شديد الكراهية بالنسبة ليه.. ممكن

يكون السبب في فقدانه حاجة عزيزة عليه أو حد من معارفه اتسببله في أذى.

- إحنا بدأنا نحصر معارف القتيل يا دكتور فعلًا.. ومستنيين الجثة بس تجهز للتشريح ودكتور علام يقولنا رأيه في الموضوع..

جرس الهاتف الداخلي للدكتور علام يرن طالبًا ردّه، فيرفع الرجل السماعة.

- آلو.. وصلت.. طيب جهزولي طاولة الفحص التانية.. لا؛ أنا جاي لوحدي.. عايز تحليل الدم وعينة من الأنسجة المتهتكة و.. لا لا.. محدش يمد إيده لحد ما اجيلكم.. سلام.. معلش يا جماعة هستأذنكم محدش هيجي معايا المشرحة المرة دي.. الجثة تقريبًا متهتكة من الراس للجذع، وفي اتنين مساعدين هناك وعايزة شغل كتير أوي.. هديلك تليفون يا سيادة الرائد أول ما اخلص.. بعد إذنكم.

ثم انصرف على عجل ولفافة التبغ السوبر لا تزال بين أصابعه!!

هنا قررت دكتورة آمال أن المولد انفض، فوقفت تضم دفتي شالها القطني الملون فوق رقبتها وقالت:

- اوك أنا كمان لازم امشي.. لو في أي حاجة جديدة كلموني.. باي.

ثم انصرفت في مشيتها الوقور المرحة في نفس الوقت، بينما عماد يميل على رأسي:

- شيك أوي الست دي.. هي عندها كام سنة؟!

- آه يا سفاح النساء يا منافق.. مش كانت مدايقاك من كام يوم، وكنت ناقص تضربها رصاصتين.

أنا.؟؟!! بالعكس أنا ما كنتش مدايق منها.. طريقتها ساعتها ما كانتش عجباني بس..

- اطمن هي عندها حاجة واربعين سنة يعني تقريبًا أكبر منك بكام سنة حلوين كده.

- يا خسارة..

ثم أعاد رأسه للوراء وهو لا زال يحدق في الباب الذي انصرفت منه الدكتورة آمال منذ دقيقة، بينما نظرت نحو الدكتور سليمان الشارد في ملكوت الله كمجاذيب الحسين.

- سرحان في إيه يا عم احمد؟؟

- ها.. لا ولا حاجة.

- إيه.. عاجباك انت كمان؟!

- هي مين دي اللي عاجباني؟!

- لا؛ ما تاخدش في بالك.. سرحان في إيه بجد؟؟

مدَّ ساقيه أمامه ووضع أصابعه تحت ذقنه وعيناه تضيقان كعين ثعلب عجوز يدبر هجمة جديدة على عشة دجاج ممتلئة.

- فاكر لما كنت بقولك إن سلوك الإخوة السفاحين ده بيبقى معجب بالشهرة والأضواء وكنا بنتكلم عن تباعد المدد الزمنية بين الجريمة الخامسة والجريمة الجديدة بتاعت سمية.

- آه فاكر.. بس انا مش شايف تباعد يا دكتور، دول كلهم كام يوم.

- لا يا أكرم.. لما اقتل خمس أشخاص في ٤٨ ساعة وبعدين اعدي ٤٨ ساعة كمان، واقتل شخصين ورا بعض في ظرف ست ساعات..

يبقى ما تقوليش إن دي صدفة..

- إنت قصدك إيه يا عم احمد، مش واصلني دماغك.

صمت قليلًا، وراح يحدق فيّ، بينما عماد يردد من خلفي:

- كلام دكتور سليمان صح يا أكرم.

- إزاي يعني يا أذكى اخواتك انت؟!

- أمّال انا طلبت منك مصور وهليلة ليه يا أكرم.. عشان اتسببلك في أذى وفي حظر نشر مثلًا.. الموضوع بمنتهى البساطة إن احنا عندنا ناس برضه بتشغل مخها في الداخلية.. ولما درسوا الموضوع فهموا اللي وصله دكتور سليمان دلوقتي.. عشان كده قولتلك تعالى، ومعاك المصور واعمل كل اللي تقدر عليه؛ عشان جرايد بكرة اللي تنزل الشارع النهاردة يبقى فيها أخبار عن جرائم سفاح الفوبيا، وبالتفاصيل.. فا قولت أكرم أولى من الغريب.. واهو نبقى عوضناك عن الحركة القرعة اللي فاتت.

- المفروض بقه إن عينيا تدمّع واقوم اخدك حضن مطارات بقه..

- يلا ياد يا وسخ قوم غور..

ثم نصب قامته الفارعة المدججة بالعضلات وسوى سترته.

- وانا هتوكل على المديرية اشوفهم عملوا إيه.. أحب اقولك إن الجريمة الجاية هتتأخر شوية والمناورة دي هتعمل شغل حلو أوي.. آه قرار رفع حظر النشر هيصدر كمان كام دقيقة.. لو نزلت الخبر على الموقع يبقى كويس أوي عشان نكسب شوية وقت.

- وجاي تقولي دلوقتي..

ثم تركته يصافح دكتور سليمان ورحت أطلب رقما ولاء على هاتفي المحمول مسرعًا

- أهلا يا سبع البرومبة.. اؤمر يا حبوب.

- إنتي يا بت.. هو انا متجوزك عرفي.. ما تهدي عليا شوية.. اسمعيني بقه وركزي كده.

- ركزنا يا سيدي.

- عايزك بقه تُبدُري الموقع بتاع الجرنان أخبار عن موضوع سفاح الفوبيا ده.

- سفاح الإيه يا اخويا؟!!

- سفاح الفوبيا.. مع كلمتين بقه من انفراد وحصري واللاذي منه ده.. وتكتبي ترقبوا عدد الغد وتحقيق خاص بالصور.. الكلام ده هتنشريه في ظهر خبر رفع حظر النشر اللي هيجيلك من أنباء الشرق الأوسط كمان عشر دقائق.

- ولا يا أكرم.. إنت اشتغلت مع المخابرات ياد وانا ما اعرفش؟!!

- لا مع المباحث.. واكتمي خالص بقه واعملي اللي بقولك عليه.

صمتت قليلًا ثم قالت:

- أكرم.

- خير يا ولاء.

- هو الوقت مش وقته خالص.. بس انا عايزة اقولك على حاجة مهمة..

- خير يا ولاء خلصي.
- أنا بحبك.
- إيه.. نعم.. ايه..؟؟..!!
- بحبك.. بحبك.
- الله يخرب بيت سنينك.. امشي يا ولاء.. امشي هبقى على بعض، إزاي بقية اليوم حرام عليكي.

أطلقت ضحكة عالية مجلجلة ثم أغلقت الخط في وجهي على صوت ضحكاتها الفرحة فرحت أحدق في الهاتف مبتسمًا.

هل سمعتك يا ولاء تردّدينها أم أنني كنت واهمًا.؟؟!!

منذ أن وطئت قدماك الصغيرتين باب الجريدة وأنا لم أستطع يومًا أن أغلق ذلك الباب الذي فتحتيه يوم أن صدمت كشافات عينيكِ عيناي المجهدة المختبئة خلف النظارات الطبية.. راحت عينيكِ تجوبان أصابعي بحثًا عن قيد فضي يقف حائلًا بين عينيكِ وبين اختراق روحي الهائمة في فراغات الدنيا.. لفت نظرك ذلك اللون الفاتح لجلد بنصري الأيمن، فكادت عينيكِ تفضحك من سؤالك عن السبب الذي جعلني أفك قيدي الاختياري.. لم تتوطد معرفتنا قليلًا حتى كنت أنا البادئ بالحكي.. كنا معًا ثم في يوم ما لم نصبح معًا.. هكذا كانت الحكاية.. عندها فقط انفرجت أساريرك ورحت تمشطين بيدك خصلات شعرك المموج وأنتِ تراقبين تلك السمكة الملونة، وهي تسبح سعيدة في حوضها الزجاجي الرائق.. وعيناك تختلسان النظرات إلي فتجديني أرتكب الفعل نفسه.. يومها عرفت فقط أنني أهيم بك.. لكن عقلي لم يقوَ على إصدار ذلك الأمر للساني كي يقولها.. لكنك كنت تفهمين حين أتصنع أمرًا هامًا كي تخطو عتبتي باب

ميدان التحرير.. فقط لأرى شعرك المموج الحائر وعينيك العسليتين تحدقان في بتلك النظرة التي تصرع كل فرساني وتلقي بي في غياهب سجونك..

*كم جئتُ ليلى بأسباب ملفّقة ** ما كان أكثر أسبابي وعلّاتي*

فقط لأكتشف في بحر شرودي في كلمة ولاء - التي زلزلت كياني - أن دكتور سليمان يربت عليّ..

- إنت يا أخينا.. المكالمة دي كان فيها إيه خلاك تسرح كده..

- لا ولا حاجة يا عم احمد.. ده انا سرحان في القضية بس..

- قضية.. ياد ده انا مربيك من وانت عيل في اللفة..

- عديها بقه يا عم احمد.. مش يلا بينا.. ولا احنا لازم نعمل زي الحاج فهمي حبيب، ونبقى آخر ناس نروح بعد الفيلم ما يخلص.

- الله يرحمه كان يكره الزحمة عَمى.. يلّا.. أيام.

ثم مشى بجواري ونحن نقطع طرقات القصر العيني نحو سيارته المتوقفة في ساحة كبيرة يسيطر عليها أحدهم محولًا إياها لساحة انتظار مجانية ظاهريًا، لكن أسعارها تنافس أسعار المولات الفخمة!!

نقترب من سيارته، وذلك الأخ الذي يرتدي بنطالًا من الجينز المرصع بأفخر أنواع الرسوم الغريبة والكرمشات - التي يسميها بعضهم موضة العام - وقد تحول لونه عند الفخذ والركبة إلى لون أبيض صريح، كما تقتضي موضة عشر سنوات مضت.. يزينه قميص بلون فزدقي موشى برسوم بلون أحمر فاقع، جعلته ينافس في أناقته أكبر مهرجي السيرك الروسي!!

- اتفضل يا دكتور اتفضل..

- بقولك إيه يا عم احمد.. سيبني انا هسوق.. إنت ما نمتش كويس..

- زي ما انت شايف.. وبالمرة اخلص من ذبابة الفاكهة.

أدرت المحرك العتيق الذي صنعه الروس بكل طاقتهم التي تربت وسط ثلوج سيبريا.. وذلك الأخ يضع أنفه فوق زجاج النافذة.

- اؤمر يا باشا

- الأمر لله.. اؤمر انت..

- اللي تجيبه سعاتك ولا مؤاخذة.

- طب خد.

ومددت يدي له بجنيهين فضيين فراح يحملق في يدي بعزة نفس تضاهي كبرياء حلاق الأمير تشارلز..

- لا كفين مريم ولا مؤاخذة.

- الترجمة بقه امتى.

- عَشَة جنيه ولا مؤاخذة.. الساعة هنا بخمسة جنيه.

- آه عينيا.. والنبي يا دكتور هات الموبايل نكلم الرائد عماد بس يبعتلنا الأمين عبد الباقي بفلوس عشان معيش فكة.

- لا مؤاخذة يا بيه.. عماد بيه حمدي اللي كان في مباحث قصر النيل.

- آه.. ده هيفرح أوي إنك عرفته.. خصوصًا بعد ما اتنقل المديرية.

ثم طلبت رقم عماد بالفعل وعندما أجاب..

- عمدة

- عايز إيه يا أكرم.. أنا عند مدير الأمن.

- لا؛ بس كنت عايزك تبعتلي الأمين عبد الباقي الساحة اللي جنب

القصر العيني عشان يدي الواد السايس عشرة جنيه.

إنت اتهبلت يا أكرم بقولك عند مدير الأمن.. اقفل بدل ما اجي اطلع...

ماشي يا عماد باشا شاكرين أفضالك.. يلا في أمان الله..

ثم أغلقت الخط لتصدمني ضحكات الدكتور سليمان المجلجلة..

بينما ذلك الأخ الذي كان يطلب كفي مريم قد اختفى كأن لم يكن..!!

❋ ❋ ❋

- عماد.. بسرعة الحقه قبل ما يخلص يا ابني.. العوامة يا عماد.

- وعرفت منين موضوع العوامة؟؟

- أكرم.

- هو فاق؟!!

- من ساعتها مفيش على لسانه غير عصام.. العوامة.. هيدروفوبيا..

- يا ابن اللعيبة يا أكرم..

❋ ❋ ❋

حاشية لا بد منها

"وطبعا كلكم عارفين إن اللي مش هيحلّ الواجب صح هيشرّف جنبي هنا في ركن الفصل ووشه للحيطة، عشان يبقى يفتكر كده وهو سايب الواجب وقاعد بيتفرج على المسلسل التركي جنب امه إن واجب الحساب أهم من أن عدنان عرف إن مهند بيخونه."

تحاول دائمًا أن تبدو قاسيًا يا محسن..

تحاول أن تحافظ دائمًا على صورتك القاسية المستبدة.. الأستاذ محسن عبدالقوي.. الثلاثيني الأرمل.. القاطب الحاجبين دائمًا.. مدرس الحساب الذي زهد كل شيء في الدنيا سوى تربية النشء وتعليمه على أحدث طرق التعليم من صفع وركل وسب ولعن.. متمسكًا بعصاتك الطويلة النحيلة كلما رحت أو جئت.. مربّتًا على ذلك الكرش الصغير الذي نبت من كثرة أكل الفول والخبز وقلة المشي والحركة..

كثيرون حاولوا أن يثنوك عن طريقتك التي يصفونها بالقاسية المستبدة في معاملة الطلبة.. لكنك دائمًا ما تلقي محاضرتك الطويلة العصماء على مسامعهم، إن هذا النشء الصغير لا بد أن يعامل بقسوة حتى يشتد عوده ويصبح قادرًا على ممارسة مهمته في بناء ورفعة هذا الوطن.. لو تركناه للمسلسلات التركية وألعاب الإنترنت لفسد الوطن وتحول إلى زريبة، كما هو على وشك التحول لها الآن..

تتذكر كلماتك القاسية الصادمة وأنت جالس في هذا الميكروباص المنطلق بسرعة مائة كيلومتر في الساعة على الطريق الدائري من مدينة السلام - حيث تلك المدرسة الابتدائية البائسة - إلى إسكان الشباب في الشروق حيث تقيم.. تتذكر الكلمات فتغلق عينيك في استمتاع وكأنك شاعر حالم وتلوك مذاقها الحنظلي في فمك فتمنحك هذه المرارة دفعة قوية نحو الحياة

تهبط من الميكروباص في صعوبة وأنت تجرّ ساقيك جرًّا نحو المنزل حاملًا جريدتك تحت إبطك.. جريدتك التي تحلم بفض وثاقها منذ الصباح وأنت تجلس على المائدة الخشبية البالية تقرأ أحرفها بينما يدك الأخرى تتسلى بنفض الماء عن أوراق الخس الناضجة وأسنانك تلوك ما تيسر منها..

تفتح باب شقتك الصغيرة ذات الأمتار المربعة الستين، وتجول بعينيك

ما بين قطع الأثاث.. هناك على الحائط تنتصب صورة حميدة.. الفلاحة المروية البسيطة، يزين طرفها شريط أسود قاتم.. ثم تعود عيناك إلى الأثاث الذي تهالك معظمه.

- كده برضه يا حميدة.. تسيبيني لوحدي وانا ما بعرفش اعمل كوباية شاي.. أنا كان عقلي فين لما اتجوزتك.. واحدة فلاحة ما بتعرفش تفك الخط، وماهاش غير في تزغيط البط.. والله تنفع مطلع قصيدة يا محسن.. واحدة فلاحة ما بتعرفش تفك الخط وماهاش غير في تزغيط البط، لما تيجي القاهرة العامرة لازم يجيلها سرطان وتموت.. خَرَجْت من المية يا سمك فلازم تموت.. يلّا.. الله يرحمك ويعفو عننا جميعًا..

تجلس بثيابك فوق المقعد الذي فسدت أحد أرجله فصار يصدر أصوات استغاثة مستديمة، كلما وضعت أثقالك عليه.. وتفض وثاق جريدتك القومية المملة.. تقلب الصفحات وتمد يدك الأخرى بحثًا عن حزمة الخس لتجد فقط أنك نسيت الخس اليوم، ولم تمر على سوق الخضار!!

ترفع وجهك إلى الصورة فتتذكر كيف كانت حميدة لا تنسى.. كيف كانت ترتدي وشاحها الأسود وتهبط مترجلة إلى ذلك السوق في نهاية المساكن لتحضر الخس والطماطم والخيار والدجاج.. وتفاصل البائعين وتنتقي أكثر الخضار نضرة وجمالًا.. فلاحة ميت الحبش التي لا تجيد نطق اسمها كاملًا تجيد الحساب أفضل منك يا أستاذ الحساب!!

- طب قوليلي انتي كنت هعمل إيه.. أنا راجل على قد حالي.. ما بديش دروس خصوصية عشان محدش يكسر عيني.. وانتي مرضك كان متعب أوي يا حميدة.. أجيب منين كل ده عشان الحقن والكيماوي والأشعة.. كل اللي حيلتي كانو ٧٠٠ جنيه يادوب فاتحين البيت

ومقضينا.. طب اسألي اخوكي عصام.. لا؛ أخوكي عصام ما كا..
هيفهم حتى لو دكتور يا حميدة.. اسألي اخوكي هيثم.. اسأليه الفه.
والعوزة بيعملوا إيه.. أخوكي عصام طلع فيا أوي لما قولتله انا م..
قادر على علاجها ولينا رب اسمه الكريم.. طب ما هو كان عا..
ابيع القراطين اللي حيلتي واصرفهم على علاجك يا حميدة.. طب ..
انا حاولت وما حدش رضي يديني فيهم سعر.. كل من عرف انا ..
عوزة بقى ببيع ويشتري في.. وانا ما حلتيش غيرهم.. يرضيكِ ابو..
ورث ابويا بالبخس؟؟.. ولما قالي انه يعرف دكتور كبير هيساعد..
ناخد علاج على نفقة الدولة مجاني قولتله لازم نحاول.. إنتي ب..
اللي لما قولتيله على موضوع القيراطين كش فيّ وشتمني.. يرضيك..
اخوكي الكبير يشتمني يا حميدة؟؟ أنا كنت هعمل إيه يعني؟؟

عيناك تلمع يا محسن من جديد.. عيناك التي حبست دموعها أربعين يوما منذ أن رحلت حميدة.. أربعون يومًا وأنت تردد نفس القصة أمام صورتها المنتصبة فوق ذلك الحائط الذي بدأ بياضه في التشقق.. إن الحائط حزين على حميدة يا قاسي القلب.. فلم أنت لست حزينًا كما تبدو..

تفتقد حميدة لأنك كنت تحبها.. لا يا محسن.. أنت تعرف أنك تفتقدها لأنها كانت من يُعنى بك.. كانت من يخلع عنك ثيابك ويغسل لك يديك ويطبخ لك طعامك ويشتري الخضروات ويصلح الأثاث ويرتق الثياب.. كل هذا وأنت لا تجود عليها حتى بأكلة كباب رخيصة.. تقيم بها ظهرها الذي انحنى فوق قدميك يغسلهما في حب..

تضع عينيك فوق صفحات الجريدة لتهرب.. لتجد ذلك الخبر الغريب.. كيف هرب الأسد من السيرك.. وإلى أين هرب.. وهل يهرب الأسد هكذا ببساطة ويعيث فسادًا في الأرض؟؟.. لا بد أن الشرطة ستجده

قبل أن يصل إلى الشروق.. لقد هرب من السيرك في الجيزة فلا بد أنهم سيصلون له قبل أن يصل إلى الشروق.. أنت لا تطيق تلك الحيوانات.. تحب مشاهدتها خلف أقفاصها وتتلذذ بمدرب الأسود في السيرك وهو يضرب بسوطه الجلدي فوق الأرضية الزلقة فتقفز الأسود داخل النار مطيعة.. وددت لو تكون مدرب أسود.. بدلًا من تدريب هؤلاء القردة على القسمة المركبة وجدول الضرب..

اصنع كوب شاي لا يصلح حتى للشرب.. رشفات قليلة قد تفيد في نسيانك دموعك وحزنك..

تدخل غرفتك لتخلع ثيابك وتستريح قليلًا.. ماذا ستقرأ قبل أن تغفو.. إن النوم لا يأتي بلا قراءة أو حميدة.. رحلت حميدة فلا بد أن تقرأ..

تمد يدك إلى ذلك الكومود الخشبي العملاق.. لتجد ذلك الملمس الجلدي الغريب.. تمسك ذلك الكتاب الجلدي الصغير الذي وجدته فوق كتبك الأثيرة.. ما هذا الكتاب.. ما الذي جاء به إلى هنا.. أنت لا تتذكر أنك اشتريته ولا تتذكر أن أحدًا أهداه لك..!!

تقلبه في يدك ناظرًا إلى الغلاف الجلدي وكلمة الرُّهاب التي تلمع بجوار اسم كاتبه إبراهيم صفوت.. هو كاتب لم تسمع عنه ولن تسمع عنه لأنك ببساطة لا تهتم.. أنت لم تحسب نفسك يومًا على المثقفين أو محبي القراءة.. أنت لا تقرأ إلا لتنام أو تحضر دروسك.. تقلبه من جديد لتسقط صورة حميدة من منتصف الكتاب!!!

تنظر هناك لتلك الصفحة لتجد ذلك العنوان الذي كتب بخط البالوظة المتقطع الوصلات:

"الملك"

قصة قصيرة هي.. تتحدث عن رجل بائس يستيقظ من نومه في الم...
ولا يقوى على التحرك.. أطرافه تبدأ في الارتعاش وعيناه تبدأ في الز...
أو ما تسميه (زغللة) وأنفه تطلق إفرازاتها وكأنما هو مريض جيوب ا...
في قلب عاصفة خماسينية مرعبة.. فقط ليسمع الزئير.. زئيرًا عميقًا ل...
به في حياته.. يخطو على قدميه المرتعشتين ظانًا أن كلبًا عملاقًا قد ند...
بيته وهو على وشك عضه أو التهام حنجرته.. فقط ليصدم بذلك الأ...
الراقد على قوائمه.. أسد يجلس في غرفة المسافرين كما سمّاها ذلك الكات...
كيف يحدث هذا يا محسن.. إن هذا الرجل واسع الخيال لم يتلق تربية صالحة
تجعله عقلانيًا منطقيًا!! إن وجود أسد في صالة المنزل لهو شيء مستح...
الحدوث..!!

فقط عندما سمعت ذلك الزئير القوي المخيف يأتي من خلف با...
الغرفة!!

عرفت أن كل شيء مستحيل يمكن أن يحدث..

ألم تحدث ثورة في البلد يا أخي.!!!

* * *

- خدوني عند عماد حالًا
- يا أستاذ إنت سامعني.. إنت اسمك إيه.. رد عليا الأول.
- أكرم فهمي عبدالله حبيب.. ساكن في ٢٨ شارع ١٠ عين شمس. بقولكم خدوني لعماد حالًا..

* * *

(٢٠)

جريدة (......) اليومية.. السادسة والنصف مساءً

ماهر الرفاعي.. يجلس خلف مكتبه الفخم ولفافة التبغ ترقد بين أصابعه، دخانها يقف في قلب المكان.. وأنا جالس إلى يمين مكتبه وولاء تواجهني إلى اليسار.. المقال المرتقب في يده الأخرى ونظارة القراءة ذات الماركة العالمية الفخمة تتدلى على قصبة أنفه مراقبة تلك الأحرف التي شاركتني في كتابتها تلك الفتاة ذات الشعر المتموج..

عيناي لن تخوناني هذه المرة.. عيناي لن ترتفعا إلى ذلك الجبل الشاهق.. إلى الشمس الراقدة في سلام بين خصلات الشعر المتموجة الثائرة لتلتقي بعينيها.. لن..

أنا كاذب يا سيدي.. لقد فعلت كل ما حثثت نفسي وأمرتها ألّا تفعل.. لقد رفعت عيني إلى قدس الأقداس.. فقط لتلتقي بعينيها العسيليتين المقتحمتين.. دفاعاتي الواهنة تبدأ في الاستعداد.. قائد الحامية الرابضة في

قلبي يطلب من جنوده الضعفاء الهازلين أن يقاوموا.. فقط لتسقط كل ا
الدفاعات عندما همست شفتاها بالكلمة السحرية، ليعلن قائد الحامية ا
القلعة سقطت وانتهى أمرها ولا بد من الاستسلام.

شفتاها تهمسان بالكلمة من جديد، فأقرأ ما تقوله ثم تسقط كل مقاو
وينهار كل سدّ كنت بنيته هنا حتى أقاوم ذلك الغزو.. لقد انتهى أمرك ا
أكرم.. إن عقلك يصدر الأوامر لشفتيك فتنطقان الحروف تباعًا.. تق ا
سيدة الأكوان ما تقوله شفتاك المرتعشتان، فتضيف إلى قوة هذين الكشاف
لمعة تنهار معها آخر الحوائط بين جمهوريتي الرأسمالية الغربية وجمهوريتها
الشرقية الاشتراكية.. لقد انتهى أمرك يا أكرم.

- مش بطال.. كويس.. بس برضه ناقص شوية..

ثم وضع الأوراق وخلع نظارته الأنيقة ليلقي بها على مكتبه وهو يحاول
أن يستدعي الإلهام المقدس ليتحف أذني بكل ما هو مبتكر وجديد في عوالم
صاحبة الجلالة.

- شوية إيه يا ريس؟؟

- شوية توابل يا أكرم.. عقلية القارئ لازم تشوف اللي انت شفته
بس بالطريقة اللي هي عايزه تشوف بيها.. حاجات كده محتاج زمن
طويل عشان تعرف توصلها يا ابني..

بدأت الحكمة المقدسة في التساقط على وجوهنا إذن..

- منكم نستفيد ياريس.

- بس انا معترضة يا ريس معلش.. عقلية القارئ دلوقتي ما بقتش زي
زمان.. دلوقتي القارئ عايز يقرا الحقيقة عشان يصدق أي حاجة
وسط هالة الكذب اللي احنا عايشين فيها..

بت يا ولاء.. ما تتلامضيش عليا.. عقلية القارئ البسيط العادي مش هتغيرها ولا مليون هوجة زي اللي انتو عملتوها دي.. القارئ هيفضل طول عمره يعدي على الأخبار الواقعية بتاعتك ويمصمص شفايفه ويقول بمنتهى البساطة "شوف ولاد الكلب بيضحكوا علينا ازاي" لكن يوم ما يعدي من قدامه خبر فلان اللي دبح عياله ومراته عشان الشياطين طلعتله وأمرته بكده أحسن يتمسخ قرد.. هيقولك "سبحان الله دي الدنيا دي ياما فيها حاجات غريبة" وبعدين يضحك بحسرة ويقولك "بس بتحصل والله واكتر من كده كمان" يعني القارئ يا أستاذة مالوش دعوة بخلفياتكم الثقافية المجعلصة.. فهمتي ولا ناوية تتلامضي تاني؟!!

ثم أخرج لفافة تبغ من علبته الفضية الأنيقة ومدها إليّ..

خد سيجارة يا أكرم.

- لا يا ريس.. ربنا يعفو عنك انت كمان.

- إيه شغل سواقين التاكسي ده.. حد قالك إني عايز ابطلها.. ده انا بحبها أكتر من مراتي..

ثم أشعل اللفافة بقداحته العملاقة وسعل مرتين وسط ضحكاته المجلجلة..

- طبعًا اللي هيقولها فيكم هرميه في الشارع.

ثم أطلق ضحكة عالية مجلجلة وهو يتناول الأوراق ويمد يده بها لي.. فضحكت مجاملًا له في هدوء، بينما ولاء تحدق فقط في مكان واحد.. إنها عيناي.. عيناي اللتان أحاول أن أضعهما في ثلاجة موتى أمام عيني ماهر الرفاعي حتى لا تقول له بكل قوة: "يا سيادة رئيس التحرير المبجل.. كل

تفاهاتك وترهاتك عن عقلية القارئ لا تهمني ولا تساوي قشرة ...
بالنسبة لي.. كل ما أريده أن تتركني لحالي وألا تشطب حرفًا من مقال
وإلا شطرت رأسك إلى نصفين".

- عايزك تقعد عالمقال شوية كده وتمخمخ في كام عنوان من ...
التوزيع يا أكرم.. احنا فارشين فرشة محترمة على الموقع، و...
معاك بالواجب وزيادة.. آه عايزك بقه تركز لي أوي على مو...
الراجل اللي هبشه الأسد.. وبالذات بقه الإهمال الحكومي ال...
تسبب في هروب الأسد ده من السيرك.. وازاي فضل لحد ما ...
الشروق وهبش الراجل في الشارع وتسبب في ذعر لسكان المنطقة
وازاي...

- معلش يا ريس على المقاطعة.. بس هو ما هبشوش في الشارع و...
سبب ذعر لسكان المنطقة ولا حاجة.. اللي حصل إنه هبشه في ال...
وبعدين خد سهم مسموم زي بتوع حدائق أفريقيا المفتوحة ...
عليه.. يعني لا ذعر ولا بتاع.. غير إنه كمان اتسرق من الس...
سرقة.. بس الداخلية مخبية عشان الكلام بتاع الوضع ما يستحم...
والكلام ده..

حدق فيّ بنظرة رمادية كئيبة مستهترة ساخرة.. ونفث دخان سيجاره
في وجهي..

- أكرم..

- اؤمر يا ريس.

- إنت تعرف عني إني جاهل أو اهبل..

- لا العفو ياريس إحنا بنتعلم منك..

- يعني انت فاكرني مش عارف كل التفاصيل اللي انت بتقولها دي، ومن قبل كمان ما تكتبها في مقالك.. فاكر إني ماليش اتصالات وعارف إن الداخلية مخبية موضوع الأسد اللي اتسرق وطلعته للناس على إنه هروب عشان محدش يقول إن الداخلية مهملة في حراسة الحيوانات المفترسة.. وإن حراس السيرك همّا اللي مهملين عشان ما قفلوش الأقفال كويس، وكل الكلام اللي هتسمعه بكرة بالليل في برامج يسري فودة ومحمود سعد.. أنا عارف كل ده كويس يا أكرم.. بس ليه إنت بتقوله ده يتنشر في صفحة الحوادث في الأهرام والجمهورية.. لكن احنا مش ناقل أخبار يا أكرم.. إحنا صنّاع أخبار يا أكرم.. فهمت؟!!

نظرت إلى ولاء التي تحولت نظرتها إلى غضب مستعر، وقد أوشكت على قضم رقبة ماهر الرفاعي مثل ذلك الأسد الذي قضم رقبة المدرس ثم قضم.. ما علينا.. لكنني قربت وجهي من المكتب الفخم، وقلت بأكثر الطرق أدبا واحترامًا استطاعتها نفسي القلقة الغاضبة..

- بص يا ريس.. افتكر إني قولت لحضرتك زمان أول ما اشتغلت هنا إني ما بحبش طريقة الراجل اللي عض الكلب بتاعت إخواتنا في الجرايد إياها..

- إنت قصدك إيه يا أستاذ.. قصدك إني بقلد الجرايد الصفرا؟!!

- لا صفرا ولا حمرا يا ريس واسمعني لحد ما اخلص كلامي لو سمحت.. أنا ماليش في شغل الإثارة الرخيص وما يفرقش معايا إن الجرنان يوزع ولا ما يوزعش ما دام مصداقيتي قدام القراء اللي بيدفعوا فلوس في الجرنان ده عشان يقروا التحقيقات اللي بكتبها..

- مصداقيتك.. قراءك.. إنت بتكلم مين كده يا أكرم؟!!

- يا ريس بعد إذنك.. هي دي الطريقة اللي انا بشتغل بيها طول عمري.. واللي هفضل اشتغل بيها طول اللي فاضل من عمري.. حضرتك عايز تغير المقال براحتك بس بعيد عني.. يعني اسمي ما ينزلش عليه ولا يبقى لي صلة بيه.. بس يوم ما يحصل كده أنا هقعد في بيتي أراعي أمي المريضة واطبخلها محشي وملوخية أحسن مليون مرة من الطبيخ أبو ريحة فايحة اللي انت عايزني اعمله..

قبضته الهادرة تضرب المكتب فتطيح بكوب القهوة إلى السجادة الفخمة.. وعيناه تطلقان شررها المستعر نحو وجهي فتكاد تحرقه أو تذيبه كسبيكة برونزية رخيصة.

- إنت بتكلمني أنا بالأسلوب ده يا أكرم.. أنا ماهر الرفاعي.. عارف يعني إيه ماهر الرفاعي؟!!

- شديد احترامي وتقديري لوضعك الصحفي وال..

- إنت تخرس خالص.. إنت مش قولت الكلمتين اللي كانو كاتمين نفسك.. اسمع بقه يا أكرم يا فهمي.. اقسم بالله العلي العظيم لو ما اتعدلت معايا في كلامك وتعاملاتك لأكون مانعك من الصحافة طول عمرك.. مقالك عندك وهنشره بس عشان الإعلانات والبروبجندا اللي اتعملتله وعشان ميثاق الشرف الصحفي اللي بيلزمنا كلنا إننا ندي الفضل لصاحبه.

ميثاق الشرف الصحفي أيها الأفّاق.. كم من مقال لصحفيين مغمورين كان يدخل مفرمتك الصلبة فيخرج مذيلًا باسمك!!

- وكلمة وهي الكلمة يا أكرم.. ده آخر إنذار ليك.. وإلا ورحمة أبويا لتكون مشرّف على الرصيف في ميدان التحرير مش لاقي جرنان يعبرك.. وابقى ساعتها شفلك مدونة ولا موقع سرقة اكتب فيهم

لقراءك يا سبع البرومبة يا فارس القلم.. ودلوقتي اتفضل.. أنا مستني مقالين تانيين عن الموضوع ده بالتطورات الجديدة.. أما بقه موضوع الأسد فا انا اللي هتولّاه بنفسي.. وأنا حرّ بقه.. أقول اللي احب اقوله لقرائي يا أستاذ... يا طاهر..

عم طاهر يأتي مهرولًا ويفتح الباب على مصراعيه وركبتاه العجوزتان تضربان بعضهما ككرتي بلياردو..

- اؤمر يا ماهر بيه.

- ابعتلي حسن مرزوق بسرعة.. واعملي زفت سادة بدل اللي ادلقت دي..

طار عم طاهر ملبيًا الأمر بسرعة بينما ماهر الرفاعي يتشاغل بالنظر في أوراق خاوية أمامه وبكل برود ثلاجات سوق العبور

- اتفضل يا أستاذ.. مستني المقال.

- حاضر يا أستاذ ماهر.. حضرتك تؤمر.

- اه.. يا أستاذة ولاء.. الكلام برضه موجه ليكي.. الجرنان ده أنا اللي بديره وبسياستي أنا.. واللي هيشتغل هنا يشتغل بطريقتي.. مش عاجبه.. باب الجريدة لسه بايظ وما بيقفلش كويس.. ياخد بعضه منه وعلى الشارع..

ثم أشار بطرف يده لنا كي ننصرف.. ولاء أوشكت على الردّ بكل عنف وشراسة تعلمتها في مواجهة قوات الأمن المركزي أيام يناير.. حتى أوشكت أن تقفز فوق مكتب ماهر الرفاعي وتضرب وجهه بمقدمة حذائها الرياضي الصغير.. إلا أن يدي قبضت على معصمها في قوة لم تشعر معها بأي شيء سوى أن غضبها كله تحول إليّ وأنا أجرها جرًّا إلى خارج المكتب..

- ممكن تسيب دراعي بقه لو سمحت..

- مش هسيبه غير واحنا في الشارع يا ولاء.. فاهمة.

- وإيه اللي هيودينا الشارع؟؟

- هعزمك على حاجة ونتكلم شوية..

وهنا التفتت نحوي بعينيها الشرستين.. فقط لأجد تلك النظرة التي تحطم أسوار قلبي وتحولني إلى طفل في الخامسة يبكي أمه التائه عنها..

- أكرم..

- نعم يا حب.. نعم يا ولاء.

- وحياة امك.. ورحمة ابوك.. عيد الجملة دي تاني..

صمتّ وأرسلت عيناي إلى مكان آخر في ردهة الجريدة شبه الخاوية.. إلا أنني كنت في كل مكان أجدها.. عيناها تحيطان بي وتظهران في كل مكان.. لا هرب منها ولا مفرّ.

- أكرم.. حرام عليك

- حرام عليكي انتي.. ما تبصليش كده لو سمحتي.

- ليه.. مش عايزني ابصلك ليه..

- عشان مش عايزك تبصيلي.. يا ولاء أنا...

- إنت إيه يا حبيبي..

- أنا كلها كام شهر وهبقى صايع.. الصدام هيحصل هيحصل.. أبويا ميت وما سابليش غير السمعة الطيبة وشقة جدي في القلعة اللي الرطوبة نشعت في حيطانها.. وامي عيانة وعايزة رعاية.. واللي جاي على قد اللي رايح..

- وحد قالك إني عايزة منك نص جنيه سلف.. أنا عايزاك انت..

رعشة تسري في جسدي فتحيلني إلى مجنون أخرق لا يقوى على الكلام.. والعينان تكملان حرق ما تبقى من قرى ثواري وفيالق مقاومتي..

- ها ها... هتشحتي معايا يعني على أبواب الجوامع.

- ولو على أبواب الكنايس كمان هشحت.. أنا ما صدقت لقيتك ومعنديش استعداد تضيع مني تاني عشان الكلام الاهبل اللي بتقوله ده..

ثم غمزت بطرف عينها وقالت هامسة:

- ولا في سبب تاني وانت مكسوف تقولي.

- سبب إيه يا بت انتي.. ما تحترمي نفسك.

ضحكتها ترن في أذني رعدًا يدوّي في سمائي.. وعيناها تلمعان فترسلان برقًا يجلب أمطارًا تذيب أراضيّ اليابسة القاحلة.

- ما دام بإرادتك الكاملة المتكاملة يبقى انتي حرة..

- إيه!! ناوي تمص دمي يا عم دراكولا..

- لا يا لطيفة.. ناوي اجي البيت واطلبك من الغلبانة اللي مخلفاكي.

- يا مثبت العقل..

ثم وضعت كفها فوق جبهتها وتظاهرت بالسقوط حتى كادت تسقط فعلًا لولا قبضت يدي من جديد على ذراعها الناحل فرفعت عيناها العسليتين اللامعتين، وبكل ما في الدنيا من ورود وعصافير وقلوب صغيرة تتطاير فوق صفحة كراس وردي لامع..

- بحبك..

- بحبك.. من أول يوم شفتك فيه وانا بحبك.. من أول ما هجمت عينيكي على حياتي وانا بحبك.. من أول ما رحتي تبصي على صوابعي الفاضية وانا بحبك.. من أول ما نطق لسانك اسمي وانا بحبك..

- احم احم.. لا مؤاخذة..

صوت عرفة عبد العاطي المصور الشاب في جريدتنا يخرق حوارنا الهامس، وابتسامة خبيثة تعلو وجهه الصبياني حليق الشعر، وهو يحاول جاهدًا أن يتناسى المشهد الغرامي المؤثّر الذي رأى فيه أستاذه الصموت المقبض.

- لا مؤاخذة يا أستاذ أكرم كنت عايز بس اقولك على حاجة كده..

تركت ذراع ولاء، وتوردت وجنتاها الخمريتين برحيق أحمر يطلقون عليه دمًا.. وراحت تشير بيدها، وتقدم خطوات وتؤخر أخرى ثم...

- طيب يا أكرم هستناك في مكتبك..

- ماشي يا ولاء.. أنا هخلص مع عرفة واحصلك..

نظرت إلي من جديد بتلك النظرة التي تقسم قلبي إلى نصفين وتحولني إلى أسير حرب في جيوش عينيها، ثم انصرفت على عجل..

- تصدق إنك عيل بارد..

- أنا آسف والله يا أستاذنا بس انا... حقك عليا معلش.

- يا عم خلاص خلصنا.. إيه خير؟!!

- الصور اللي خدناها النهاردة الصبح في المشرحة بتاعت جثة البنت إياها..

- ما لها..

- من ربع ساعة فتحت الكمبيوتر عشان ابعتهم لبتاع التنسيق يحطهم فوق المقالة.. بس لقيت حاجة غريبة أوي..

- لقيت إيه يا عرفة ما تخلص وتجيب من الآخر..

تلفت حوله يمنة ويسرة، وكأنه سيخبرني بسرّ نكسة ٦٧، ثم اقترب مني وقال هامسًا:

- الصور اتمسحت من على الجهاز يا أستاذ أكرم.. اتمسحت كلها..

- يا نهار أبوك إسود.. ده انا اطير رقبتك فيها..

- يا أستاذ أكرم مش دي القضية.. أنا معايا تَلَت نُسخ تانية في أماكن متفرقة محدش يعرف يوصلّها.

- أمال إيه القضية يا عرفة..

ضيق عينيه وهو يضغط على مقاطع حروفه كأنه يقضم من رغيف كلمات يابس..

- القضية إن اللي مسح الصور ساب مكانهم صورة واحدة بس في نفس الفولدر الصورة دي يا أستاذ..

ثم مدّ يده إليّ بصورة مطبوعة بالألوان تُظهر رجلًا في أوائل ستيناته.. يرتدي نظارة طبية أنيقة، ويبتسم في وقار للكاميرا..

صورة دكتور أحمد سليمان!!!

* * *

حاشية لا بد منها

حلمي عبد المتجلي..

هو اسمك الذي اختاره لك أبوك.. الطبال السابق بفرقة الراقصة الشهيرة.. الأسطى عبده، كما يسمونه في شارع محمد علي.. الأسطى عبده الذي تحول تلامذته النجباء إلى طبالين وعازفي إيقاع في كل الفرق الشهيرة في أواخر الثمانينات، وتحول هو إلى عاطل مدمن للكحول.. فقط لأنه لا يعرف من أين تؤكل الكتف!! فتزوج من أمك حسنية البلانة، فقط كي يجد من يضربه ليلًا بحذائه البالي، عندما تسكره الخمر فلا تبقي له من عقل.!!

حلمي البرص..

هو اسمك الذي دخلت به تلك المدرسة الابتدائية في أطراف إمبابة.

هو اسمك الذي دخلت به المدرسة لتخرج منها كما دخلتها بعد أن ضربك أبوك على رأسك حتى كاد يقتلك عندما رسبت في الابتدائية للمرة الرابعة!!

حلمي إبليس..

هو اسمك الذي تعرفه منذ أن رحل عم عبده عن الدنيا.. رحل يوم أن قرر أنه لا خمر بعد اليوم.. رحل وهو ساجد يصلي الفجر وتركك في هذه الدنيا تتبوء فيها مقعدك من النار بكل سرعة..

تقف هناك فوق الرصيف العالي الذي تتسلقه بكل ما تحمل الكلمة من معاني التسلق.. وأنت تنتظر ذلك القادم من بعيد في ظلمة الشارع.. الشارع الذي لا ينيره سوى مصباح ضوئي خرب باقٍ من ضمن عشرة مصابيح علقها أحدهم في رمضان ثم تناوب الصبية على تحطيمها على سبيل تزكية وقت فراغهم الطويل..

يقترب منك فتظهر ملامح وجهه الوسيمة في ظلال المصباح القاتمة.

- إزيك يا حلمي.. في معادك بالضبط

- مرحبًا يا دكتور.. أنا راجل سمعتي في كلمتي يا برنس..

يطلق ضحكة تعتقد أنها ساخرة.. لكن عقلك المظلم لا يبالي بها كثيرًا.. انت مجرد برص يا حلمي.. وهل للبرص كرامة حتى يتضايق عندما يسخر منه الناس!!

- جبت اللي اتفقنا عليه يا دكترة.

- جبته طبعًا.. المهم تكون فهمت إنت هتعمل إيه..

- فهمت يا برنس هي كيميا.. وبعدين دي مش أول شغلانة نعملها سوا..

- ولا آخر شغلانة يا أبو الأحلام.. بس خلّي بالك.. صحيح إنت عديت من موضوع البت على خير، ومحدش شافك وانت داخل العيادة لما النور قطع.. بس برضه بصماتك مرمية في كل حتة.. المرة دي لازم تبقى أحرص شوية يا حلمي..

- بص يا برنس.. أنا حلمي إبليس ولا مؤاخذة.. لو بصماتي منطورة في العيادة كلها.. ولا يفرق.. عشان أنا كده كده اللي بنضف العيادة واروقها كل يوم قبل ما امشي.. غير إن لا مؤاخذة ساعة الحادثة إياها أنا كنت سهران مع الرجالة فوق سطح عمارة في إمبابة.. صحيح أنا سبت السهرة، ونزلت ورجعت تاني الساعة اتناشر بالليل.. بس الرجالة كانت معلية ورايقة أوي.. ولا أي جثة فيهم هتفتكر إن حلمي سابنا ساعتين ورجع تاني بعدها.. كله هيحلف بالطلاق إن حلمي ما اتحركش من هنا..

- ده انت مظبط أمورك بقه يا حلمي..

- تلامذتك يا دكترة وبنتنور منك لا مؤاخذة..

أخرج ذلك الرجل ظرفًا ضخمًا من جيبه، ومنحك إياه فرحت تتحسـ...ـه في نهم.. هذا هو ملمس المال كما تعرفه حتى وإن كان مغطى بالورق البني الخشن..

- كام دول يا كبير؟

- اللي اتفقنا عليه يا حلمي وفوقيهم هدية صغيرة..

- طب وبالنسبة للأقراص..

- آه.. استنى..

يخرج الشريط من جيبه ليمنحك إياه.. فتتلقفه في نهم ككلب ألقوا له بعظمة تشابك اللحم في أطرافها، فراح يعوي بها فرحًا.. بينما رفع يده إلى جوار رأسه محيّيًا، وانصرف في الظلال كما جاء..

أموال يا حلمي.. أموال تكفيك كي ترحل من بشتيل ومن إمبابة ومن القاهرة العشوائية الحقيرة.. أموال تكفيك كي ترتدي الجديد، وتغير من شكلك الشبيه بالبرص.. أموال تكفيك كي تبدأ من جديد بعيدًا عن سيرة عم عبده الطبال والست حسنية البلانة..

تجلس في تلك الغرفة الحقيرة التي لم تجد لك مثوى سواها، وتفك عذرية ذلك الظرف المنتفخ لتجد رزم الأموال تتكدس فيه في إغراء تنتظر يدك المعروقة كي تنقض عليها وتنتهك نضارتها ونعومتها..

تبتلع قرصين من ذلك الشريط.. قرصين دفعة واحدة حتى ترتفع رأسك الصغيرة إلى عنان السماء.. كي تكتم صرخات الإثارة التي تودّ لو تنطلق من حنجرتك الخشنة، كلما لمست يداك أوراق المال الناعمة.

يسقط الظرف من يدك، ومكان سقوطه تجد ذلك الكتاب!!

الكتاب الذي كنت مرسالًا لتوصيله يومًا.. الكتاب الذي وضعته في د. برعي.. وفي شقة علاء.. وفوق الكومود الخشبي بجوار صورة محسن.. وأمام المشتل التي عملت فيه تلك البائسة خطيبة ال..

لكن في غمرة الغيبوبة التي بدأت تداهمك من القرصين القويين.. تجد مكينًا وضع بين صفحات الكتاب..

تمسكه وتخرج السكين بيديك لتجده قد فتح على صفحة ما..

وسط ظلال المصباح المعلق في سقف الحجرة القذرة قرأت عيناك بصعوبة تلك الكلمات:

"وسط الناس"

هذا عنوان من داخل ذلك الكتاب.. ولكن لم تهتم.. أنت لا تقرأ ولا تحب القراءة.. حتى عندما كان يمنحك الدكتور سليمان كتابًا كي تقرأه كنت تلقيه في أول مقلب عمومي، وتدعي أنه سرق منك في الميكروباص حتى لا..

عيناك لا تقرأ الحروف.. عيناك تضيق والدنيا توشك على الإظلام من حولك..

- مش عارف تقرا.. ولا يهمك أنا اقرالك..

تلتفت في حدة حتى كدت تكسر رقبتك نحو ذلك الظل الرابض في ركن الحجرة، تحاول رفع يدك بالسكين كي تتحرك نحوه لكن ثقلًا يسقط فوق كتفيك فلا تقدر.

- إنت مين يا عم انت؟!!

- ما انت عارف يا حلمي.. إنت بس اللي سمعك تقل وعينيك بتدبق شوية.. معلش أنا حاولت اجيبلك حباية تخلص بسرعة بس لقيتها هتكلف شوية.. وانت الصراحة ما تستاهلش يدفع فيك حقها..

الآن تتبين الصوت.. تحاول أن تفتح عينيك فلا تقدر.. تجرر ساقيك الذين ترتعشان من فرط الألم.. ومعدتك تأبى أن تتوقف عن آلامها المبرحة.. أحدهم يضرب معدتك بمطرقة تزن عشرة كيلوجرامات من الصلب.. ثم لماذا ترى الباب بابين حتى لا تقدر على الوصول له..

- هو الصراحة يا حلمي أنا احترت في الجرعة اللي تكفيك.. بس الكبير اكدلي إن قرصين من البتاع المركز ده كفاية عليك أوي.. هو عمل حسابه إنك بتشرب شاي وقهوة كتير، وجسمك متعود على الشيوفلين، ومش هيخلص عليك بسرعة.. بس انا أكدت إني لما نضيف على الخلطة ديجوكسين هتبقى أحلى وأجمل..

ثم أشعل لفافة تبغ يا حلمي وأنت تزحف محاولًا الخروج من الباب.. جسمك الناحل يزحف فوق درجات السلم الأربعة لتخرج زاحفًا إلى الشارع المزدحم.. الشارع الذي طالما كرهته بضيقه ورائحة عطنه ومقهاه القذر..

- إيه ياد يا حلمي.. مالك.. إنت مبلبع إيه مخليك تزحف كده..

القيء يبدأ يا حلمي.. لكنه قيء مرّ.. عيناك لا ترى سوى أضواء خاطفة، وجهازك العصبي فقد السيطرة على جهازك الهضمي فراحت سوائل قذرة تتسرب من جسدك إلى ثيابك القذرة

- الإسعاف.. اطلبوا الإسعاف..

تمسك بطرف بنطال تجده في طريقك وتشده.. تشده بكل ما تملك من

قوة لينحني صاحب البنطال نحوك..

- *إيه يا شقيق ما لك.. إنت بلبعت إيه؟؟*
- *الدكتور..*
- *بتقول إيه يا ابن المرة مش سامعك..*
- *الدكتور..*

ثم رحت تهمس بها متواصلًا.. تهمس بها بلا توقف.. تهمس بها والأضواء تخفت..

وتخفت.. وتخفت..

* * *

- خدوني عند عماد حالًا
- يا حبيبي اهدئ بس.. أنا بكلمه ما بيردش
- اهدئ يا أكرم.. ضغطك لسه واطي ولازم ترتاح..
- أبوس إيدك يا ولاء.. خديني عند عماد حالًا..

* * *

(٢١)

مديرية الأمن... العاشرة مساء

كعادتي في هذه الأيام اللزجة المتوترة أقتحم حجرة مكتب عماد بدون أي سابق إنذار، وهو جالس فوق مقعد جلدي منخفض مجاور لمكتبه، يقرأ تقرير الطب الشرعي المفصل لجريمتي الفتاة سمية، وذلك المدرس البائس البدين الذي توفيت زوجته قبل أربعين يومًا من التهامه عن طريق أسد مصاب بالسعار!!

- مش تخبّط الأول يا زفت قبل ما تخش..

- مرّة من نفسي يا حضرة المعاون..

- حضرة المعاون شكله هيلبس البيجامة قريب.

ثم يلقي بالتقرير على مكتبه في إهمال، وينفث من دخان لفافة التبغ وهو يراقب حلقات دخانه الصاخبة الغاضبة تنطلق في هواء الغرفة الكئيب.

- أنا جايلك في موضوع مهم جدًّا

- ده انا اللي عايزك في موضوع مهم جدًّا جدًّا.. اقعد على ما ابعت اجيب قهوة..

ثم رفع عقيرته مناديًا على ذلك ال.. أيًّا كان.. ليحضر لنا قهوتين.

- من حوالي ساعة كده وصلت المستشفى جثة الواد اللي اسمه حلمي.. الفرّاش بتاع عيادة دكتور سليمان ما انت عارفه.. الواد خرج من بيته في الدور الأرضي زاحف، وبيجيب في كل سوائل جسمه على الأرض.. من دم لقيء لبول لبراز ل..

- بس الله يقرفك خلاص.. خش في المهمّ.

- المهم إنه قبل ما يودع قال كلمة واحدة بس لواحد من شلة الأُنس بتاعته.. استنى هخليك تسمع منه بنفسك..

دلف بيومي بالقهوة على صينية، بينما عماد ينهض دائرًا حول مكتبه ليجلس خلفه على سبيل الهيبة..

- بيومي.. هات الواد بتاع بشتيل.

- أوامرك يا باشا.

ثم وضع الصينية على الطاولة، وأنا أهمس في أذنه:

- إزيك يا بيومي.

- الحمد لله جنابك.

- فين العشرين جنيه.

- عشرين إيه جنابك؟!!

- اخلص يا بيومي روح هات الواد.

أدى التحية ثم انصرف مسرعًا، وقد أنقذته صرخة عماد من استجوابي.. وعماد يرسل نظراته الغاضبة نحوي فتحمرّ أذناي خجلًا.. العشرين جنيه هي أمر مصيري بالنسبة لي.. لا بد أن أستردّها مهما كان الثمن..!!

دلف إلى الحجرة شاب نحيل بشكل مرعب.. تحيط بعينيه أكثر الهالات سوادًا مما رأيته في حياتي.. يرتدي بنطالًا من الجينز يضيق ليصبح باتساع فم الحذاء الأحمر الفاقع الذي يرتديه وقد زين رأسه شعر خشن، قصّ جانباه حتى أصبح مثل فرشاة الأحذية الخشنة..

- تعالى يا سيد، ما تخافش..

- أنا ما اعرفش حاجة غير اللي قولته والله يا بيه.. الله يخرب بيتك يا حلمي..

- الله يرحمه يا سيد.. احكي للباشا حصل إيه بالضبط من ساعة ما خرج زاحف من بيتهم لحدّ ما قالك الكلمتين.

- أوامرك يا باشا.. والله يا باشا إحنا كنا قاعدين على قهوة تفاهة..

- قهوة إيه؟؟!

- تفاهة يا باشا.. بتاعت الواد حودة تفاهة اللي مدور تكاتك في المنطقة.. وبصينا لقينا الولا حلمي خارج بيزحف على بطنه من البيت، ولا مؤاخذة بيطرش حاجة لونها اصفر.. ولما قربنا منه راح عم حسين رامة..

- حسين مين؟؟

- حسين رامة يا باشا بتاع السايبر، راح متصل بالإسعاف بس لاقاهم مشغولين يا بيه.. وولاد الحلال جم يشيلوه عشان نحطه في أي

توك توك، ونطلع بيه على الجمعية الشرعية، راح طابق في الشيرز ومكرمشه في إيده.. عينيه يا باشا كانت محمرّة وزي ما يكون ضارب حاجة..

- حاجة زي إيه؟؟

- والله يا بيه ما اعرف.. أنا بطلت كيميا من شهرين وربنا تاب عليا، لكن حلمي كان يعرف دكتور من المعادي بيجيبله اقراص يوزعها عاللي عايز في المنطقة.. غير لا مؤاخذة البانجو.. المهم يا بيه راح طابق...

- طابق في الشيرز ومكرمشه، دي عرفناها.. وقالك إيه.؟؟

- قاللي: الدكتور.. الدكتور، وبعدين فضل يقولها كتير لحدّ ما سلم نمر في التوك توك قبل ما نتحرك بيه.

صمت الفتى، فنظر لي عماد نظرة ذات مغزى، جعلت عيناي تضيقان، وهما تتركزان في قلب ذلك الحذاء الأحمر الملوث ببقايا قيء المرحوم، بينما عماد يأمر الفتى أن يرحل، ويعطيه بطاقته الشخصية، فأطلق لساقيه الريح فرحًا بخلاصه من قبضة هذا الغول ضابط المباحث..

- إيه رأيك في اللي سمعته؟؟

- رأيي إن احنا لازم نمنع الكارثة الجاية بسرعة يا عماد..

- كارثة إيه مش فاهمك؟!

- النهاردة المصور اللي خد صور الجثث الصبح مالقاش الصور في الفولدر على الكمبيوتر.. ولقى صورة واحدة مكانهم هي صورة الدكتور سليمان.. والواد ده بيقول الدكتور الدكتور.. يعني الهدف الجاي للبيه بتاع الفوبيا ممكن يكون دكتور سليمان شخصيًا.

- هو موضوع صورة الدكتور سليمان مقلق فعلًا.. بس الواد لما قال الدكتور ما كانش قصده الدكتور سليمان يا أكرم..

- مش فاهمك خالص..!!

مدّ عماد يده إليّ بملف بلاستيكي صغير.. تتصدره صفحة تشبه السيرة الذاتية عليها صورة لشاب وسيم في أواسط ثلاثيناته.. يرتدي نظارة طبية أنيقة.

- مين ده؟؟

- عصام أحمد عبدالقادر الحبشي.. أربعة وتلاتين سنة.. خريج كلية الطب جامعة القاهرة وأخصائي باطنة، ومعاه ماجستير في طب المناطق الحارّة.. أعزب.. وكان فاتح عيادة في حدائق المعادي.. ظروفه المادية سيئة جدًا، ومن أسرة بسيطة جدًا جدًا..

- وده إيه علاقته باللي احنا فيه؟؟

- أنا اقولك يا أستاذنا الصحفي الهمام.. لما حصرنا دايرة معارف المجني عليهم النهاردة الصبح.. لقينا الاسم ده متكرر كتير أوي.. "عصام أحمد عبدالقادر الحبشي" يبقى شقيق "هيثم أحمد عبد القادر الحبشي" لاعب الكرة اللي كان لسه رايح يمضي للزمالك يوم ما اتقتل.. كمان طلع خطيب أمل البنت اللي نزفت لحد ما ماتت في المشتل.. وكمان هو أخو المرحومة حميدة أحمد عبد القادر الحبشي، زوجة المجني عليه رقم سبعة محسن عبد القوي صليحة..

- صدف غريبة والله!!

قلتها ساخرًا، فنظر عماد نحوي، وقد لمعت عيناه ببريق أعرفه عندما يسبق بخطوة..

- لا؛ خد عندك بقه الصدف الأغرب دي.. لما اتصلت بدكتور سليمان أسأله هل يعرفه أو سمع عنه قبل كده؟ طلع يعرفه كويس جدًّا.. وإنه يا عيني كان بيتعالج عنده في فترة من فترات حياته من صدمة عاطفية حصلتله نتيجة خيانة خطيبته ليه.. لا وبعدين طلب مساعدته في إنه يوصل ورق أخته المريضة بالسرطان لمعهد الأورام عشان تتعالج على نفقة الدولة.. خد عندك بقه اللي جاية دي..

- اديني يا لعيب..

- لما بعتنا اسمه الأمن الوطني.. عشان نشوف ليه نشاط سياسي ولا حاجة..

- الأمن الوطني!! هي مش الملفات اتحرقت واتفرمت باين..

- واد يا أكرم.. ما تلعبش اللعبة دي معايا يا روح امك.. أنا مش مصدر هتسرسب منه معلومة، وخليني ساكت.

- طيب خلاص قلبك ابيض.. كمل لقيتوا إيه..

- الدكتور عصام عضو مؤسس في حزب الحق السلفي.. لا؛ وكان المفروض ينزل على قوايم الحزب في جنوب القاهرة، بس شوية خلافات في الأفكار والاعتقادات السياسية خرّجته من الحزب.

- يا راجل.. طب ومستنين إيه.. ما تجيبوه عشان نتعرف عليه..

- مالوش أي أثر.

ثم أشعل لفافة تبغ بقداحة معدنية كبيرة، ونفث الدخان وهو يرشف من قهوته، ثم نظر لي متابعًا:

- يعني إيه مالوش أثر.. مش بتقول إنه في عيادة.. وأكيد له محل سكن هنا ولا في القرية اللي هو منها.

- مالوش أثر في أي مكان منهم.. العيادة مقفولة من يومين.. بلده ما يعرفوش عنه حاجة من شهر.. حتى العوامة اللي هو مأجرها في امبابة.

- عوامة.. إنت بتقول إنه من أسرة بسيطة وعلى قد حاله.. يأجر عوامة ازاي؟!!

- ده اللي حصل.. لما بعتنا اتنين تلاتة من رجالتنا يفتشوا عنه.. واحد من سكان المنطقة اللي فاتح فيها عيادته قال إنه زاره مرة قبل كده في عوامة عالكورنيش ناحية كوبري امبابة والقسم.. ولما رجالتنا راحوا هناك لقوا فعلًا العوامة متأجرة باسمه شهر بخمس تلاف جنيه مفروشة.. وكان بيجي العوامة لوحده غالبًا زي ما الراجل الغفير اللي قاعد هناك قال لنا.. طبعًا عشان ما نستناش أمر النيابة فتحنا باب العيادة بطريقتنا، وتخيل لقينا إيه!!

- لقيتوا مخزن كتب الرُّهاب مثلًا؟!!

نظر لي في تقزز، فمنحته ابتسامة بلهاء من النوع التي تضيق فيه عيني، وتظهر فيه كامل أسناني، فيوشك على أن يحطمها.

- لقينا مجموعة أبحاث عن تطور السموم.. ودورة السموم في جسم الإنسان.. والسيطرة على جرعات السم المميتة في جسم الإنسان وشوية محاليل طبية أول ما نطلّع إذن النيابة الصبح هنتحفظ عليها ونبعتها تتحلل كويس، عشان نعرف فيها إيه.. ومالقيناش أي نسخ من الهباب اللي بنلاقيه جنب كل الجثث..

- بيتهيأ لي عدا جثة الواد اللي اسمه حلمي..

- لا يا اخويا لقيناها مرمية وسط هدومه لما بعتنا الشباب بتوع قسم امبابة يفتشولنا الشقة.. يعني الأخ حلمي كان ضحية هو كمان..

آه كان في شريط كده فيه أقراص زرقة.. بعتناه عند دكتورة أمل البيت.. والحقيقة الست كانت متعاونة جدًّا جدًّا ولطيفة جدًّا، لدرجة إنها كلمتني بنفسها من نص ساعة، واديتني النتيجة.

- كلمتك بنفسها.. ومتعاونة جدًّا ولطيفة جدًّا.. ممم.. وكانت إيه النتيجة يا حضرة الظابط أوي جدًّا..

- ولو إني شامم في لهجتك طريقة مش عاجباني لكن هقولك.. الدكتورة بتقول إن في مركبات من نوعين من الأدوية في الأقراص وإنها أول مرة تشوفها في حياتها مع بعض في نفس القرص أو الكبسول.. بس باين إن اللي عمل التركيبة محترف جدًّا، وعنده خبرة واسعة بالسموم..

ثم نفث دخان لفافته وهو ينظر إليّ من خلف سحب الدخان، فبدا كعراف يقرأ المسقبل من عينيه الضيقتين..

- إحنا كده حطينا ايدينا على الدافع وطريقة التخطيط للجرايم.. اللي هو أي حاجة ليها علاقة بتجارب على أبحاث أو تجارب غير مشروعة لواحد مجنون عايز ياخد الدكتوراة بتاعته لايف، ما دام ما عرفش ياخدها من الجامعة.. راح ملبس الموضوع كله صيغة غامضة عن طريق كتاب اهبل لقاه في أي مكان، ولم نسخه كلها من المكان اليل لقاه فيه.. ويا سلام لو كان الكتاب أصلًا حواليه رغي كتير من زمان.. مش بعيد يكون لقى الورقة إياها اللي كتبها المجنون اللي اسمه عمر جمعة.. واستغل الموضوع لصالحه كويس.. وممكن يرميلنا في نظريات وأرانب سبق، على رأي الدكتور سليمان، وهو شغال بيخطط لجرايمه كويس أوي أوي.

ثم سحب نفسًا عميقًا من لفافته، ودفنها في المنفضة، وكأنه يضع النهاية

لتحليله العبقري، فتململت في جلستي قليلًا.

- ما لك.. شكلك مش عاجبني.

- مش عايز اقفلك واقفل في وشك السكك.. بس الموضوع مش مريحني خالص..

- مش مريحك ازاي.. ويعدين ما لك وشك مش عاجبني.

- مصدع جدًّا بقالي شوية.. شربت قهوتين في الجرنان وادي التالتة عندك آهو وبرضه الصداع مش عايز يروح.

اقترب مني ونظر في وجهي كأنه يراقب سلحفاة في حوض زجاجي ثم جسّ رأسي بكف يده، وابتعد كأنها لسعته عقربة أنثى متحمسة.

- إنت مولع نار.. إنت ما لك في إيه؟!!

- شكلي لقطت دور برد ولّا حاجة.. هاتلي قهوة بس وقرصين أي مسكن وهبقى كويس..

فتح الباب ورفع عقيرته الأجشة ينادي على بيومي، فجاءه شابٌ نحيل يرتدي الزي الميري المميز لجنود الخدمة الإجبارية.

- بيومي فين يا بني؟

- ما عرفش يا باشا.. بس شكله راح يجضي طلبات لعلي بيه من البجالة..

لكنة صعيدية محببة للنفس.. استبدال حرف القاف بالجيم والضغط على مخارج الألفاظ بكثرة.. ذكرتني بصوت جدّي عندما كان يحكي لي - رحمه الله - سيرة أبو زيد الهلالي.. لماذا أشعر بتلاحق أنفاسي بهذا الشكل..

- طيب روح هات لنا واحد قهوة من البوفيه.. وقول لجابر يجيبه من البن بتاعي.

- أوامرك يا سعادة البيه.

ثم أغلق الباب وأحضر من درج مكتبه قرصين من دواء مسكن شهير، وجلس خلف مكتبه يراقبني وأنا ابتلع الأقراص بكوب ماء فقد برودته من كثرة وضعه فوق الطاولة الصغيرة.

- كنا بنقول إيه بقه؟

- اسكت وما تكلمش خالص لحدّ ما الحرارة تهدئ وتعرف تاخد نفَسك.

- والنبي بلاش شغل الأمهات ده وخلينا في المهم.. أنا كويس مافياش حاجة.. آه كنا بنتكلم عن أن الموضوع مش مقنعني أبدًا.. حاسس إن في حاجة ناقصة.. وعصام ده أكيد مش عبقري لدرجة إنه يقعد يدرس في موضوع الكتاب ده، ويدور ويبحث في التواريخ عشان يعمل هالة رعب حوالين الكتاب، تخليه أرنب سبق زي ما انت بتقول، ويلهينا عن..

طرقات مكتومة على باب الحجرة، فأصدر عماد أمره للواقف خلف الباب بالدخول.. ليدخل ذلك الجندي الصعيدي، فيشير له عماد كي يضع القهوة أمامي.

- شكرًا يا بلدينا.

- العفو سعادتك.. يلزم خدمة تانية..

- لا شكرًا.. إنت منين يا دفعة.

- آني من شندويل سوهاج جنابك..

- ما شاء الله بلد الحبايب.. على كده تعرف الأستاذ عبدالمنعم الشندويلي؟؟

- معلوم جنابك.. ده اخو جناب العمدة، وعضو مجلس الشعب الـ ـه دي.

- انصراف يا بني خلاص، وسيب البيه يرتاح.. ولما يجيي بيومي ابعتهولي.

اعتدل الجندي مؤديًا التحية العسكرية ثم انصرف مسرعًا.

رشفات من القهوة.. غريبة هي هذه القهوة في طعمها.. يبدو أن سكّرها زائد نوعًا أو أن فيها نوعًا جديدًا من التحويجات التي يحبها عماد ويتفنن في طلبها من بنّ شاهين.. ربما قريبًا ظهر نوع قهوة جديد يسمى تحويجة الرائد!!

- مين عبد المنعم الشندويلي ده بقه؟؟

- ده كان مدرس مع ابويا الله يرحمه، بس أصغر منه في السّن.. بس باين ربنا فتح عليه وبقى سيادة النائب.. إنت عارف الصعيد بقه.

- بس نائب شندويل ما اسموش كده.. ده لسه الصبح النهاردة على كان بيحكيلي على ابن عم أبوه فارس الشندويلي اللي دخل المجلس ومالحقش يتهنى بيه..

- جايز العسكري اتلخبط ولا حاجة.. ده عيل غلبان برضه..

رشفة أخرى من القهوة والصداع لا زال يفتك بمقدمة رأسي.. ربما بعد لحظات لا أستطيع رفع جفني من كثرة ألم الصداع فوقهما!!

- طب يا عماد أنا مش مظبوط خالص.. أنا هقوم اروح يمكن اعرف اريح دماغي شوية.

- طيب استنى هبعت معاك علي يوصلك.

- مالوش لزوم.. يمكن تحتاجه هنا ولا حاجة.. التاكسيات كتير تحت وانا مش رايح زنزبار يعني.. أنا يادوب رايح القلعة اشوف امي واطمن عليها.. اليومين دول هي معسكرة في بيت جدي عشان السلامة النفسية.. إيه الدوشة اللي برّة دي؟؟!!

صوت شجار على ما يبدو.. وصوت جلبة وصخب وأصوات مرتفعة، وكأن المديرية احتلها فيلق كامل من الجيش الروماني أو فرقة مارينز من ذوي الجوانب الحليقة والسلاسل الفضية ذات اللوحات..

- استنى اقوم اشوف في إيه..

ثم فتح الباب والدنيا تغيم أمام عيني.. يا لهذا الصداع القاتل.. ربما بسبب إقلاعي عن التبغ منذ مدة قصيرة وإفراطي في شرب القهوة.. أو ربما من كثرة التوتر والصخب وقلة النوم.. وربما من كثرة التفكير فيما ستواجهه هذه الفتاة المتمردة المسكينة معي من أيام حالكة!!

- في إيه يا بني.؟؟

- علي باشا سعادتك أغمي عليه.. هو كان تعبان شوية وجبنا له مسكّن وخافض حرارة وبرضه مفيش فايدة، فا كان رايح مع عبد الباقي مستشفى الشرطة..

- طب اطلبوا الإسعاف بسرعة وانا جاي.

ثم اتجه مسرعًا نحو المقعد الرابض خلف مكتبه، وراح يرتدي سترته مسرعًا.

- في إيه يا عماد؟!!

- علي أغمي عليه على السلم، وشكله تعب ولا حاجة.. العسا...
بيقولوا تعبان من الصبح وحرارته مرتفعة.. هروح اشوف ماله لـ...
ما الإسعاف تيجي..

- طب استنى هاجي معاك..

الغمامة السوداء تتكاثف فوق جفني، ورأسي موشك على الانفجا...
وأطرافي باردة كالثلج.. ما الذي حدث لي؟؟ لو كانت هذه أنفلونزا ا...
إصابة فيروسية بأي التهاب معروف لشعرت بضيق في حلقي أو كحة أ...
أي شيء.. لكن كل ما هناك هو الصداع، وذلك الطنين الذي بدأ يدوي ...
، ذني عندما نهضت..

- أكرم.. إنت وشك اصفر كده ليه..

- مش عارف يا عماد.. شكلي كده..

ثم هويت..

هويت في تلك البئر السحيقة المظلمة.. لا أرى أطرافي ولا أرى عماد و لا
أرى الغرفة من حولي؟؟

هويت بلا ارتطام وبلا سقوط.. فقط أنا داخل تلك البئر المظلمة..

هويت كما لم أهوِ من قبل..

هويت نحو الظلام البكر الخالي من الشوائب..

وهنا فقط.. أدركت الحقيقة..!!

الظلام.. المعرفة.. الحقيقة..

* * *

حاشية لا بد منها

هل أنت ذاهب إلى حتفك يا عصام؟؟

أنت لم تكن يومًا ساذجًا أو قليل الذكاء أيها الطبيب النجيب.. لقد دخلت كلية الطب بمجموع حسدك عليه أوائل الثانوية العامة لأنه جاء بلا أي مساعدات أو إعانات خارجية أو داخلية.. كنت تدرس وحدك وتستوعب وحدك وتحفظ وحدك، وها أنت تشارك أولاد الذوات والأوائل أماكنهم في قلب حصنهم المنيع.. ألم تسمع أن الطبيب لا بد أن يكون غنيًا حتى يتفرغ لعلاج الناس.. من قال ذلك.. ربما "هنري ليستر" يومًا أو ربما ذلك الرجل العجوز المتغضن القابع فوق المصطبة الأسمنتية بميت الحبش.. والذي كان سببًا في مجيئك إلى هذه الدنيا القاسية.. فقط ليلقي لك بحكمته الشهيرة "خليك على قد رجليك يا عصام يا ابني.. إحنا غلابة"

لماذا إذن جاء بك وبإخوتك الأربعة إلى الدنيا؟!! هل كان يظن أنكم سوف تلقون بكل أحلامكم عند قلميه المتشققتين، وتتفرغون لتحقيق حلمه في أن يكون أبًا ومزارعًا وصاحب أطيان يرعاها أولاده كالغنم في المرعى ثم يهشهم آخر الليل ليتراصوا بجواره يأكلون ويشربون ويتناسلون!!

جاءتك الرسالة من جديد على هاتفك المحمول ماركة نوكيا.. الذي ابتعته مسروقًا من شارع عبد العزيز بأربعين جنيهًا؛ لتحمل محمولًا.. يومها ألقيت وراءك بكل أحلامك.. ألقيت بشهادة التخرج الفاخرة بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف وبشهادة الماجستير في طب المناطق الحارة، ورحت تعمل بدوام جزئي كفني معمل في شركة أدوية تمنحك فُتاتًا تذروه الرياح، لا يكفي حتى لإيجار تلك العيادة الحقيرة في أطراف حدائق المعادي التي نسيت فيها حلمك بأن تكون مخلصًا تهيم على وجهك في مجاهل أفريقيا أو ضفاف الأمازون، وتحولت إلى طبيب باطنة تعطي حقن الإسهال وتكتب

وصفات علاج القولون!!

جاءتك الرسالة تستحثك على الوصول سريعًا إلى مكان اللقاء المرتقـ .. اللقاء الذي تنتظره طويلًا منذ أن وضعت قدماك في هذا المستنقع الآ.. لتصبح قاتلًا محترفًا بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الرفيعة!!

جاءتك الرسالة بعد مكالمة مقتضبة من صاحب الصوت الـ.. الساخر دومًا..

- إزيك يا عصام..

- زي الزفت.. الواد خطرف في الكلام وقال الدكتور.. والبوليـ.. بيدور علينا في كل حتة..

- إحنا مش اتفقنا إن الجرعة هتخلص عليه قبل ما يعرف يفتح بقه

- ده اللي اتفقنا عليه.. لكن الظاهر إنه عشان كان ضريب طول عمـ.. وبياكل المخدرات أكل.. التأثير اتأخر شوية..

- ما علينا.. عايزك تقابلني في العوامة بعد ساعتين.

العوامة التي أنقدك هو شخصيًا رزمة من الأموال كي تؤجرها باسما.. الكامل؛ لتصبح مكانًا للقائك به وبذلك التعس حلمي.. حلمي الذ.. آمنت بالتخلص منه، فور أن عرض عليك الفكرة لأنه أصبح خطرًا ما.. عليكما معًا.. أنت تكره القتل غير المبرر.. كل ما كان مبررًا على الأقـ.. من وجهة نظرك المريضة المشوهة.. لكن قتل حلمي كان ضروريًا؛ لأ.. الطبخة لن تتلف من أجل جرامين من الملح.. وجرامان من الملح كانا أكـ.. قيمة من وغد سفيه مثل حلمي!!

- العوامة متراقبة يا جمال.. هخشها إزاي؟؟ إنت عايز توديني .. داهية واشيل انا الليلة كلها!!

أنا دبرت كل حاجة.. ثم انت مش خلاص رحت لعبده الحرك وهو سَتْفُلَك كل الدنيا..

أيوه ابن الكلب الواطي.. نسي الشهادات الطبية اللي كنت بضر بهاله بخصم النصّ ولهف مني خمس تلاف جنيه عشان بطاقة!!

- خمس تلاف دول ولا حاجة بالنسبة لحياتك يا دكتور.. ما تتأخرش.. بعد ساعتين بالضبط..

ثم أغلق الخط تاركًا إياك تفكر في ذلك الكمين.. أهو كمين فعلا يا عصام وأنت ذاهب لحتفك.. هل سيتخلص منك جمال كما فعلتها بحلمي ام سوف يترك هذه المسائل للشرطة؟؟ منذ أن أصبحت اللعبة لعبتكما معًا ، أنت تجهز لهذا اليوم الفاصل.. منذ أن أصبح حلمي عبئًا وأنت تستعد لليوم الذي سوف تصبح فيه عبئًا على عاتق ذلك المجنون جمال.. لكنك أتممت استعداداتك كاملة يا عصام.. إن جمال به عيب خطير، فهو مطمئن إلى ما يشربه بدرجة كبيرة.. وأنت كنت تضع دواء سيولة الدم في كوب الشاي الأسود المرّ الذي يحبه جمال كلما وطئت قدماه بلاط عيادتك المتسخ.. إنه جاهز الآن حسب خبرتك الطبية المشهود لها بالكفاءة كي يحدث أي جرح به مصيبة لا تنتهي إلا بموته كدجاجة مذبوحة.. فقط احمل سكينك الأثير والذي مزق يومًا كعب تلك السافلة أمل.. احمله كي تعرف جيدًا كيف نستخلصه مع ذلك الوغد!!

السافلة التي لم تحمد الله على أنها رزقت بطبيب نجيب ينتظره مستقبل مبهر مثلك.. وراحت تلهو وتلعب مع عجوز مُتَصابٍ لتعمل لديه في مشتله المنمق.. ثم لتصبح بعد ذلك رفيقة فجوره وفسوقه على فراشه الوثير في ركن مشتله.. الفراش الذي لم ينعم بمتعة عليه كالتي منحته إياها هذه السافلة الوضيعة مقابل ماله الفياض وعلاقاته المتشابكة.. أم ترى هو مقابل رجولته المتفجرة وهو على مشارف الستين!!

لقد انتهت بتلك السكين المعدنية الرائعة.. السكين التي
ملمسها المعدني إثارة لن تمنحك إياها ملامسة كل نسوة الدنيا
مجتمعات طوع أمرك.. إن السكاكين لا تخون ولا تبيع نفسها، ولا
بالطيبة يا عصام.. ليتك كنت تقدر أن تتزوج من سكين..!!

تصل إلى باب العوامة الخشبي المتشقق.. وتنظر يمنة ويسرة، فلا
يحرس المكان.. إن ذلك الوغد قرر تطبيق الخطة الأولى إذن.. لقد
الشرطة بطريقة ما حتى يخلو له الجو فيقدر على قنصك يا عصفورًا
كمين صياد ماهر..

تتظاهر بضبط حزامك الذي يحمل بنطالك المتهدل على وسطك
لتمنح نفسك قليلًا من طمأنينة بملمس اليد الخشبية لسكينك الحبيب..
تدق الباب كما اعتدت وتنتظر تلك الثوان العشر حتى يفتح الباب
مغلقًا الباب خلفك..

العوامة التي يلفف شعاع الشمس الوليد في صباح ذلك اليوم القائظ
من شهر مايو، عبر خصاص النافذة الخشبي فيسقط على أثاث ينتمي لنهاية
ستينات القرن العشرين، تشققت أخشابه وزحف البق والعث إلى قماشه
وحشوه.

- تعالى يا عصام.. اقعد.

- إنت عملت إيه عشان تروق الجو كده..

- بعت العسكري يجيبلي سجاير من أسوان.

نبرته الساخرة وابتسامته المحملة بأطنان من السخرية السوداء، والمرارة
التي تقفز من عينيه المجنونتين.. يوم أن عرض فكرة إلقاء نفسه بين براثن
الشرطة؛ ليحول تفكيرهم عن العملية الجديدة، كنت على وشك غرس

.حين كاملًا في قلبه حتى اليد الخشبية الباردة.. اللعنة عليك أنت لا
ف الشرطة ولا أساليبهم، ولا كيف سيخرجون منك تاريخ حياتك
لا.. إلا أن عينيه المجنونتين جعلتا من فكرته واقعًا فرضه على الجميع..
اك وعلى حلمي وعلى...

- المهم.. عايز إيه؟؟

- عايزين نخلص الموضوع ده بقه وكفاية كده..

- وحدّ منعك.. أنا كده كده دبرت أموري.. عصام أحمد عبدالقادر الحبشي مالوش وجود في الدنيا دلوقتي، والبركة في عبده الحرك، والخمس بواكي اللي لهفهم حار ونار في جتته.. وصورة البطاقة والباسبور بقت صورتي دلوقتي.. شعر محلوق ودقن طويلة وشوية تشوهات في الوش لحد ما اهبّج منها واعرف اعمل اللي انا عايزه بالفلوس وانا بعيد..

- لو كان الموضوع ببساطة كده.. ما كانش حد تعب يا دكتور..

- تقصد إيه يا جمال مش فاهمك..؟؟

- تشرب حاجة؟؟

نظرت له من خلف العدسات الخضراء التي وضعتها منذ أن أصبح عصام الحبشي الشاب ذي النظارات الطبية في عداد الهاربين المفقودين المنتهين من خريطة البشرية.. وابتسامة السخرية تكاد تقفز من وجهك لتصدم وجهه ساخر الملامح متضخم القسمات.

- لا متشكر.. سبقتك.

- لا ما تقلقش.. مش هحطلك حاجة في الشاي ولا في العصير.. وهشرب منه قبلك كمان..

- ما بحبش اشرب ورا حد يا جمال.. ريح نفسك وقول الكلمتين الل
انت جايبني عشانهم عشان نخلص.

- خلاص يبقى سيبني اشرب شوية شاي أنا بقه..

ثم نهض ومشى متثاقلًا نحو المطبخ الصغير.. وأشعل الموقد الغا
عديم الفرن.. وراح يعدّ كوبًا كبيرًا، لقمه بملعقتين من الشاي و
معالق من السكر، منتظرًا حتى يعلن الماء غضبه من كل تلك الحرارة ال
تسلط عليه، وهو حبيس البراد المعدني الصدئ.

- إنت عارف يا عصام.. أكتر حاجة كانت عاجباني فيك ذكاء
ومن ساعة ما اشتغلنا مع بعض وانا إعجابي بيزيد بيك أكتر وأكث
ومن ساعة الموضوع ما بقى في حجرنا أنا وانت بس وانا مش عا
لحظة الفراق تقرب..

- ده إيه الرومانسية دي كلها.. بقولك إيه يا جمال.. إنا مش فايقلك
البوليس قالب عليا الدنيا وعايز ألحق ألم أموري عشان اعرف امش
من الخرابة دي بالذوق.. هات الخلاصة بعد إذنك عشان كل وا
يروح لحاله..

صبّ كوب الشاي الثقيل، وهو كمن يتلذذ بحرق أعصابك مثلما يحر
اللهب أطراف البرّاد الصدئ.. وراح يتباطأ في صبّ الماء فوق الشاي الثق
الأسود.. وملعقته المعدنية تقلب جنبات الكوب الزجاجي..

- تسمع عن ميثيل الزئبق يا دكتور..

- ال إيه..؟؟؟

- Dimethylmercury ده واحد من المركبات الكيماوية المشهور
أوي من الزئبق، وده له حادثة مشهورة أوي هحكيلك عليها وا

بنشرب الشاي..

يداك تقبض على السكين وتخرجه إلى جانبك، وعرق غزير يتكاثف فوق نصلها المعدني..

- سنة ١٩٦٦ .. دكتورة كيمياء غير عضوية اسمها كارين ويترهان.. وقعت نقطتين من السائل ده على إيديها اللي كانت لابسة فيها جوانتيات لاتكس محكمة.. الغريب بقه إن السائل اتسرب ولمس جلدها وامتصه الجسم وخزّنه.. الحقيقة هي ما كانش قصدها؛ لأنها كانت فاكرة إنه زي الزئبق العادي جرعته السمية بتطول، وبتحتاج لاحتكاك مباشر مع المعدة.

- وآخرة المحاضرة الطبية العظيمة دي إيه.. أنا هقوم امشي في ظرف خمس دقائق لو ما خلصناش وعرّفتني إنت جايبني هنا ليه؟!!

جلس في مواجهتي مسلّطًا عيناه الساخرتان، وراح يتابع في برود:

- بعدها بأربع شهور قابلَت أحد زملائها.. عبقري السموم فاس أبوشيان.. الراجل ده بصّ في وشها وحس إن في حاجة مش مظبوطة.. ولما سألها قالتله إنها تقريبًا مصابة بنزلة برد بس قوية شويتين، وهتشفى منها بس بعد فترة..

ثم عاد للوراء في مقعده، وهو يرشف الشاي بصوت مسموع.. وعرق غزير يتساقط من فوق عينيك يا عصام.. قليل من الهواء ليمكن للمرء أن يتخلص من هذا العرق..

- بعدها بدأت حاجات غريبة تظهر عليها بالتدريج.. ضيق تنفس.. خلل في وظائف الكلى.. فقدان شهية عام.. غوار في العين، ووزنها بقى بينزل بسرعة شديدة.. وبعد شهرين لما شخص الدكاترة في مستشفى نيوهامبشاير بتسمم الزئبق.. كان الموضوع انتهى..

ودخلت غيبوبة طويلة بعدها ماتت.. تخيل كل ده من كام مللي جرام
من المادة السحرية!!

- وأنا إيه علاقتي بالكلام ده كله.. أنا قايم..

- علاقته بسيطة أوي يا دكتور..

ثم نهض من مكانه وأدار ظهره لك متابعًا - وهو يتلصص من خلف
الخصاص الخشبي العتيق -:

- من ساعة ما بقينا في الهوا سوا وانا عمال أفكر اجيبك إزاي ومنين
إنت ما بتشربش حاجة عند حدّ.. ما بتدخنش وطول الوقت لابس
جوانتي تقيل.. ما بقتش عارف اعمل معاك إيه بالضبط.. لحد ما
الفكرة دخلت دماغي وعشعشت فيها أول ما شفت المقالة اللي
بتتكلم عن المادة دي عالنت.. بس برضه فضل الموضوع صعب..
أدخلها جسمك إزاي.. لحد ما وصلت للحلّ..

الآن فقط يا عصام - مع كلمات ذلك المختل - تتذكر كل شيء.. فقدان
شهيتك الغريب منذ ثلاثة أيام.. وبولك المحتبس الذي يسيل عرقك أنهارًا
منذ يومين.. وأنفاسك المتلاحقة منذ أن فررت من العيادة و...

- الحقيقة إن حلمي الله يرحمه كان بيحبك أوي.. أول ما عرضت عليه
الفكرة قبل على طول.. أكلة سمك صغيرة عندك في العيادة، وفيها
السمك البوري المشوي بزيت ولمون اللي بتحبه.. في قلب السمكة
اللي عليها العين كبسولة صغيرة كده مرشوشة على لحم السمك
الأحمر..

تمسك السكين يا عصام وتستعد للقفز فورًا على غريمك.. لن تخور
قواك الآن.. ستقتله حتى ولو كانت هذه آخر لحظات حياتك.. ستريق دمه
هنا فوق تلك الأرض، ثم تلعقه بلسانك، وتلقى حتفك فوق جثته الخالية

من دماء..

تقفز ناحيته غاضبًا.. صارخًا.. بكل ما تبقى من قوة في جسدك الذي أصابه الهزال من قلة التبول وقلة الأكل.. تقفز قابضًا على سكينك الحاد الأثير المنطلق في مهمته الأخيرة نحو...

فقط ليلتفت نحوك وكأنه كان يتوقع ردّ فعلك الأخرق المتسرع.. فقط ليتفاداك في هدوء، ويسدد لكمة تعرف إلى أين تذهب على مؤخرة رأسك الواهن الواهي..

وهناك يا عصام على أرض تلك العوامة.. فوق السجاد الذي تهدلت أطرافه.. ترى سكينك الأثير وشعاع شمسي برّاق ينعكس فوق نصلها اللامع..

وكان هذا آخر ما ستراه يا عصام..

* * *

حاشية لا بد منها

إنه الظلام..

شعور عميق بأني عدت إلى رحم أمي وتخلصت من تلك اللحظات السوداء التي مرت بشريط حياتي..

لحظة أن أمسك أبي بتلابيبي وأنا بعدُ طفلٌ في العاشرة من عمري.. ونظر إليّ بعينيه السوداوتين نظرة جمدت الدماء في عروقي الصغيرة المتوردة.

- إنت ضربت أختك يا أكرم!!

- يا بابا أنا كنت...

- إنت ضربت أختك يا أكرم!!

- لا يا بابا أنا كنت بهزر معاها بس..

- ما تكدبش.. اوعى في يوم من الأيام تكون كداب.. إوعى تقول حاجة غير اللي جواك أبدًا.. إنت راجل.. والراجل دايمًا يقول الحق حتى لو غلط..

رأسي الصغير تومئ ببطء.. ويداه ترتخيان عن تلابيب قميصي الكاروه ذي الأكمام القصيرة.. عيناه المرعبتان تحملان كل حنان وقوة الدنيا وهما تلتمعان ببريقهما الأخاذ.. بريق لم ينطفئ سوى يوم أن ذهبت الروح إلى خالقها.. وكأن تلك الروح هي من كانت تمنح العينين ذاك البريق.

شعور عميق بأني عدت إلى رحم أمي وتخلصت من تلك اللحظات السوداء التي مرت بشريط حياتي..

يده الحنونة تربت على كتفي.. في شرفة منزل يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر في أطراف قلعة صلاح الدين.. ويده الأخرى تحمل كوب الشاي الساخن الأسود وكأنه خرج لتوّه من جسده المتماسك ذي الكرش الصغيرة المريح منظرها للنفس..

عيناه تلمعان بذاك البريق الساحر من خلف نظارات اقتضت أوامر الزمن أن يضعها هناك..

- إنت بتشرب سجاير يا أكرم؟!!

- يا بابا سجاير إيه هو انا..

- إنت بتشرب سجاير يا أكرم؟!!

كفه العريضة تضيق على كتفي.. لمسة من تلك اللمسات التي يشعر الأب بها ولده الشاب ذي العشرين ربيعًا أنه لم يكبر بعد.. فقط تحول من

طور الضرب بطرف العصا إلى لمس الأكتاف والكلمات اللاذعة..

- أنا ما بشربش يا حاج.. دي ساعات تفاريح كده مع العيال..

- خش اندهلي على ابتسام..

- وعايز ماما في إيه طيب دلوقتي وإيه اللي دخلها في الكلام.

- روح قولها تجيبلك طرحة وجلابية من بتوعها عشان حاجة أختك أسما مش هتيجي على مقاسك.

تطرف عيناي نحو وجهه الصارم المتحفز ثم تذهبان إلى آخر ذلك الزقاق الضيق المرصوف حيث مقام صغير بقبة خضراء زاهية..

- ولزومه إيه الكلام ده يا حاج..

- عشان أنا قولتلك قبل كده وهقولك تاني وتالت..

يداه القابضة على منابت كتفي تعطيني إشارة آمرة أن ألتفت نحوه لأجد كشافات الجستابو اللامعة القابعة خلف نظارته الزجاجية تتفحص وجهي المتلون.

- إوعى تكدب أو تزيف الحقيقة أبدًا.. اللي انت بتعمله تقوله وانت عندك الشجاعة إنك تقوله.. الغلط غلط في كل الأحوال يا بني.. بس لما ينكشف ستر ربنا عليك إوعى تنكر أو تزيف أو تلعب بالكلام.. قول الحق ولو على رقبتك.. وطول ما انت بتقول الحق عمرك ما هتخسر.. حتى لو ما كسبتش أبدًا..

- إزاي بقه يا حاج مش فاهمها دي..

- بعدين هتفهمها كويس.. بعدين..

لم أكن أعرف أن ذلك اليوم قد يأتي يا أبي.. لم أكن أعرف أن ذلك اليوم

الذي اضطر فيه أن أكون حقًا ومحقًا.. لم أكسب ولم أخسر.. سوف يجيء مظللًا علي وفاردًا أجنحته السوداء القاتمة.

لحظة أن خسرت حب أول فتاة..

- أنا خلاص ما بقتش قادرة يا أكرم..

- وأنا ما خبتش عليكي حاجة من أول يوم عرفنا فيه بعض يا نور.. إنتي عارفة من الأول.. أبويا ميت وامي مرضت من زعلها عليه.. أمجد هيهاجر أستراليا وأسما جوزها زَيِّنا.. ابن ناس وبس.. يعني انا اللي متكفل بأمي من الأول للآخر.. أنا ما خبتش عليكي وكنت صريح من أول لحظة..

أزفر دخان لفافة التبغ فوق رأسي مشعث الشعر فيقف منتصبًا في هواء الكورنيش الرطب في شهر أغسطس.. المكان الذي احتضن أجمل جلساتي وحواديتي وكلماتي في أذن نور.. المكان الذي سأخسر فيه حب نور..

- وانا ما قولتش إنك خبيت.. وما قولتش إن ده اللي تاعبني يا أكرم.. أنا ما بقتش قادرة أستحمل بعلك عني ورميتك في قلب الشوارع كل يوم من الفجر لنص الليل.. وفي الآخر عشان إيه.. الألفين جنيه اللي بتقبضهم دول ما يأكلوناش فول وفلافل كل يوم يا أكرم.

- عايزاني اعمل إيه يعني..

- عايزاك تفتح مخك يا أكرم..

- قولتلك ما اعرفش يا نور.. أنا ممكن أكرمش قرشين في جيب عسكري غلبان عشان آخد كلمتين من ظابط ولا أمين شرطة.. ممكن أستغل إن عماد صاحبي واعمللي خبرين ولّا سطرين في قلب تحقيق.. لكن ما اعرفش افبرك.. ما اعرفش اكدب وما اعرفش

اكتب غير الحقيقة.. ما اعرفش احط إيدي في دماغك اللي بيقرالي والعب له فيها بمفتاح فرنساوي عشان افكله صواميله وابلعه اللي انا عايز اقولهوله..

- وحد قالك إن ده كدب.. ما الصحافة طول عمرها كده.. يعني لما صحفي يكتب (الممثل الشهير في أحضان الراقصة الفاتنة على الدائري) ويطلع الخبر ممثل نصّ لبّة في المسرح القومي مع راقصة في شو روسي حدّ قاله إنت بتكدب؟!!

- دي مش صحافة بقه وانا ما اعرفش اشتغلها.

- ودي مش عيشة وانا ما اعرفش اعيشها..

ثم نهضت من جواري وأحكمت تنورتها الجينز حول جسدها ودارت به حتى واجهت الشارع.. ثم مدّت يدها اليسرى قابضة على بنصرها الأيمن مزحزحة قيدها الذهبي الذي أشرق وجهها بكامل استدارته يوم أن لفّته حول أصبعها الطري.

- لو قلعتيها مش هتلبسيها تاني مهما حصل.

- الموضوع خلص يا أكرم.. شبكتك هتكون عندك بكرة الصبح في الجرنان القرديحي بتاعك.. ولو أن حق التاكسي اللي هيوصلها هيكلف أكتر من حقها.

منحتني ابتسامة قاسية ساخرة جبارة متكبرة ساخطة لائمة.. ثم منحتني دبلتها الذهبية وسعلة خفيفة لا مقام لها في قلب هذا الليل الرطب الحزين المختنق.. سعلة اقتلعت قلبي وألقت به لأسماك البلطي عشاء هنيئًا مريئًا..

لكن الصوت يأتي من هناك..

من قلب ذاك الظلام الوليد..

ستار ينتظر من يزيحه ليعرف..

- ولد يا أكرم.

- نعم يا حاج.

- إنت قاعد عندك بتعمل إيه.

- تعبت يا حاج ونفسي ارتاح.

وجهه المتغضن العجوز يقترب مني في الظلمة يشع نورًا.. يشق الظلمة كسكين يشق قماشًا أسود صانعًا منه ستارًا تمرّ منه الشمس إلى تلابيب الظلام المحكمة.

- لسه المعاد ما جاش يا أكرم.. وانت وراك كتير لسه ما عملتوش.

- وهعمل إيه يا حاج.. ما هي مقفلة زي الدومنه.

- لسه فاضل واحدة يا أكرم.. عدّ الورق هتلاقي واحدة فاضلة لسه..

- ودي ألاقيها فين يا حاج.

عيناه اللامعتان الغائرتان في وجه متغضن.. الأستاذ فهمي عبدالله حبيب.. مدرس أول التاريخ بمدرسة الطبري الثانوية للبنين..

- لو دورت كويس هتلاقيها كانت تحت إيدك ومعاك طول الوقت.. بس انت اللي مش عايز تشوفها يا أكرم.. إنت اللي مش عايز تشوفها.

ثم منحني تلك الابتسامة الأبوية القوية.. تلك الأشعة غير المرئية.. الأشعة التي تنتقل من قلبه الكبير إلى قلبي فتغمرني علمًا ومعرفة.. ملامحه تذوب في قلب الظلام من جديد وأنا أصرخ مناديًا إياه.

- أبويا.. خليك هنا يا بابا أنا محتاجلك.

- إنت محتاج تعرف.. افتح عينك عشان تعرف يا أكرم.. افتح عينك يا ولد..

- مش قادر يا بابا.. تعبت.

- افتح عينيك يا أدهم يا شرقاوي.. افتح عينيك يا أدهم يا شرقاوي..

وراح صدى عبارته مناديًا إياي باسم شهرتي أيام الجامعة يدوي في جنبات عقلي.. أدهم أرّق منام كل أساتذة كليته المنكّبين على صدورهم يمدحون السلطان ويخطبون ودّه.. أدهم الذي كان يطبع مقالاته السرية عند صديقه الصدوق ونصفه الآخر في الجامعة.. فقط ليجد نصفه الآخر في مكتب العميد متفقًا على كل بنود الخيانة والتسليم..

"قررت كلية الإعلام فصل الطالب أكرم فهمي عبد الله تأديبًا، وذلك لتجاوزه حدود الآداب العامة وإخلاله بتقاليد الجامعة وعدم احترامه لأساتذته".

سطران حولاني إلى أدهم الشرقاوي.. أدهم الشرقاوي الذي وضعه بدران في يد أعدائه عن طيب خاطر..!!

- يا بابا أدهم مات وشبع موت..

- أدهم لسه حي.. بس يا خوفي من بدران.

ثم راحت تلك السطور ترتسم أمام عيني المظلمتين..

وكأن من قلب الظلام ظهرت عيناها تطلقان في وجهي مئات الدفقات من الضوء..

- اقرا معايا يا أكرم..

- أقرا إيه يا ولاء..

- *اقرا معايا المكتوب..*

ثم يتردد صوتها الحنون القوي في جنبات الظلام المشتت بضوء عينيها الساحرتين..

"راح سمير يقترب من سطح الماء الرقراق محاذرًا أن تزلّ قدماه فيسقط على وجهه في صفحة الماء الواسعة.. إنه يحتاج أن يعرف السر.. ولولا هذا لما اقترب من صفحة ماء في حياته إنه لا يقرب الحمام في آخر الحارة، ويفضل الاستحمام بذلك الكوز وداخل الطشت الخاوي.. إنه لم يعتد يومًا مغاطس البشوات ولم يحبها.. ولم يحب النيل ولا مراقبة صفحته الباردة من فوق سور الكوبري.. لكنه لا بد أن يقترب.. إن أسفل هذا الكوبري يقبع كل ما هو ليس مبهجًا له.. خاصة الماء.. الماء الذي يحمل له كل الخوف.. كل الرعب.. كل الرُّهاب".

- *فهمت يا أكرم..*

- *هيدروفوبيا يا ولاء.. هيدروفوبيا.. العوامة.. العوامة..*

- *سمعني وسمعهم يا أكرم..*

أبي.. أمي.. أمجد.. أسما.. جدي.. خالي.. عماد.. آمال سعيد.. أحمد علام.. دكتور سليمان.. ماهر الرفاعي.. حسين مسلم.. عرفة.. علي.. كل هؤلاء وهناك في الظلام ألف وجه ووجه..

إلا أن ذلك الوجه ذي النظارات والرأس ذات الشعر الخفيف راح يحدق فيّ بجنون..

إنه وجه رأيته يومًا في ورقة بيضاء تحمل أسطرًا كتب فيها اسمه

إنه وجه عصام..

* * *

(٢٢)

حاشية لا بد منها

تقود سيارتك كالمجنون يا عماد في شوارع إمبابة الخاوية تقريبًا.. الشمس التي أشرقت منذ لحظات راحت تبدد تلك القطرات العالقة في الهواء الرطب مسببة انعدامًا للرؤية فوق شوارع القاهرة الكبرى.. لكنك ترى الآن وتعرف.. بعد أن أفاق صديق عمرك ومنحك قبلة حياة أعادت لك قليلًا من اتزانك المفقود..

تمسك هاتفك المحمول بيدك اليمنى غير عابئ بناقل السرعة الذي التصقت تروسه عند النقلة الرابعة ولن ترجع ثانية إلا بفرمان سلطاني من حضرة الرائد عماد بك الأول..

- أنا عايز القوة هناك بسرعة يا عبد الباقي إنت سامع؟؟

- سامع يا فندم بس احنا كنا حركناها على المعادي زي ما...

- ترجع يا عبد الباقي فورًا.. أنا مش عايز كلام اهبل وتخاريف.. في بني آدم روحه بين إيدين ربنا دلوقتي، وفي ظابط شرطة مات مسموم.. أنا مش هستنى لما حد كمان يروح عشان القوة اتحركت، على المعادي وانا عايزها في امبابة.. القوة تغير تحرك على امبابة حالًا.. مفهوم يا أمين عبد الباقي..

- مفهوم سعادتك..

الهاتف يلقى في دواسة المقعد قبل أن يكمل عبد الباقي حرف الكاف في كلماته المرتعشة.. وعلبتك الفيات المتهالكة كادت أن تصدم عامل نظافة معلمًا، حاول أن يعبر الطريق أمام الرائد شوماخر في سيارته الفيات التي أوشكت على الانفجار تعبًا مما يفعله بها سائقها!!

فرملة حادة أمام تلك العوامات المتراصّة حاجبة صفحة النيل الرائقة في أطراف إمبابة.. لكنها لا تقوى على حجب الأبراج الشاهقة كالجبال في قلب تلك الشبورة.. ولا على حجب ذلك النادي المائي الذي أوشك على فتح أبوابه الأنيقة لزبائنه المتميزين..

تشهر الطبنجة الميري المشهرة الجاهزة للإطلاق.. وعيونك القوية الصارمة تضيق متحفزة لإطلاق النار على أول فأر يقوده حظه التعس للعبور من هنا..

ضربة حازمة من حذاء جلدي مقاس ٤٦ ذي النعل المتصلب.. تزيح بابًا خشبيًا متهالكًا، وتمنح فرصة لرؤية واضحة في ضوء الشمس الذي يتسلل من خلف خصاص خشبي عتيق.. لا أحد سوى أثاث باهت مهترئ وخصاص خشبي مفتوح وبقايا كوب شاي لا زال ساخنًا..

- أديني جيت زي ما قولت يا أكرم.. اعمل إيه بقه.. مفيش حدّ..

تحدّث نفسك بشفتين غائمتين من جديد.. ثم تقطب حاجباه مراجعًا كلماته كأنها وحي من السماء..

- مفيش حد ازاي..

ثم ترتفع رأسك الحليقة نحو النافذة المفتوحة على شبورة كثيفة بدأت شمس الصباح الوليدة في تبديدها.. وتلتقي عيناك بذلك الانعكاس الضوئي لمعدن براق يقبع هناك منذ ما يزيد على المائة سنة.. إنه كوبري إمبابة.. إنه ذلك الاتصال الوحيد بين عالم الذوات القابعين في أبراج شاهقة عالية.. وعالم الفقراء النائمين في عشش من الطين..

- أمال عساكر الحراسة فين.. والقوة فين.. وموبايلي فين؟؟!!

تمد يديك مفتشًا جيوبك في إحكام باحثًا عن محمولك المنشود.. لتتذكر أنك ألقيته في قاع سيارتك الرابضة في قارعة الطريق..

تركض نحو سيارتك التي وقفت تلتقط أنفاسها وتعتلي مقود قيادتها متناولًا محمولك الذي تفتت أجزاؤه..

تطلب رقمًا تعرف جيدًا أنه سيخبرك بما يجب أن تفعله.. طوال عمرك يا عماد كنت تطلبه باحثًا عن الحقيقة.. ليلقيها على مسامعك بصوت ساخر صاخب.. الآن تطلب رقمًا.. فيجيء من طرفه الآخر صوت واهن..

- عماد.. كوبري امبابة يا عماد..

- كوبري امبابة إزاي يا ابني إنت.. إنت مش لسه قايللي العوامة من شوية..

- القصة التي كانت صفحتها مطوية في الكتاب يا عماد.. هو كان عايزنا نعرف مسرح الجريمة الأخراني فين.. ما تناهِدْنيش الله يكرمك واتحرك.. أنا رايح في الطريق أنا وولاء.. بسرعة يا عماد قبل ما يقتله..

تحاول إدارة السيارة ضاغطًا بكل قوتك على دواسة البنزين حتى تدفع السائل النفاذ في شرايينها العجوز.. إلا أنها أبت وتمنعت وهمدت..

- الله يلعن أبوكي.. هو أنا ناقصك يا بنت الجزمة..

تفتح الباب مسرعًا.. وتصدر فرمانًا سلطانيًا صارمًا لعضلات ساقيك أن انطلقي بكامل قوتك.. ركضًا نحو ذلك الذراع المعدني العملاق.. طوال عمرك كانت فرماناتك سلطانية صارمة لا تتغير ولا تتبدل مهما اقتضت الظروف.. طردت الحب من قلبك عندما عرفت أنك غير قادر على إعطاء شيء آخر غير صوتك في مكالمة هاتفية باهته في صباح حار.. صوت قطار آت من الصعيد يهدر مسرعًا نحو الكوبري.. رئتاك لم تتحملا كل هذا من قبل.. أصدرت فرمانًا بعد موت أبيك أن لا زواج لأن الزواج لا يصلح مع أم لا تعرف من حطام الدنيا سواك.. أطنان من النيكوتين المتحوصل داخل رئتك العملاقة تضغط على كل مخارج أنفاسك محطمة إياها.. لكنك لن تقف الآن.. لا ضرب ولا تعذيب ولا تقفيل قضايا.. إن كان أبوك رحمه الله جبارًا فأنت لست كذلك.. فليخشوه كما يحبو، الكنهم لن يخشوني إلا لعقلي.. راكضًا بلا وعي ولا حسّ حتى تحولت إلى ذرّة من ذرّات الهواء الشحيح تلتحم مع أخرى حتى تحملك إلى المكان..

وهناك فقط انهارت عضلاتك وأبت ألا تستمر.. هناك عندما رأيت صديق عمرك يلفّ ذراعه فوق كتف فتاة خمرية مموجة الشعر تحاول جاهدة أن تحمل جسده النحيل المتعب.. عينان غائرتان ونظارة طبية تحطمت إحدى عدساتها وهو لا يقوى على الوقوف منتصبًا..

- حمد الله عالسلامة..

أنفاسك لا تقوى على التحدث.. أطنان من التبغ تفصح عن نفسها في سعال متواصل.. ثم تقترب منه حاملًا ذراعه الأخرى فوق كتفك العريض

حتى بدا معلقًا كبروميثيوس منتظرًا ذلك الرخ الأبدي ليأكل كبده النابتة.

ـ أديني سمعت كلامك وجينا عند الكوبري.. إيه بقه اللي جاي؟؟

ـ خد نفسك بس.. وبص قدامك على آخر سور الكوبري وانت تعرف..

ثم رفع رأسه محاولًا الإشارة بها نحو ذلك الجوال المعلق بحبل غليظ بسور الكوبري المعدني حرًّا في الهواء نحو النيل، وذلك الرجل متوسط القامة المتشح بسواد غزير يقف هناك رافعًا في يده سكينًا يلتمع نصله المعدني كلما سقط عليه شعاع شمسي وليد، هنا قد تعرف نهاية لكل تلك الحيرة يا عماد..

أو قد لا تعرف شيئًا..

إنها مسألة وقت..

* * *

(٢٢)

كوبري إمبابة.. السادسة والنصف صباحًا

عماد يناولني هاتفه المحمول ويتركني متقدمًا وهو يشهر طبنجته الميري..

- اتصل بعبد الباقي.. قوله القوة اللي جاية من هنا تتحرك ناحية مدخل الكوبري عند رملة بولاق.. وانت ما تتحركش من مكانك تمامًا..

ثم تقدم رافعًا عقيرته:

- إزيك يا جمال..
- عيني عليك باردة يا باشا.. عرفتني من كل المسافة دي
- ما تسيب السكينة اللي في إيدك دي وتعالى نتكلم راجل لراجل..
- لما تسيب الطبنجة هسيب السكينة واقولك على كل اللي انت عايزه.

- ماشي كلامك يا جمال..

ثم انحنى في وضع قرفصاء وعيناه مثبتتان على وجه جمال المغطى بنظارة شمسية أنيقة تكمل سواد ثيابه..

- طبعا انا مش محتاج اسألك مين اللي في الشوال ده..

- عيب يا عماد باشا.. طول عمرك راجل ذكي ولماح.. بالمناسبة البقية في حياتك في النقيب علي والأستاذ أكرم.. أنا آسف هما ما كانوش في الخطة أصلًا.. بس كل خطة وليها أضرار جانبية..

- طيب ارمي بقه السكينة تحت رجلك وخلينا نتفاهم..

عماد يسرق خطوات قصيرة وأنا أحاول مراقبة الطريق بعيني المشوشة وعبد الباقي لا يجيب.. عبد الباقي لا يجيب يا عماد..

- طبعًا سيادتك فاكر إني هحط نفسي هنا من غير ما أمّن نفسي كويس.. القوة اللي جاية مع حضرتك مش هتوصل يا عماد باشا.. أصل العيال الصغيرة هنا في امبابة يموتوا في النبلة.. وبالذات بقه نبلة المسمار على فِرَد كاوتش عربيات الحكومة.. وزمان الأمين عبد الباقي بيغير الكاوتش هو والعساكر..

- طيب بما إنك بقه مخطط كل حاجة كده ومدبرها كويس.. ما تيجي نتكلم بصراحة كده، وتقولّي على السؤال اللي محيرني من أول القضية المهببة دي ما اتفتحت..

- سؤال إيه يا عماد باشا؟؟

عماد يسرق خطوات أخرى وهو يدفع طبنجته الملقاة تحت قدميه بقدميه معًا..

- ليه يا جمال؟؟

- حضرتك سمعت عن المرحوم إبراهيم صفوت؟؟

- طبعًا.. ده انا حفظت الكتاب المنيل بتاعه من ساعة ما لقيناه مع أول جثة..

- المرحوم إبراهيم صفوت كان واحد من أهم وأنبه كتّاب عصره في الخمسينات وأول الستينات يا باشا.. إبراهيم أحمد علي محمد الشهير بإبراهيم صفوت.. الراجل ده كتب في كل شيء.. في الأدب وفي السيرة وفي الرواية وفي القانون.. الراجل ده أفنى عمره في الأدب والثقافة يا باشا.. بس الكلام ده عمره ما كان بيأكّل عيش..

ثم شرد بصره في الفراغ متابعًا:

- إبراهيم صفوت عمره ما كان منافق.. عمره ما كان بيعرف يمسح جوخ ولا بيعرف ياكل على موائد الأمراء والحكام يا عماد باشا.. وفي ليلة من ذات الليالي جت له فكرة عبقرية.. فكرة خلته يصحّي اخويا الكبير مسعد ويقعد معاه ساعتين يكتبوها في ورقة مسطرة.. وبعدين يقعدوا سنتين ونص يكتبوها على الآلة الكاتبة.. وبعدين سنة عشان يطبعوا الألف نسخة على البالوظة لحد ما طلعت التحفة..

- إنت قصدك الكتاب الاهبل اللي اسمه الرُّهاب ده.؟؟

نظرة غاضبة مجنونة ارتسمت على وجهه وسكين ارتفع في يداه نحو الجوال المربوط..

- خلاص حقك عليّا.. وبعدين..

- وبعدين قرر إنه يبيعه.. نزّله السوق ووزعه على بياعين الكتب والصحفيين والأزبكية وكل حتة في برّ مصر.. صرف عليه كل اللي حيلته وكل اللي له في فلوس من ساعة ما اتوظف بالابتدائية لحد ما مات بحسرته على حلمه اللي ضاع..

بعلم ما يخبئه له هذا الشيطان..

- ولاء.

- إيه يا حبيبي.

- اطلعي حالًا.. جَرْي.. على قسم امبابة.. في هناك نقيب اسمه محمود فتح الباب.. تقوليله أنا مراة أكرم فهمي وأكرم مخطوف على كوبري امبابة..

- أقوله أنا مين؟؟

- مش وقت رومانسيات يا ولاء.. بسرعة..

انطلقت تعدو بجسدها الرقيق الخمري ثائر الشعر والقوام محملة بكل ما تتمناه أن تمرّ المحنة وتصبح ما طلبت منها أن تقوله كذبًا.. بينما رحت أقترب مستندًا إلى ذلك السور الجانبي محاولًا أن أبقى قريبًا..

- مات أبويا وسابني أنا ومسعد لوحدنا في الدنيا.. مسعد ما سابنيش لحظة.. اشتغل ميكانيكي وقهوجي ووقف في محل بقالة عشان يصرف عليّا ويخليني اكمل تعليمي.. وفي يوم مضلم ما طلعتلوش شمس راح مسعد.. صحيت من النوم مالقيتوش.. لقيته سايبلي ورقة مكتوب فيها سطرين.. افتح كتاب ابوك هتلاقي اللي انا عايزه.. لما يجي الوقت لازم تكمله..

- وطبعًا هو كان قصده اللي عمله في عمر الفيومي ومحمود الطيب وابنه.. الموضوع بسيط أوي ومش محتاج غير خيال واسع وتخطيط كويس وشوية صدف برضه تسبك الحكاية..

- مش بقولك حضرتك ذكي ولماح.. فضلت قاعد مستني لما يجي

الوقت.. فضلت كتير اذاكر وادرس واقرا كتاب ابويا مرة واتنين وتلاتة وعشرة.. فضلت سنين ألم فيه واخزنه.. استغنيت عن حلمي إني اكمل في كلية علوم واشتغلت سكرتير بالبخس في مصنع أدوية.. ركبت كل السلالم وبوست كل الكراسي لحد ما وصلت للي وصلتله.. بقى معايا فلوس كتير، ومعايا اتصالات كتير، ومعايا برضه نسخ كتير.. الحلم قرب يتحقق وكان لازم يتحقق.

- تسمحلي بقه اولع سيجارة عشان الكلام شكله هيطول،

ثم رفع عماد يديه في الهواء ومدها إلى جيب قميصه وأخرج لفافة تبغ مكرمشة أشعلها بقداحته الخربة التي استجابت من أول مرة!!

- غريبة..

- إيه اللي غريبة يا باشا.. الحكاية دي بتتكرر كل يوم وكل ساعة..

- لا أنا مش بتكلم عن الحكاية أنا ياما سمعت أوسخ من كده بكتير.. أنا بتكلم على الولاعة.. أول مرة تولع من أول تكة كده.. غريبة!!

ثم نفث دخانًا كثيفًا يليق بصدر تفتحت جيوبه من الركض لمسافة كيلومتر في هذا الجو الخانق.

- كمل يا جمال أنا سامعك.

- الباقي انت تعرفه كويس يا عماد باشا.

- طيب وعصام إيه علاقته بالموضوع؟!

- الفلوس بتلوي دماغ أي حد يا عماد باشا.. وعصام كان عايز فلوس وبس.. عصام أخته عندها سرطان دم وفي مرحلة متقدمة جدًا ولازمها فلوس.. أبوه عينيه الاتنين بيروحوا من المية البيضا ولازم فلوس.. رسالة الدكتوراه مش هتتمول عشان عايزة فلوس.. عصام

ذكي الصراحة وخبرته حلوة أوي في السموم النباتية.. وأنا خبرتي في السموم الكيماوية أكتر من ممتازة.. البقية بقه كانوا مجرد عساكر في لوح شطرنج.. حلمي.. العسكري بتاع شندويل اللي جاب القهوة للأستاذ أكرم ولعلي باشا.. كل دول ولا حاجة.. عشان كده أول ما الحدوتة خلصت كان لازم يخلصوا هما كمان..

- طيب ما دام إنت وعصام عارفين إنتو هتعملوا إيه كويس أوي كده وناصحين أوي.. اتسعرتوا على بعض ليه زي أي جوز هجامين ضربوا بعض بمطاوي وهما بيتقاسموا؟!!

عدل من وضع نظارته ومسح عرقًا غزيرًا يسيل على عينه، وسكينه تقترب من الحبل حتى كادت تمزقه.

- عصام هو اللي ابتدا.. في يوم صحيت احلق دقني.. وفي وسط الحلاقة إيدي اترعشت فجرحتها.. قعدت ساعتين أقفل الجرح رغم إنه كان بسيط أوي.. يومها بس شكّيت ورحت حللت واكتشفت كميات دوا زيادة سيولة الدم اللي بيرمهولي في دمي كل مرة بنتقابل فيها.. نفس اللي عمله طبق الأصل مع البت الي كان خاطبها.. تخيل يا باشا واحدة عندها لويس بار وبتاخد دوا سيولة.. عشان كده لما حك دقنها بمبرد الضوافر نزفت..

مبرد أظافر.. إذن دكتور علام كان عبقريًا أكثر من اللازم حين قال إن مبرد الأظافر لا يصنع جروحًا بهذا الشكل.. فقط لو أضاف جرعات دواء الجلطة لكانت الصورة مكتملة!!

- فا طبعًا قولت تتغدى بيه قبل ما يتعشى بيك.

- ولو إن التعبير ده قديم جدًّا يا حضرة الظابط.. بس تقدر تقول إن حاجة شبه كده كانت لازم تحصل.

- طيب وما خلصتش ليه وخلصت نفسك واختفيت؟

ضحكة ساخرة متوترة مع تلك النظرة الساخرة الدائمة في عيني ذلك الرجل.. كنت أتصور كيف طلب بكل برود أن يحضروا له دخانًا وقهوة، وعلى وجهه تلك النظرة الساخرة المستفزة.. لو كنت محققًا للكمته على أنفه حتى يسيل كل دمه المحمل بكرات الدم المجنونة وكرات الدم المختلة.!!

- الهدف ما كانش القتل في حد ذاته يا عماد بيه.. وإلا كان زمانكم بتجروا ورايا لحد ما تبقى وزير داخلية.. الهدف كان إبراهيم صفوت.. إبراهيم صفوت وبس.

- وهدفك اتحقق.. والجرايد بقالها يومين بتكتب عن الكتاب وعن إبراهيم صفوت.. بس مش غريبة شوية إن شهرة الموضوع ما بقتش للكتاب قد ما بقت للقتل نفسه!!

- كلها كام يوم والناس هتجري تدوّر على الكتاب الملعون.. ومش بعيد يفردوله ملاحق وصفحات تتكلم عنه وعن الفنون الأدبية المجهولة اللي فيه.. والناس هتنسى اللي اتقتلوا واللي ماتوا واللي اتقبض عليهم يا عماد باشا.. ده انا بقول عليك ذكي ولماح.. إنت مش من مصر ولا إيه!!

ثم انعقد حاجباه في سخرية، ونظر في اتجاهي وأطلق ضحكته المتوترة الساخرة.

- سبحان الله.. ده إحنا ضاعفنالك الجرعة يا أخي، وبرضه لسه زي القطط بسبع أرواح.

- وتسعة كمان وحياتك زي الأمريكان.. على فكرة.. كل اللي انت قولته ده أي كلام ومفيش حاجة منه هتحصل.. ببساطة كده أنا

مش هسيبك في حالك من لحظة ما يتقبض عليك لحد ما ترمي في السجن.. هنشر حكايتك المختلة وجنانك الأزلي في كل مكان.. جرايد.. مدونات.. نت.. صحيح كتاب المرحوم ابوك هيسمّع يومين ولا ستين وبعدين خلاص.. بخّ.. إنت في مصر يا جمال بيه.. مصر اللي الموضة فيها بتيجي وتخلص أسرع من طبق فول على عربية معفنة..

التمعت عيناه ببريق مجنون ساخر.. وراح ينقل بصره بيني وبين عماد ثم قال متابعًا:

- أنا فكرت في كلام الأستاذ أكرم كويس أوي.. وميزة الخطة المرنة إنها قابلة للتغيير في لحظة..

ثم رفع السكين الحادة الرفيعة نحو رقبته.. وعماد يرفع طبنجته الميري مستندًا إلى سور الكوبري ويخبئها خلف ظهره ناظرًا نحوي بطرف عينه مرسلًا بإشارته التي لا يفهمها سواي أن (تابع إلهائه).

- أظن كده التعديل عجبك يا أستاذ أكرم.. كده الموضوع هيبقى صحفيًّا أسخن وأجمد.. ولو ما رضتش تكتب عنه غيرك كتير هيكتبوا وغيرك كتير هيعرفوا.. وهيحصل فيك زي اللي حصل فيك من كام يوم لما ركبت الشرف، وعملت فيها خايف على صاحبك الوحيد.. الأحلام مافيهاش أصحاب يا أستاذ أكرم.. الأحلام ملاكي بس.. على فكرة يا سيادة الرائد أنا شايفك كويس.. بس الطلقة قبل ما تتحرك من الماسورة هكون انا دبحت نفسي من الوريد للوريد.. وهيكون عصام في قلب النيل بيجهز نفسه عشان القراميط تتعشى.. على فكرة أنا كمان بعرف أهي اللي قدامي كويس.. حتى شوف..

ثم أمسك الحبل بيده ورفعه فتمزق والجوال يهوي مندفعًا نحو صفحة

النيل.. فميلت جسدي حتى كدت أسقط خلفه صارخًا، بينما عماد يحر م
تلك الطلقة من ماسورة طبنجته التي تهتز في يده لتصيب ذراع جمال الممسك
بالسكين.

لكن السكين لم تسقط.. ولم تتوقف عن أداء وظيفتها التي سبكت
وسنت من أجلها.. والذي سقط هي دماء جمال..

عماد يركض مندفعًا نحوه محاولًا إمساك جثته..

- ليه كده يا جمال؟؟ ليه؟؟

- سلمولي على الدكتور يا حضرة الظابط..

ثم منح عماد آخر ابتسامة ساخرة تحتل ركن فمه المتخشب وجحظت
عيناه فاقدة كل ما تحتويه من حياة..

بينما هنا فقط سمعت صوت سارينة الشرطة تدوّي في مدخل الكوبري..
إن الشرطة كعادتها الحميدة أتت بعد أن انتهى كل شيء.. انتهى للأبد.

وكان هذا آخر ما سمعته في هذا اليوم..

* * *

(٢٣)

مديرية الأمن.. بعد شهر من الحادثة.. التاسعة صباحًا

(هذا الجزء حكاه لي عماد بعد يومين من حدوثه.. لذا سأحكيه كما هو.. مع قليل من البهارات!)

عماد يقف عاقدًا ذراعيه أمام نافذة مكتبه الزجاجية الكبيرة.. وعيناه تراقبان الطريق أمام مديرية الأمن في شارع بورسعيد.. الحركة السارية والشارع المزدحم الذي أوشك على الإغلاق.. ودقات تأتي من الباب مكتومة بلا صوت يذكر حتى لتشعر أنها قادمة من الشارع المزدحم الصخب..

- ادخل يا مروان.

بلا أي التفات ولا أي معرفة لمن بالباب.. فقط من صوت الدقات

المتظمة حتى لتشعر أن عماد قد وضع جهازًا صغيرًا في رأسه الكبير يحلل أصوات الدقات وتكنيك استخدامها فوق الباب الخشبي فيخرج له نتيجة صحيحة بنسبة تسعة وتسعين وتسعمائة وتسعة وتسعين من الألف!!!

ضابط شاب آخر يرتدي بذلة رسمية، وكأنها خِيطت بإتقان فوق جسده المشوق المنتصب.

- صباح الخير معالي الباشا.. أنا أول ما وصلتني الإشارة جيت جري

- إنت بتخدم فين اليومين دول يا مروان؟

- في قسم النزهة سعادتك.

- يعني خدمة مريحة حبتين.. ما اعرفش الشغل معانا هيبقى مناسب ولا لأ؟

ثم التفت إلى الشاب الواقف منتصبًا، وفي عينيه الخضراوتين بريق يكاد يعمّ ضوءًا ساطعًا يُعمي الأبصار في قلب الغرفة الضيقة.

- سعادتك أنا مش فاهم حاجة.

- لا؛ لو مش فاهم يا سيادة النقيب نبعت نجيب حد تاني يبقى فاهم بقه..

- إنت بتتكلم بجد يا سيادة الرائد؟!!

- أنا عمري هزرت معاك قبل كده يا مروان!!

ورسم على وجهه تعبيرًا غاضبًا كاد أن يسقط له قلب الشاب بين قدميه الكبيرتين المستقيمتين.. وعماد يقترب منه واضعًا يده فوق كتفه المزين بنجمتين تلمعان في ضوء النهار الساطع من شمس يونيو الحارّة..

- وبعدين أنا اترقيت امبارح يا مروان.. بقيت مقدم عقبال عندك.

- مبروك يا فندم.. سيادتك تستحقها والله.

- طيب بطل بكش ياد.. وما تنساش تعدي على الحركة عشان تستلم قرار نقلك.. هتبقى معانا في المباحث الجنائية من بكرة.. مبروك يا سيادة النقيب.

انتصب مروان ضاربا تحية عسكرية تملؤها الفرحة العارمة.. حتى أن أصابع يده المستقيمة الطويلة ارتعشت وهي تحاول الاعتدال أكثر من طاقتها في تحيته العسكرية.. بينما دار عماد حول مكتبه، وجلس خلفه واضعًا عينيه وسط الأوراق التي يريد توقيعها منذ أن وطئت قدماه رصيف المديرية.. وهنا عرف مروان أن الأمر قد انتهى وحان وقت العمل.. وهمَّ بالانصراف حتى وصل إلى الباب المغلق.. وقبل أن يفتحه...

- سيادتك كنت بتقولي سيادة ال.. إيه؟!!

- سيادة النقيب يا مروان..

توقف الشاب حائرًا وعماد لا زال يطالع أوراقه ويصمها بتوقيعه الصلب القصير.. ثم رفع رأسه ليجد الفتى لم يبرح مكانه..

- إيه يا مروان في إيه؟؟ إنت هتفضل واقفلي كده طول اليوم.. عندي شغل مش فاضيلك.

- سيادتك أكيد اتلخبطت.. أنا الملازم أول مروان صالح حضرتك مش...

- آه.. إنت كنت الملازم أول لحد النهاردة الساعة ٨ الصبح.. لحد ما سيادة الوزير مضى القرار.

ثم منحه ابتسامة واسعة أشعلت بريق عيني الفتى الخضراوتين من جديد.

- أنا متشكر أوي يا عماد باشا.. أنا مش عارف اقولك إيه.

- مش عايزك لا تقول ولا تعيد.. انصراف بقه خلينا نشوف شغلنا بدل ما والله اغير رأيي والقرار يبقىٰ نقل للواحات من بكرة.

وكأنما هو قرارك أنت يا عماد.. وكأنما أنت من اختار مروان كي يجلس في هذا المكتب الضيق يقاسي من جهاز التكييف الخرب، ودخان التبغ ينعقد في فضاء الغرفة بلا افتكاك لأن الشفاط الصغير لم يعد يعمل جيدًا..

أنت فقط ترشح ولا تختار يا عماد.. لا تظن أن ترقيتك الاستثنائية قد غيرت من الأمر في شيء.. أنت لا زلت كما أنت.. كيفما جعلوك فأنت جعلت.. وستظل كذلك حتىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولًا..

تفرغ من أوراقك وتحاول أن تبدأ في شرب قهوتك قليلة السكر ممسكًا بأول صحيفة وقعت تحت يدك.. إنها الجريدة التي أعمل بها.. أنا الفتىٰ الذي أمضىٰ شهرًا يعمل من بيته، مرسلًا مقالاته النارية عن كل ما حدث في قضية الفوبيا حتىٰ إغلاقها.. الفتىٰ الذي خُلق عقله ليصبح عقل محقق شرطة وليس صحفيّ حوادث في جريدة محدودة الشهرة كتلك الجريدة.. لكن عماد يعقد حاجبيه كعادته.. إن المقال رديء نوعًا، وليس كمقالات أكرم كما تتصفحه عيناه المرهقتان من كثرة القراءة.. لقد قرأ عماد كثيرًا في هذا الشهر عن كل ما كتب عن الحادثة.. قرأ كل ما كتبته وكل ما كتبه غيري حتىٰ بدأ يشكّ في قوة إبصاره وفي كفاءة عينيه.!!

يرنّ جرس الهاتف الداخلي..

- صباح الخير يا عماد.

- صباح الخير سعادتك.

- إنت في مكتبك لحد امتىٰ.. كنت عايز اعدي عليك ضروري بعد عشر دقائق..

رئيس مباحث العاصمة يطلب المرور بمكتبه شخصيًا!! ولماذا لم يستدعه كعادته إلى مكتبه الأنيق حيث التكييف يعمل بكامل كفاءته.

- سعادتك تنورني أنا في انتظارك..

- طيب اطلبلنا قهوة من البنّ بتاعك على ما اجيلك..

ثم أغلق الخط وعماد لا زال ممسكًا بسماعة الهاتف محملقًا في ذلك المقعد الوثير الذي أحضروه بدلًا من المقعد المتهالك الذي كاد أن يصيبه بالديسك يومًا!!

- بيومي.. يا بيومي..

تدلف القاطرة البشرية من الباب.

- هات لي اتنين قهوة عالريحة من البن بتاعي، وابعت حدّ يجيبلي علبة سجاير..

- أوامر جنابك يا باشا..

عشر دقائق تمرّ كعشر سنين.. كعشر قرون فوق رأس عماد.. ذهب بيومي وعاد بالقهوة وبالدخان، ورئيس المباحث لم يأتِ بعد!!

طرقات صاخبة وأصوات أصخب في الخارج.. إنها طرقات سيادة العميد رئيس المباحث الذي يحب دائمًا أن يدّعي البساطة والعَفوية، ويلقي بدعاباته السمجة على الجميع حتى يضحكوا له مداهنين - وهو يعرف ذلك جيدًا - فترتوي نفسه العطشى من نهر القبول الاجتماعي الزائف حتى ولو كان من مرؤوسيه البؤساء!!

- صباح الخير يا باشا.. ده انا في عيد النهاردة..

- طب اقعد وما ترغيش كتير..

ثم يجلس محاولًا ادعاء البساطة - وهو يضع ساقيه فوق بعضهما - وعماد كعادته جالس على أطراف المقاعد في حضرة رؤوسائه ذوي الرتب المرتفعه الشاهقة!!

- حلوة القهوة دي.. ابقى ابعتلي شوية بنّ على المكتب يا اخي..

- عينيا يا فندم.. إحنا نبعت البنّ باللي بيعمله معاليك..

- طيب.. أنا هخش في الموضوع عشان ما نضيعش وقت.

ثم يضع فنجان القهوة الخزفي فوق الطاولة، ويحوّل وجهه ناحية عماد متفحصًا، وكأن عماد قد تحول إلى لص بيوت عتيد يخضع لتحقيق شرس مع ضابط محنّك.

- طبعًا ألف مبروك على الترقية.. بس للأسف الترقية ما جاتش لوحدها كده..

- مجهودات سعادتك يا باشا هي اللي بتحرك الصخر والله.

- الله ياخدك يا شيخ.. سيبني اكمل كلمتين على بعض من غير نفاق يا جدع...

- معاليك عارف أنا بحبك ازاي من غير أي نفاق.

- طب اسكت بقه شوية لحد ما اكمل.

يضع عماد كفه على فمه باسمًا، فيطلق سيادة العميد ضحكة عصبية أرادها مرحة ففشلت مراكز إحساسه التالفة في جعلها كما أراد.

- بص يا عماد.. أنا عارف إن اللي هقوله ده ممكن يدايقك وممكن يفرحك.. بس ده اللي حصل وبقى واقع دلوقتي..

- سيادتك سيّبت مفاصلي بما فيه الكفاية والله..

- بلاش الكلام التقيل ده.. أنا مش جاي ابلغك بفصلك من الخدمة يعني.. ده يا دوب حتة نقل صغير يعني..

- نقل!! نقل فين سعادتك؟!!

تنحنح محرجًا، وبدّل وضع ساقيه القصيرتين، وراح يتأمّل الغرفة وكأنه لا يقوىٰ علىٰ لفظها..

- المخدرات..

- وانا هعمل إيه في المخدرات سعادتك؟!!

- هتعمل اللي كنت بتعمله هنا يا عماد.. سيادة الوزير عايزك هناك.. هناك هنستفيد منك أكتر..

- بس سعاتك أنا ما طلبتش نقلي أصلًا.. ومش شايف نفسي هناك نهائي.. وبعدين سيادة الوزير يعرف إيه عني وعن شغلي هنا عشان يعرف انا هنفع في المخدرات ولا لأ؟!!

يفك انعقاد ساقيه ويهجم بنصفه العلوي نحو عماد وفي عينيه نظرة حاول أن يجعلها غاضبة حاسمة..

- جرىٰ إيه يا عماد.. إحنا مش شغالين في بنك يا بني.. إحنا مطرح ما يحطّونا ننحطّ واحنا ساكتين.. فاهم يا عماد..

- اللي افهمه سعادتك إننا بني آدمين مش عساكر شطرنج..

- يبقىٰ لازم ترجع قسم الدرب الاحمر وتعيد من الأول عشان فهمك يتحسن شوية..

- النقل ده مش طبيعي سعادتك.. الظاهر إني متوصي عليّا من فوق بقه؟!!

- ولا هردّ عليك، وافهم اللي انت عايز تفهمه.. بس لازم تعرف إن في حاجات كتير ما بقتش زي الأول يا عماد.. ولازم نوطي راسنا للريح لحدّ ما تعدي وتريحنا..

ثم نهض وأحكم إغلاق سترته الأنيقة المصنوعة من كتان هندي رقيق فوق قميص لبنيّ زَاهٍ.

- بكرة الصبح هتسلّم شغلك للنقيب مروان.. وتروح تستلم من العقيد عبد البرّ في المكافحة.. خلاص مش عايز كلام كتير يا عماد.

- سيادة العميد.. أنا كنت عايز حضرتك في موضوع شخصي شويتين.

- خير يا عماد.

تركه عماد لدقيقة نحو مكتبه الخشبي المتشقق، ورفع نسخة من كتاب صدئ مهترئ له غلاف جلدي قديم.. وتناول ورقة مطوية قدمها لرئيس المباحث ثم عقد كفيه خلف ظهره ناصبًا قامته مصوّبًا عينيه نحو الحائط البالي الذي تشقق بياضه الأصفر الكئيب..

- إيه ده يا عماد؟؟ فيها إيه الورقة دي؟؟

- سعادتك أنا بقالي أسبوعين مش عارف افاتحك في الموضوع ده ازاي.. بس الظاهر إن قرار النقل ده كان علامة من عند ربنا عشان تقولي إن اللي قررته صحّ.

- برضه ما فهمتش في إيه في الورقة دي؟!!

دمعتان بدأتا تغزوان تلكم العينين القويتين.. ورعشة تجري في جسد عماد كأنما أحدهم يمزق ساقيه بسكين غير مشحوذ عتيق.. وقلبه الذي كان جامدًا يومًا قرر العصيان..

- أنا تعبت يا فندم بصراحة وعايز ارتاح..

- تعبت من إيه يا ولد.. إنت لسه ما كملتش اربعين سنة..

- لو فضلت كده يا فندم مش هكملهم..

- الورقة دي فيها إيه يا عماد؟؟

ماذا فعلت يا عماد؟!! وجهك الذي ضجر من جموده.. وعيناك اللتان ضجرتا من حبس العبرات الساخنة.. كل هذا ألقيته فوق رصيف وجه سيادة العميد وأنت تحاول استجماع نفسك.. بماذا فكرت يا عماد وأي رياح جعلتك تحني رأسك فلا تقيمها إلا..

- دي استقالتي يا فندم.

- نعم يا اخويا..!!

- استقالتي يا فندم.. دي استقالة من الخدمة في وزارة الداخلية يا فندم..

* * *

(٢٤)

كافيتريا شهيرة بالزمالك.. بعد خمسة أسابيع من الحادثة.. الرابعة عصرًا..

من جديد وكأن شيئًا لم يتغير.. أجلس في شرفة الكافيتيريا الشهيرة المطلّة على النيل.. نفس ذلك المكان الاستراتيجي البعيد عن كل معارفي وعن كل دوائر لقاءاتي المعتادة.. مكان لطيف يمكن أن تحصل فيه على نسمة هواء لطيفة في ليل يونيو حيث الصيف طفل صغير بدأ يتعلم المشي ويواصل ممارسة هوايته الأبدية في بعثرة بواقي الربيع حتى يتعلم كيف يخنق أرواحنا بحرّه ورطوبته..!!

للمرة الأولى أجلس هنا بلا تبغ.. بلا غليون وبلا لفافات وبلا أي مشتقات النيكوتين.. أشرب قهوة داكنة ثقيلة كالظلام الذي غرقت فيه.. الظلام الذي لم تخرج روحي الثقيلة منه بعد.. لا زالت هناك تذكرني به كل ليلة.. عندما أغلق عيني وأغرق فيه من جديد.. نفس الوجوه.. نفس

الكلام.. نفس الكلمات المكتوبة في الهواء، وصوت ولاء المريح يلقي بها على مسامعي..

نفس كلمات أبي الرصينة الواثقة القوية..

"أدهم لسه حي.. بس يا خوفي من بدران"

أبي كان يعرف كل شيء.. إن أبي "نكرومانسر" كتب محترف.. إن "النكرومانسر" يمزق الجثث ليعرف أسرارها.. بينما أبي رحمه الله مزّق كل كتاب قابله ليعرف أسرار هذه الدنيا.. أبي يعرف كل شيء..

صوت أزيز محمولي الذكي.. صورة ولاء وهي تخرج لسانها للكاميرا في عبث وبريق عينيها يطغى على فلاش الكاميرا.. عندما اقتنيت هذا الهاتف بالتقسيط قررت أن أضع صورًا لكل من أحفظ أرقامهم على سبيل التطور أو على سبيل الحنلقة..

- أيوه يا قطة..
- إيه يا كيمو.. إنت فين كده وبتعمل إيه؟
- ده أعتبره تحقيق ولّا اعتبره قلق؟!!
- إعتبره زي ما تعتبره بقه.. ولو ما قولتليش إنت فين حالًا هروح المديرية لعماد باشا وابلّغ عنك وهمّا هيعرفوا يجيبوك..
- لا ما هو انتي مش هتلاقيه في المديرية.. تعرفي عنوان مكافحة المخدرات؟!!
- مكافحة المخدرات!! هو اللي بيعمل حاجة عدلة في البلد اليومين دول بيتنقل ولا إيه؟!!
- سيبك انتي.. ماهر الرفاعي عامل إيه دلوقتي؟؟

- ما هو أنا بكلمك عشان كده..

ثم صمتت قليلًا.. قليل كافٍ أن يحرق أذني بأنفاسها المتلاحقة.. ماذا فعلت يا فتاة؟؟

- ولاء.. إنتي عملتي إيه في الباشا؟؟

- خلصت منه..

- إيه ضربتيه بسكينة ولا سمتيه إنتي كمان؟!!

- لا؛ ضربته آخر قلم على كرامته العزيزة.. نشرت التحقيق بتاعك على الموقع زي ما هو.. ورميت الاستقالة في وشّه.

- وليه عملتي كده يا ولاء؟؟ ليه..

- عشان أنا عايزة اعمل كده يا أكرم.. أنا كنت مستنية اللحظة المناسبة بس.. على فكرة يا حبيبي.. ماهر الرفاعي مش هيسامحك ولا هيعديلك اللي انت عملته بالساحل.. ده بكرة هينشر تكذيب واعتذار لأهل البلطيمي.. الانتخابات جاية وهو معندوش استعداد يخسر الناس دي..

- دي حاجة انا عارفها كويس يا ولاء.. بالمناسبة هو بكرة إيه؟؟

- بكرة الخميس.. اشمعنى؟؟

رحت أتنحنح وأخرج أصواتًا غريبة من بين شفتيّ.. كيف أقوى على ما سأقوله لك يا فتاة.. منذ شهر كامل ونحن لا نتحدث في هذا الأمر.. منذ ذلك اليوم في الجريدة وأنا لا أتحرك قيد أنملة.. وأنت لا تطلبين تحركي.. ما أجملك يا فتاة.. لم يحبني أحد مثلك سوى أبي وأمي.. حتى حب أبي وأمي هو حب لا إرادي يزرع في قلب كل أب وأم.. بينما أنتِ زرعتي حبي في قلبك غصبًا وقوة، وظللت لا تملّين ذبول أوراقه في انتظار برعم يتفتح

بزهرة يانعة.. وها هو البرعم يتفتح يا حبيبتي.. اليوم سأقولها بملء فمي، ولن أخاف.. لن أخاف.

- عشان بكرة هاجي أنا وعماد عندكم البيت.. هي ماما بتبقى صاحية الساعة تمانية كده.. آه تمانية هتبقى كويسة.. صح؟!.. وبالمرّة بقه جهزولنا مصحفين عشان ما نقعدش نفتكر في الفاتحة وشكلنا يبقى وحش.. ولاء..

صمت.. لا شيء.. فقط صوت أنفاسها المتهدجة..

- ولاء ردّي عليا يا بت انتي..

- أكرم..

- نعم يا حبيبتي.

- بحبك.. بحبك حتى لو باب القبول اتسدّ.. وهتخيل صدى صوتي بياخد كلمتي ويرجع معاه الردّ..

ثم أغلقت الخط.. أغلقت ذلك السيل المنهمر من قلبها نحوي ليزيح من طريقه كل شيء.. يومًا ما كنت مهزومًا خاسرًا يا أبي.. يوم أن فعلت ما علمتني إياه لم أكسب شيئًا يا أبي.. ولكني لست خاسرًا.. لست خاسرًا يا أستاذ فهمي..

- أكرم.. دي حاجة غريبة فعلًا!!

أرفع رأسي عن المحمول الذي ضبطت نفسي أراقب شاشته لأجد سيدة في غاية الأناقة.. ترتدي ثيابًا صيفية بسيطة، وذلك الشال القطني الخفيف علامتها المميزة يلتف حول رقبتها في أناقة.. السيدة التي أنقذت حياتي منذ خمسة أسابيع ببراعتها التي لم أر مثلها من قبل..

- تقريبًا دي تاني مرة آجي هنا من شهرين.. وتاني مرة أقابلك هنا برضه.. very strange

- ولا strange ولا حاجة يا دكتور.. الموضوع بس إن نفس الوقت اللي بحس إني مخنوق ومحتاج ابعد عن كل الناس واريح أعصابي شوية بيبقى موافق بالضبط بقه معاد زيارتك الشهرية للمكان الظاهر..

أطلقت ضحكتها القصيرة المجلجلة، ثم جلست مقابلة لي على الطاولة المفضلة في ركن المكان القصيّ.. رفعت يديها في رقة تطلب قهوتها من شابّ قصير بدين يجرجر الكثير من الدهون.. خفيف الحركة بشكل مثير للدهشة.. كأنك ترى فرس نهر يلعب في خط وسط برشلونة!!

- أنا كنت هكلمك النهاردة.. بس في نص اليوم كان عندي some issues to finish.

- رب صدفة خير من ألف معاد يا دكتور.. أنا قدامك آهو.

- المثل ده أنا بحبه جدًا.. anyway .. أنا مبسوطة جدًّا من التحقيق بتاعك اللي اتنشر النهاردة على الـwebsite بتاع الجرنان.. حتى لو كانوا شالوه بعد ساعة وكذبوا الموضوع ونشروا اعتذار.. أول مرة يا أكرم أقرا Political Crime Analysis في مصر.. تحليلك للموضوع كان very brilliant..

- آهو انا بقه ما اعرفش المصطلح ده خالص يا دكتور.. بس اللي اعرفه إن ورا كل حكاية من حكايات القتلى دول حكاية تانية.. مش لازم يكون الموضوع بيتكلم عن الجريمة في حد ذاتها.. بس الناس دي هي انا وانتي وكل اللي قاعدين دول.. بس مع الفرق إنهم مش لاقيين حق الهدوم اللطيفة وكوباية القهوة النظيفة ولا حق القعدة

في مكان لطيف زي اللي احنا قاعدين فيه ده..

- ده انت leftist بقه وانا ما اعرفش..

- مش شرط ابقىٰ يساري ولا اشتراكي يا دكتور عشان افهم اللي بيحصل حواليّا يعني.. بس أكيد مش هو ده الموضوع اللي كنتي عايزة تكلميني علشانه؟

الشاب البدين الخفيف الحركة يضع القهوة السوداء أمامها في براعة وهدوء ويحني رأسه محييًا ثم ينطلق.. فتناولت كيس سكر بني وراحت تقلبه داخل الكوب في هدوء ورأسها منكس نوعًا.. هل يبدو لي أن هذه المرأة الحديدية تبحث عن كلمات تقولها أم أن آثار الأدوية تثقل رأسي وتصنع خيالات في تلافيف مخي!!

- دكتورة آمال.!!

- الصراحة يا أكرم أنا كنت جاية اسلّم عليك عشان مسافرة.

- مسافرة فين يا دكتور..

- رايحة ال states بكرة الضهر.

- زيارة ولا شغل ولا سياحة؟

- لا ده ولا ده يا أكرم.. أنا رايحة استقرّ.

كنت أرشف من قدح القهوة فما إن سمعت حروف كلمتها الأخيرة حتىٰ كدت أرش القهوة في وجهها من فرط دهشتي لولا أن كتمت أنفاسي وبلعت القهوة ورحت أسعل حتىٰ كدت أزهق روحي في حضرتها.. وبعد أن ناولتني كوب ماء وراحت تضحك في دهشة ضحكاتها القصيرة المجلجلة..

- أنا مش فاهم حاجة يا دكتور.. اسمحيلي يعني أنا قولت مصر كلها ممكن تهاجر وتفضى من ناسها إلا انتِ.. وإذا كنتي راجعة تستقري هناك طيب إيه اللي كان رجعك من خمس سنين.. ولزمته إيه الجهاد بقه والنضال والكلام اللي بتعبّوا بيه أمخاخ الناس كل يوم في التليفزيون!!

- بس بس.. Hold on.. إنت مالك اتحولت كده ليه.. أولًا أنا لما رجعت.. رجعت عشان في دور مهمّ كنت لازم آأدّيه في بلدي.. ما كنتش راجعة لا عشان نضال ولا جهاد.. كنت راجعة اساعد بلدي اللي اتولدت فيها.. وحتى لما قامت الثورة وقعدنا مع بعض عشان نعمل حزب ممكن يساعد البلد برضه كان عشان أنا عايزة اساعد بلدي.. بس يا أكرم nothing changed.. كل حاجة زي ما هي، وأسوأ..

- ده واجب يا دكتور مش مساعدة.. إنتي مش جاية هنا عشان تتفضلي على البلد دي بحاجة.. ومش عشان أول ما تلاقي الدنيا بقت صعبة شويتين تسيبيها وتهربي..

- أكرم.. إنت لو أي حد تاني وبيكلمني كده أنا كنت عرفت أوقفه عند حده كويس أوي.. هتتناقش معايا Like a civilized person يبقى اوك.. هتتكلم بطريقة مقدمي برامج التوك شو يبقى اقوم احسن وsee you soon،

ثم رفعت رشفة كبيرة ساخنة من كوب قهوتها.. حتى أنها أسقطت قطرات على شالها القطني الأنيق، فناولتها ذلك المنديل الملقى بجوار كوبها، وراحت تنظف القطرات ثم تابعت:

- I'm not escaping يا أكرم.. أنا في الأول وفي الآخر ستّ بتاعت

عِلم يا أكرم مش قائد سياسي ولا زعيم قومي.. العلم يا أكرم زي الزرع.. needs the suitable atmosphere عشان يكبر.. وده مش موجود يا أكرم وقدامه كتير على ما يبقى موجود.. وانا عندي التزامات كتير قدام علمي يا أكرم.. أنا لسه ما وصلتش للمرحلة اللي اقعد فيها في شاليه في الساحل الشمالي أمدد رِجلي في شراب صوف في الشمس وابقى consultant كبيرة ياخدو رأيي في البوليس.. أنا لسه ما كملتش خمسين سنة يا أكرم.. ولسه قدامي حاجات كتيرة لازم اعملها..

- وده حضرتك مش هتعرفي تعمليه هنا؟؟

- السؤال ده ما يطلعش من واحد زيك انت يا أكرم.. وبعدين إنت شايف بنفسك.. واحد physico قتل سبعة عشان عنده حلم إن ابوه يبقى مشهور حتى ولو بالدم يا أكرم.. والتاني عشان ما عرفش يعمل الPhD ويعرف يعالج الناس.. باع نفسه بالفلوس اللي جاية ليه من قتل الناس.. what a logic يعني!! إنت عايز تقولّلي إن في جو زي ده أنا ممكن اركز في علم أو في تطوير.. sorry.. this is nonsense.

ومن قال لك يا دكتورة أن منطقك أنت منطق سليم!! لو كان في هذا البلد فقر وجنون وفساد وقلة احترام.. فحدثيني من فضلك عن البلد التي جئت منها وأخبريني من فضلك.. هل يعطونك الاحترام الكافي هناك؟؟ وإن أعطوك هذا الاحترام على مضض لأنك تنفعيهم بعلمك.. فلن يعطوك إياه وأنتِ تتجولين مع ابنك في الشارع أو داخل الأسواق.. حتى إن كنتِ تحملين جنسيتهم يا سيدتي.. أنت عربية مصرية ولو قررتِ أن تنسي ذلك.. أنتِ عربية مصرية ولو نسيت يومًا أنك كذلك..

إذا أردت أن تعملي فلا بد أن تفعلي يا دكتورة.. العمل مقابل الفعل
العمل مقابل الفعل..

- طيب والحزب والناس اللي صدّقتك؟!

- الحزب موجود يا أكرم.. بيا أو من غيري موجود.. أنا مجرد اسم
مجرد فرد.. بس برضه إنت شايف إن ده جوّ ممكن يبقى فيه حزب او
سياسة أصلًا.. يا أكرم let me tell you something على بلادنا
زي ما بتقولوا.. التربة الفاسدة عمرها ما تطلع حاجة صحّ.. وعشان
تطلع حاجة صح لازم تعمل حاجات كتير أوي عشان تصلحها
بس يبقى عندك الرغبة عشان تصلحها يا أكرم.. understood my
friend

ثم منحتني ابتسامة هادئة راقية ككل شيء تفعله.. ورشفت آخر قطرات في آخر كوب قهوة ستشربه في مصر.. برغم أني لا أقتنع بمنطقك يا دكتور آمال.. إلا أني لا أملك سوى أن أصدقك.. أنا لم اعتد أن أكذّب من حاولوا يومًا أن ينقذوا حياتي.. ربما أنت خائفة يا دكتور.. ربما أنت لا تثقين في أن ما سيحدث في مقبل الأيام قد يجعل من هذا المكان مكانًا أفضل لكل من هم مثلك.. ربما كانت دفاعاتك النفسية تبتكر كل ما هو بعيد عن السبب الحقيقي الذي يدعوك للرحيل.. أنت برغم تماسكك وقوة شخصيتك وقدرتك على أن تصنعي المعجزات.. لا تقدرين على تحمّل ما سيحدث.. لا تقدرين على البقاء حتى تشاهدي ما سيحدث.. أنت مصابة بتلك الفوبيا يا سيدتي وإن كنت تنكرين ذلك.. الفوبيا التي حاولتِ هزيمتها يومًا اقتحمت أسوارك المنيعة ومنطقك المثقف.. أنت تدركين الآن أن ما تخافين منه سوف يأتي يوم ويحدث.. وأنت لست ساذجة يا دكتور وتعرفين بل وتوقنين أنه سيحدث..

رحلت الدكتورة آمال.. رحلت على وعد بلقاء يومًا ما، وبمراسلات أعرف أنها ستنقطع.. رحلت كما رحل دكتور سليمان إلى ولده في الكويت.. رحلت كما استقال دكتور علام واختفى في مسقط رأسه في الصعيد؛ لأنهم لم يأبهوا بكل ما كتبه وكل ما قدمه لهم من حقائق.. رحلت كما رحل عماد وراح يبحث عن عمل في شركة خاصة؛ كي يرحل من مصر إلى بلاد البترول والرطوبة الخانقة!!

كلهم رحلوا يا أكرم إلا أنت..

أما آن الأوان للرحيل..؟؟!!

* * *

- *بص يا عماد.. إحنا بعد مناقشات مطولة.. إتأكدنا إن الكتاب ده كوموفلاج.. تمويه يعني..*

* * *

- *المفيد يا حضرة الرائد إن الأخ ده أيًا كان هدفه ما بيقتلش بتسلسل قصص الكتاب وبس.. ده بيقتبس القصة وينفذها حرفيًا بس مع شوية إضافات.. القاتل ده بينفذ جرايمه بطريقة علاجية قديمة من الفوبيا كانت مستخدمة في أواخر السبيعنات في الاتحاد السوفيتي لعلاج المرض النفسي.. الطريقة اسمها:*

- *واجه مخاوفك قبل أن تقتلك..*

- *برافو عليك يا عماد..*

* * *

- هي فعلًا كلمة عديمة المعنى.. بس لو حطيت قصاد كل حرف الـ ..م اللي بيقابله في الأبجدية الإنجليزية.. نعمل جدول صغير كده عشان أوضحلك الصورة.. كده يبقى عندنا أرقام ١ و٥ و١ و٢١ و١٥

* * *

- لو كانت الجريمة دي وقعت بين معاد فتح العيادة امبارح الساعة ٧ مساء والساعة ٥ صباحًا لما الفراش اكتشف الجثة فا انا كنت في الوقت ده في مستشفى الدكتور حسن شوقي الساعة ٨ باعمل فحوصات وأشعة، والساعة ١٠ كنت على قهوة الليالي في عين شمس، والساعة ٣ صباحًا كنت في شقتي وبواب العمارة شافني.. وبما إنه بيسهر لحد الفجر، وبيروح يصلي فا بخليه يخبط عليّا يصحيني وبننزل نصلي الفجر سوا، وبعدين باروح نادي الشمس أمشي شوية.. أظن الإخوة بتوع القسم لما جابوني كنت في النادي.. كده حجج غيابي قوية يا سيادة الرائد؟؟

* * *

- إيه يا شقيق.. مالك.. إنت بلبعت إيه؟؟

- الدكتور..

- بتقول إيه يا بن المرة مش سامعك؟!

- الدكتور..

* * *

- يا بابا أدهم مات وشبع موت..

- أدهم لسه حي.. بس يا خوفي من بدران..

* * *

- ليه كده يا جمال؟؟ ليه؟؟

- سلموني على الدكتور يا حضرة الظابط..

* * *

حاشية لا بد منها

من هم حتى يقيّموك يا علي؟؟!!

من هم حتى يصنعون من أنفسهم أبطالًا وثوارًا، ويصنعون منك مجرمًا بائسًا.. أنت يا من طفحت الهمّ وابيضّ شعر رأسك الناعم وأنت بعدُ في أواسط عشريناتك.. يقولون إنها وراثة من والدك سيادة المستشار.. وتقول أنت إنها من كثرة الأهوال التي رأيتها منذ أن كنت قائد دفعتك في كلية الشرطة إلى أن أصبحت على مشارف النجمة الثالثة فوق كتفك العريض..

أنت في الشارع منذ أن كنت برعمًا أخضر يتقاذفك الضباط الكبار إلى بعضهم البعض في شوارع القاهرة.. لتنصب الأكمنة وتتحمل سخافات الأمناء الذين يعاملونك كطفل في الابتدائية يتلقفه طلاب الثانوية الصناعية على ناصية شارع خرب في حي عشوائي فقير..

أنت بالنسبة لهم (ابن الناس الكويسين)..

لذا لا بد أن تخشنّ يا علي.. لا بد أن تكون قويًا..

أنت تذكر أول مرة وضعت أحدهم فوق العروسة في القسم.. القسم الواقع في قلب حي شعبي فقير.. القسم الذي وضعوك فيه كي (ينشف عضمك) كما قال لك عمك ضابط أمن الدولة القدير والذي قاطع بيتكم منذ أن رفع أبوك المستشار عقيرته طالبًا العدل والقصاص من أمن الدولة.

كنت بعدُ ملازمًا حديثًا.. نوبتجيًا في ليلة صيف حارّة من عام ٢٠٠٩..

وكان الفتى فقيرًا هزيلًا معلمًا ككل أقرانه في ذلك الحي الفقير.. سرق هاتفا محمولًا من فوق طاولة في مقهى حقير.. هاتفًا لو باعه لما جاء له بخمسين جنيهًا سيصرفها جميعها في باكتة بانجو أو زجاجتين من الخمر المغشوش يذهب بها عقله.

اقتربت منه وقد علقوه ورأسه خارج الإطار الخشبي.. الجلد والضربات المتتالية وتمزيق ثيابه البالية.. وشارب رفيع ولحية نابتة، تُظهر ضربات النقم على وجهه النحيل الشبيه بوجه سحلية مريضة..

- اسمك ايه ياد؟

- حلمي عبد المتجلي عبد العال يا باشا..

- الاسم اللي بينادوك بيه في الشارع يا روح امك.. ولا انت الحفلة ما كفتكش ومشتاق لحفلة تانية؟؟

- اسم إيه يا باشا.. هو لا مؤاخذة الواحد بيبقى له اسمين..

- إنت هتهزر يا (.....) امك!!

ثم تكوّر قبضتك الرفيعة ضاربًا بها أنفه المتضخم بفعل ضربات الأمناء فتنفجر نافورة الدم في وجهك.. إلا أنك لا تحرك ساكنًا.. أنت تتحول تدريجيًا إلى الحالة التي تريدها فلا تتوقف الآن.. لن تعود من الآن ابن الناس الكويسين..

- بص يا روح امك.. الجو حرّ وانا روحي في مناخيري ومش فايق لامك خالص.. هترد على كلامي بالراحة كده ومن غير ملاوعة هسيبك تخرج من هنا على العشة الوسخة اللي انت ساكن فيها.. مش هتحترم نفسك.. أنا عندي نص كيلو بانجو مش لاقيين اللي يشيلهم..

- حلمي إبليس يا باشا.. مسميني حلمي إبليس..

- بص يا حلمي.. أنا احب الرجالة الجدعان اللي زيك.. واحب أوي آخدهم جنبي كده عشان استفيد منهم ويستفيدوا مني..

- أنا من إيدك دي لإيدك دي يا باشا والله..

- أمين إبراهيم.. فك حلمي وهاتهولي المكتب.. وماتنساش تعمل معاه الواجب قبل ما تجيبه..

نظرة مذعورة كذعر فأر حبسه قطّ في ركن منزل خرب.. نظرة من يعرف ما هو مرادف كلمة الواجب في قسم شرطة مصري!

- أبوس إيدك يا باشا بلاش واجبات تاني.. أنا هعمل اللي انت عايزه.. لو قولتلي عجين الفلاحة هعمله.. لو قولتلي نوم العازب هعمله.. لو عايزني ات..

- بس بس.. إنت فاكرني إيه.. عيب الكلام ده يا أخ حلمي.. الواجب يعني يأكلوك لقمة تسدّ بيها جوعك ويشطفوك ويروقوك كده عشان عايزك في كلمتين مهمّين..

ثم تقرب رأسك من رأسه الخاوي متابعًا وأنت ترسم أهمية مبالغة على وجهك الذي اكتسى بنظرات شيطانية آمرة..

- حاجة تخص مصلحة البلد يا حلمي..

يومها يا علي عرفت أنك قد زرعت أول شجرة في طريقك الوعر نحو حلمك.. منذ أن رأيت عمك عقيد أمن الدولة وهو يسير وسط الحراسة.. منذ أن سمعته يتحدث عن معارضي النظام وينعتهم بأحط النعوت والشتائم.. منذ أن رأيته وهو يحول مسار شارع كامل بمكالمة هاتفية وأنت تحلم بأن تصل هناك.. أن تعبر الأسوار العالية في الحي السادس لتصبح

ترسًا في ماكينة الأمن والأمان والسلطة والنفوذ.. لذلك طلبت من عماد العزيز أن يزج بك في ملفات المباحث.. لذلك ضغطت بكل قوتك على أبيك المستشار ليفعل ما لم يفعله طوال حياته ويتوسط لك لتتعين في مديرية الأمن.. لذلك احتفظت بكل مصادرك القديمة.. لذلك قبلت العمل تحت إمرة ضابط رحيم طيب في بلاد لا تعرف الرحمة.. لذلك ضربت وركلت وضغطت بكل ما تملك من أدوات على كل من قابلتهم حتى تستقر مؤخرتك فوق ذلك المقعد خلف ذلك المكتب الصغير في مديرية الأمن..

كم من قضايا أغلقتها ضد من لم يرتكبوها.. كم من قضايا دفعت لها من مسجلينك ومرشدينك مقابل ما قدمته لأهلهم تعويضًا عن ما فعلته بهم.. فقط لتصبح أصغر ضابط تخلو ملفاته من جملة (ضد مجهول).. لم يشكك أحد في تحرياتك ولا في طريقة إغلاقها.. أنت الضابط الوحيد الذي لا تفلت النملة من قبضته ما لم يعطها تصريحًا بالإفلات!!

كل هذا لا يلوثه سوى ذلك اليوم..

يوم خرجت من منزلك في صباح يوم جمعة مشمس وسط الشتاء.. لا اتصالات سوى مكالمة أرضية وصلتك من الأمين عبد الباقي الناحل العجوز ينصحك بالبقاء في منزلك لأن الشوارع ليست على ما يرام..

- يعني إيه الشوارع مولعة يا عبد الباقي؟!! إنت كبرت وخرفت!!

- معالي الباشا الدنيا برّة مليانة ناس ياما.. وانا راجل عجوز وعارف البلد دي كويس.. الناس دي مش هترجع بيوتها غير لما تجيب عاليها واطيها.. ولا هيفرق معاهم كل اللي البهوات الكبار عاملينه.. أبوس إيدك يا علي بيه استنى في البيت النهاردة..

- بس يا راجل يا (....) إنت الظاهر عليك الشغل مع عماد باشا خلاك طري وما بقتش تعرف تميز كمان.. وربنا المعبود لو لقيت عسكري

ولّا أمين غياب النهاردة لاعملّه محاكمة عسكرية.. فاهم!!

تقود سيارتك لتجد كل الشوارع مغلقة.. سيارات الأمن المركزي تغلق كل الميادين وتصطف بجوار كل المساجد الكبرى في القاهرة والجيزة.. الداخلية كلها في الشارع عداك أنت.. السبب بسيط.. هو أن سيادة العميد أخرج اسمك من كشوف الخدمة ليلة الخميس!!

- ليه سعادتك كده؟؟

- اسمع يا علي.. أنا مش بكلمك على إني ضابط دلوقتي.. أنا عمك حتى لو ابوك اتبرّى مني.. خليك في مكتبك النهاردة..

- إوعى تكون مصدق إن حبة العيال وشوية المختلين اللي معاهم هيعملوا حاجة.. ولا انتو متوقعين كده في الجهاز وانت مش عايز تقولّي؟

- كل حاجة مدروسة وتحت الاحتمالات.. اللي بقولك عليه تنفذه..

تصل إلى مكتبك قبل الصلاة بنصف ساعة.. الناس تمشي في الشوارع مرفوعة الرأس على وجهها نظرات غضب مستعرة.. هذه النظرات لم تتعود أن تراها.. أنت تربيت على نظرات القهر والذلّ ولم تر نظرات كهذه من قبل.. تنظر إلى هاتفك المحمول فاقد الشبكة وأنت تلعن من اتخذ قرارًا بهذا وكأن الدنيا ستقوم ولن تقعد لأجل زمرة من المخنثين وذوي اللحى..!!

وعند المساء عرفت ما لم تكن تعرفه..

عرفته وأنت تتسلل من مكتبك في مديرية الأمن واضعًا طبنجتك الميري في جوربك القطني الطويل فوق حذائك حتى أكسبتك عرجة تفتح لك بعض الطرق.. وأنت تتحرك ماشيًا على قدميك من المديرية إلى بيت عمك في المنيل.. قسم الخليفة احترق.. قسم السيدة زينب احترق.. قسم المنيل

أصبح هشيمًا تذروه الرياح.. الأطفال وصبيان المكيانيكية يلعبون بملا...
رسمية في الشوارع.. لقد سقطت وسقط حلمك يا علي.. ستبقى ضابطًا
صغيرًا في مكتب حقير بمديرية الأمن.. لقد أصبحت لا تعي ولا تعرف
حرفًا مما يحدث.. جلست شهرًا أمام شاشات التلفزيون يحاول عقلك
الذريّ أن يحلل ما يحدث فلم تفهم.. حتى حلمي الذي تربى على يديك
تحول إلى ندّ.. يحصل على مقابل لكل معلومة يأتي لك بها.. أصبحت
نظراتك الغاضبة الشيطانية لا ترعب أحدًا ولا تفتح بابًا..

حتى وإن بدأت الأمور تتحسن.. إلا أنها لم تعد ولن تعد.. وإذا عادت
فلن تكون هنا في ركب العائدين.. أنت ابن مرحلة رحلت برحيل وزير كان
ملء السمع والبصر فأصبح يرتدي حلة زرقاء!! شجرة الموز يا صديقي لما
ألف قرد الآن.. وأنت لم تكن يومًا قادرًا على القفز!!

حتى منذ أن بدأت تلك القضية وأنت غير قادر على بلعها.. عماد متحمس
لرأي صديقه الصحفي الأخرق وليد هذا العصر الأغبر.. والقيادات تمنحه
ثقة لا يستحقها في نظري.. لماذا لا نأتي بكل أقارب القتلى ونوسعهم ركلًا
حتى نعرف قياسات ملابسهم الداخلية.. ثم نأتي بخمسة مسجلين نضعهم
أمام كاميرات التلفزيون ليعترفوا بهذه الفعلة الشنعاء.. أنت تحدث نفسك
دائمًا بتلك الأفكار الذي يرونها سادية مقززة وأنت تراها ضرورية كي يعود
الأمن والهيبة اللذين فقدهما الكيان.!!

فقط عندما تقاطعت الأمور يا علي ظهرت تلك الإشارة في عقلك..

- إزيك يا حلمي..
- علي باشا.. أؤمر معاليك..
- عايزك في موضوع مهم.. قابلني قدام بوابة نادي الترسانة هعدي عليك بالعربية..

تتمشى بسيارتك الكورية الجديدة وبجانبك حلمي يتفحص وجهك محاولًا استشفاف ما بداخلك.. وأنت تخفي عينيك خلف نظارة ريبان ذات عدسات عسلية عريضة..

- أؤمر يا باشا.. إحنا في الخدمة ولا مؤاخذة.

- إنت بقالك قد إيه شغال عند الراجل اللي اسمه أحمد سليمان ده؟

- يجي بتاع خمس ست شهور كده يا باشا.. ليه يا باشا هو مطلوب ولا حاجة؟!!

- ما تسألنيش.. أنا اللي باسأل بس..

- آه.. طب نزلني بقه يا باشا عشان ورايا مصلحة عايز أقضيها..

صوت الفرملة الحامية التي تقشر أسفلت الطريق الحديث في طرف الجيزة وطبنجتك الميري تستقرّ تحت ذقن حلمي المرتعدة فرائصه، وعيناك تطلقان شررهما من خلف العدسات العسلية.

- اسمع يا حلمي.. إذا كنت فاكر إن علي عمر ما بقاش علي عمر بتاع زمان تبقى غلطان.. أنا ياد ما تهدنيش ولا مليون ثورة.. وأقسم براس ابويا لو ما اتعدلت لاكون مخلّص رصاص الخزنة في راسك ورميك زي الكلب في أي مصرف ومالكش عندي نص جنيه دية.. سامع!!

يومئ برأسه إيماءة فأر مذعور.. برص وجدته على الحائط فارتعش ذيله قبل أن تمزقه ضربات قبقاب خشبي أصيل..

- كده نعرف نتكلم.. أنا عايزك تجيبلي أخبار.. بيقعد فين ومع مين.. مين زاره قبل الحادثة ومين زاره بعدها.. عايز أسامي وعناوين وتليفونات.. وأقسم بالله العظيم يا حلمي لو حد شم خبر لاكون

معلقك زي التيس.. يلا غور من هنا.. يلا..

وراحت المعلومات تتوالى.. فيض من الأسماء والأرقام والقصص علاقات متشابكة.. كل هذا أبقيته لنفسك أنت.. فليقتل من يقتل.. سوف، تنتظر الوقت المناسب وتلقي بكل هذا على الطاولة أمام القيادات في مكتب الوزير.. سوف تحصل على ترقيتك المضاعفة.. إذا كان حلم قد مات فهناك مئات الأحلام التي تنتظر من يحققها.. إذا كانت شجرة الموز قد امتلأت بالقرود.. فلتزح منها قردًا ثم تقف مكانه!

تلف إلى الحجرة العطنة سيئة التهوية.. مزاجك غير صالح لأي كلام.. مات حلمي مقتولًا مسمومًا كأي فأر ضبط متسللًا إلى مطبخ فقير.. خرجت الدماء من جسده ومعها سوائله كلها.. كوتة جديرة بفأر مثله.. إلا أنها خسارة كبيرة لك.. نهر معلومات جفّ ونضب..

اليوم تذهب إلى مكتب مساعد الوزير لتلقي بقنبلتك على طاولته.. اليوم تكشف كيف كان عماد مقصرًا متغطرسًا، وكيف كانت زمرة الأوغاد تضلله وهو يتصنع العلم بالأمور.. اليوم تضع نجمة جديدة أو ربما نسرًا فوق كتفك المشتاق إلى طيور الداخلية..

تهبط عيناك مع هبوط جسدك فوق مقعدك إلى سطح مكتبك الصغير لتجد ذلك الكتاب اللعين مفتوحًا أمامك.. صفحة مهترئة بها عنوان كتب بخط قديم وتحته خط أحمر قانٍ..

"في قدح القهوة"

تنظر إلى قدح القهوة الذي أوشك على البرود أمامك.. أنت بحاجة إلى قدح جديد إذن..

- بيومي.. يا بيومي

ليلف إليك ذلك العسكري النحيف الشبيه بعصا المقشة..

- أمال فين بيومي.. ولا أشرف..

- بيومي بيجضي طلبات لعماد بيه جنابك.. وأشرف خرج من عامنول..

- عامنول!! طب روح اعمللي قهوة زيادة.. وما تتأخرش

- آوامر جنابك..

من أين يأتون بهولاء المرضى المعاتيه.. من أين يأتون بأكبر مجموعة من الأميين والفقراء ليجعلوهم أفرادًا في مكان مهمّ كهذا المكان حتى بدون أن يصلحوا ألسنتهم المعوجة..

تغلق الكتاب وتلقي به في إهمال على طرف المكتب.. لفافة تبغ ممتعة هي عندما يصاحبها رشفات من كوب القهوة الذي أحضره عصا المقشة في ثياب سوداء متهالكة..

رشفات من كوب القهوة رحت تلقيها في جوفك الظمأ للسائل السحري.. في نهم لم تعتده من قبل.!!

وكأنك تعرف أنها آخر رشفات القهوة يا علي!!

* * *

(٢٥)

منزل جد أكرم.. حي القلعة.. بعد الحادثة بشهرين ونصف.. التاسعة والنصف مساء

شرفة المنزل التي جمعتني يومًا بالأستاذ فهمي حبيب وهو يسألني عن التبغ ولماذا أشربه؟؟ويوم أن جبنت ولم أخبره بالحقيقة كان عليّ وشك نداء أمي كي تأتي لي ببعض من ملابسها لأني لست رجلًا أقول الحق ولا أخاف فيه لومة أبي!!

شرفة المنزل العتيق الذي بناه يومًا محمد أفندي عبدالبر.. جدي لأمي العزيزة الغالية المكافحة المثابرة.. سيدة العوالم الراقدة في فراش المرض منذ أن رحل مهجة القلب والنخلة السامقة التي كانت تطرح في حجرها حبًّا وأمانًا..

أمدد ساقي فوق مقعد من الخيزران الشعبي التي نقشت عليه عبارات (صناعة مصرية.. مصنع الكراسي بالبصراوي) وكوب الشاي الزجاجي

يستقرّ فوق القضيب الحديدي العريض الذي قرر أبي تزيين الشرفة الصغيرة به يومًا كي لا يسقط أخي أمجد عند ملاحقته بالشَّبَت المربوط بدوبارة جافة لبائع غزل البنات مبتغيًا قليلًا من سكره العذب..

أصوات متقاطعة تصنع من اختلافها سيموفنيات لو سمعها بيتهوفن لخرّ صعقًا من الروعة.. أصوات إلقاء الزهر وطرقعة أكواب الشاي وكركرة الشيشة ونداء عم مصطفى على (أي حاجة قديمة للبيع) الأبدي كهذا البناء الصخري الماثل أمامي.. وأصوات تواشيح تلقيها حناجر ذهبية في قلب صحن جامع الرفاعي تختلط بصوت مغرفة أبو رامي وهي تقلب الفول في قدرته النحاسية باحثة عن قليل تمنحه لسائل محتاج.. أبواق سيارات الرامو الشبيهة بعلب السمن الصدئة تخالط سباب عبده الميكانيكي على صبيه الذي خط الشارب في رأسه مع أصوات نداء بحنجرة مراهقة خشنة تحاول أن تعطي طابعًا رجوليًا فظًا وهي تشدو (سيدة عيشة سيدة عيشة).. وأنوار قادمة من مآذن مسجد محمد علي تتلون في لون بنفسجي يلقي بعظمة فوق عظمة على جدران هذا البناء الشاهق كالطود خلف أسوار قلعة قفز منها إبراهيم بك هربًا من سيوف محمد علي..

وصوت أمي الواهن ينادي عليّ:

- أكرم.. أكرم

- إيه يا ماما بس اللي قوّمك من السرير؟؟

- الباب كان بيخبط بقاله ربع ساعة وانت ولا انت هنا..

وكيف لي أن أسمع يا أماه؟!! أترك كل هذه السيمفونيات العظيمة لأستمع لصوت طرق خجول من صاحبة الشعر الثائر والعينين العاشقتين التي تطلق سهام ابتساماتها من خلف ظهرك فتُرديني صريعًا!!

- أهلًا يا ولاء إزيك..

- أنا قولت إنت غايب بقالك كام يوم فا قولت آجي يعني اسأل عليك.. وبعدين طنط فتحتلي الباب وكانت بتحسبك مش هنا و..

- تشربي إيه؟؟

- شاي.. اشرب شاي..

ثم جرّت قدميها جرًا وخيبة الأمل تغزو قسمات وجهها الخمري الساحر واستقرت فوق المقعد الخشبي وعيناها تجوبان مآذن مسجد محمد علي، بينما تأبطتُ ذراع أمي نحو غرفتها..

- إنتَ موديني على فين؟!!

- على أوضتك ترتاحي طبعًا..

- ومين هيعمل الشاي للبنت؟؟

- أنا طبعًا.. هي دي محتاجة سؤال..

- إنت ناوي تخلّيني تيتة تاني إمتى يا واد!!

خافضة صوتها غامزة بعينيها حتى ردت إليّ أيامًا كانت ضحكتها الخبيثة اللعوب تفتضح أعذاري عندما أريد أن أتعذر بها أخفيه عنها..

- إيه رأيك فيها يا أمي؟

- ما تجاوبش سؤالي بسؤال يا واد..

- طيب جاوبي انتي الأول..

رأسها يدور نصف دورة حول رقبتها المتغضنة وعيناها تراقبان قسمات ولاء الهائمة في اللون البنفسجي فوق قبة محمد علي

- هي أمورة وبنت ناس وانا بحبها الصراحة..

- طيب ما تيجي نروح لمامتها نتفق على كتب الكتاب بقه..

ها هي ابتسامة سعادة تفجرت كماء تفجَّر بعد غيبة من بئر في واحة مهجورة ما أراه على قسمات أمي.. ولمعة قديمة كانت ترسلها إلى وجه أبي عندما يطلق كلمات مديحه المقتضبة على طبيخها الذي لا يماثله شيء!! ابتسامة أعقبتها دمعة شقت طريقها نحو خد تيبست وديانه...

- طب إنتي بتعيطي ليه بقه دلوقتي..

- الله يرحمه ريقه نشف معاك وانت ولا انت هنا.. كان نفسي يبقى معايا ويسمع الكلام ده بودانه.. يا ألف بركة

أجلستها فوق فراشها الرابض أسفل صورة ملونة باهتة لزفاف كان نتيجته صورة أخرى تقبع بجوار الفراش لصبيين وفتاة في عمر المدارس بجوار حقيبة بلاستيكية تحتوي من صنوف الأدوية ما لا يحصى..

- الله يرحمه عمره ما كان مش معانا يا أمي..

- الله يرحمه كان زي ما يكون عارف كل حاجة وفاهم كل حاجة يا بني.. كل لما كنت أقوله فلانة بنت فلان وخلّي أكرم يشوفها.. يبصلي من فوق النظارة ويقولي بملو فمه: "يا ولية أوانه لسه ما جاش" حتى يوم ما خطبت المخفية اللي اسمها...

- مالوش لزوم يا أمي راحت لحالها..

- بس يا واد خلّيني اكمل.. يومها شرب بقّ من القهوة وقالّي: "ربنا يا أكرم يعينك على اللي بعدها" ويوم ما قولتله اللي بعدها إيه يا حاج!! بدل ما تقول يجعلها جوازة العمر.. ضحك وبصّلي من فوق لتحت ودخل ينام!!

ثم أطلقت ضحكة رائقة لمست داخل قلبها شوقًا لنخلتها الما،
وراحت تجترّ بعقلها وقلبها خيوط ذكريات لا تنضب منابعها.. بينما
أنا أعد الشاي لتلك المسكينة الجالسة فوق كرسي صنع في مصنع اللا...
بالبصراوي وخاتم ذهبي عريض يلتف حول بنصرها الأيمن معلنًا أن
الأمر انتهى وأنها لي ولي فقط.

وما إن دخلت الشرفة عليها حتى جفلت ونظرت إليّ..

- أنا عرفت إنت مش معبرني بقالك أسبوع ليه.. حد يقعد القعدة دي
ويفتكر حدّ برضه!!

- بطلي سخافة واشربي الشاي قبل ما يبرد..

- طب وحياة عينيك الحلوة دي وحشتني..

- والله وانتي كمان..

ضحكة مجلجلة كتمت تبعاتها بطرف يدها أمام نظراتي المطلة شذرًا من
خلف نظارتي..

- وانتي بقه جاية لحدّ هنا الساعة عشرة عشان تقوليلي وحشتني
وبس..

- تصدق انا غلطانة إني عبرتك أصلًا.. أنا قايمة..

ثم همت بالنهوض فسددت طريقًا كانت لا تنوي اتخاذه وأجلستها
مجبرة..

- حقك عليّا.. أنا بقالي يومين مش مظبوط ودماغي بتودي وتجيب.

- إيه هتلحس كلامك ومش هتتجوزني؟

- يا بت اتنيلي على عينك.. الأول كان بمزاجي دلوقتي مقدرش خلاص.. أمر الله نفذ..

- جتك البلا في ملافظك..

ثم أشاحت بوجهها مدارية بسمة خاطفة على ركن شفتيها وسائل أحمر رقراق صبغ وجنتها الخمرية وهي تسوي خصلتين أبيا أن ينتظما في عقصة لشعرها الغجري المجنون..

- دماغك بتودي وتجيب في إيه؟

- في قضية الفوبيا..

- اشمعنى؟

- مش عارف يا ولاء.. مش بالع القفلة.. حاسس إن في حاجة مش مظبوطة.

- وإيه اللي جايبلك الإحساس ده يا بروفسير؟

شردت ببصري نحو جامع الرفاعي وأصوات التواشيح تخفت لتحل محلها همهمات وخيالات لأشخاص يعبرون الممرّ المسكي بين السلطان والشيخ..

- عارفة الممرّ ده ريحته مسك ليه؟

- ليه..

وكأنها تعودت مني على القفز من كل المراكب التي لا أقدر على قيادتها فتابعت:

- عشان الخشب بتاع جامع السلطان حسن خشب صندل متغطس في

مسك، والريحة من ساعتها ما تروحش منه أبدًا، وكل ما الهوا يخش في الممر يجيب الريحة..

- والله انت عسل.

التفت نحوها بعين تحاول أن تبقى على حالها لتصدم ببريق يعمي الأبصار ويذهب العقول..

- إنت مبلم فيّ كده ليه؟

- مبلم.!!! أنا اللي ملافظي منيلة.. نهايته.. مدي إيدك في شنطتك وطلعي اللي انتي جايبهولي معاكي.. يلا يا بت.

- بت اما تبتك ولو اني ما اعرفش معناها إيه.. وبعدين عرفت منين إن معايا حاجة في الشنطة؟

- عشان أنا ناصح ومفتح.. خلّصي بقه..

مدت يدها إلى قلب حقيبتها المصنوعة من قماش خشن وأطراف جلدية مهترئة وأخرجت مظروفًا أبيض في حجم متوسط كتب عليه بخط أنيق:

" يسلّم للأستاذ: أكرم فهمي باليد"

- إيه ده؟!!

- علمي علمك.. أنا عرفة أول ما اتصل بيا عديت تحت المخروبة خدت منه الظرف.. بالمناسبة بيسلم عليك وبيقولك إنه كلم حد في جرنان..

- بعدين بعدين.. أنا ماليش نفس لا لشغل ولا لنزول..

عيناي معلقتان فوق الظرف السميك.. والخط الأنيق الذي لا أعرف مثله ولم أره من قبل.. قال أبي يومًا إني خبير أعرف لمن ينتمي الخط من

أول كلمة أقرأها خطت به إذا كنت أعرف صاحب الخط.. هذا ليس لأحد أعرفه وأجزم بذلك قطعًا!

- أكرم..

- هممم..

- في إيه الظرف ده؟

- مش عارف والله يا حبيبتي.. عرفة ما قالكيش مين اللي وصله؟

- بيقول النهاردة الصبح عم طاهر لقاه على مكتبك القديم واداه لعرفة عشان هو عارف إنه الوحيد اللي لسه بيكلمك من الناس اللي في الجرنان.

ثم نهضت مسوية ثوبًا فضفاضًا من القطن المصبوغ بلون أزرق ومزين بقطع الخرز والخيوط الحمراء.

- إيه رايحة فين؟؟

- الساعة داخلة على حداشر وامي لسه بتخاف عليا زي ما اكون عيلة في ثانوي وأنا مش ناقصة..

- المفروض إنك خطيبتي باين وكتب كتابنا هيبقى كمان شهر كده ولا حاجة!!

تسمّرت في وقفتها وتحولت عيناها إلى وجهي مرسلة برسائلها الضوئية المتقطعة، فتحول وجهي إلى كتلة من سائل ملتهب يقبع في قاع بركان ثائر.

- إيه يا ولاء بتبصيلي كده ليه!!

- إنت قولت كتب كتابنا إيه؟

- آه أنا قررت أجيب أمي ونروح بكرة للحاجّة نقولها عايزين نا[illegible]
المرضوع عشان انا وبنتك سيرتنا بقت على كل لسان.. وبدل الـ[illegible]
والواد رايح الواد جاي آهو يبقى في حاجة شرعي لحد ما يفرجها
ربنا..

ثم قربت وجهي من وجهها المضيء ولمست أطراف اناملها لتسري فيّ كهرباء مستمرة بقوة ٢٢٠ فولت..

- مش بيقولوا كده باين في كتاب الأمهات؟

- بحبك

- الله يخرب بيت عينيكي.. امشي من هنا يا بت.. يلا..

الشمس تغرق وجهي والليل قد قارب منتصفه!! وولاء ترحل كفراشة جاءت من مكان بعيد تأتي منه الفراشات لتمنح رحيقًا لشجرة صندل عجوز وقف نموها منذ زمن!

- طيب بقه يا سيدي بما إننا بقينا لوحدنا.. ما تيجي نشرب كوباية الشاي ونشوف جواك إيه..

مخاطبًا الظرف الأبيض محاولًا فتح جانبه بدون أن أمزق ما بداخله كعادتي مع خطابات البنوك التي تتوعد بخراب بيتي أول كل شهر.. وما إن نجحت حتى سقطت صورة بلا ألوان من طرف المظروف لثلاثة رجال يرتدون ثيابًا شتوية ثقيلة.. لا؛ ليسوا ثلاثة رجال بل هم رجلان وامرأة، أحدهما يرتدي نظارة طبية عريضة من طراز كان شائعًا في ستينات القرن الماضي، والآخر له لحية ثائرة تشبه لحية صديق شبابي ديستويفسكي كما يصورونه.. أما المرأة فخصلة شقراء تظهر من أسفل قلنسوتها الصوفية وملامح روسية لا تخفى على عين أحد.

أسفل الصورة كتب بخط عربي أنيق:

البروفيسور تيودور ميخائيلوف.. الدكتور سليمان.. الدكتورة إلينا ميخائيلوف

لماذا يشبه هذا الخطُّ الخطَّ الذي كتبت به الجملة فوق المظروف؟؟

هناك ثلاث صفحات من الورق الذي يشبه ورق طباعة الكتب هذه الأيام.. خشن وثقيل طبع عليه كلمات بخط كومبيوتري واضح وإن كان منسقًا بعناية.

عدلت وضع نظارتي ورحت أبدأ القراءة..

" ابني العزيز / أكرم

اسمح لي أن أناديك بنفس النداء الذي كنت تحب أن أناديك به ولو لمرة أخيرة.. فالله وحده يعلم إن كانت رغبتك هذه ستبقى تتحرك بداخلك بعد أن تقرأ هذه الكلمات أم لا..

منذ أن بدأ هذا الأمر وأنا أقاوم رغبة داخلية عميقة تسيطر على جزء كبير من مكنوناتي أن أدق بابك في ليلة من الليالي وأضع بين يديك كل شيء؛ لعلك تغفر لي وتتفهم دوافعي التي دفعتني إلى هذا الفعل.. هذا الفعل الذي أملك دوافعي الشخصية القوية المبنية على قناعات لن تفهمها الآن.. ربما استوعبتها بعد عام أو عامين أو أعوام متلاحقة وربما لا.. إلا أنها سميت شخصية لأنها تخص الشخص نفسه ولا تخص غيره!

دعني أبدأ من الصفر.. أو من تحت الصفر إذا شئنا الدقة!

في نهايات عام ١٩٦٩ سافرت في بعثة إلى جامعة بطرسبرج في الاتحاد السوفيتي للحصول على رسالة الدكتوراة.. كنت شابًا يافعًا في نهايات عشريناتي حاصل على ماجستير في الأمراض النفسية وارتباطها بالتركيبة

المجتمعية بعد ثورة يوليو.. كان بحثًا مليئًا بالنفاق الصريح لسلطة يوليو
العسكرية وتأثيرها القوي على المجتمع.. كتبت كلمات من طراز فخيم من
مجتمع العدل والمساواة الذي قلّت فيه الأمراض النفسية المجتمعية وأصبح
مجتمعًا صريحًا شبه فاضل، تشوبه روح التعاون والمسئولية الملقاة على
عاتق... إلخ هذا الهراء.. لم أذكر بالطبع في رسالتي أي شيء عن مجتمع كان
أفراده يقولون: سعيدة يا هانم، فأصبحوا يقولون: صباح الخير يا عسل..
مجتمع كان يحاسب الشاب الأعزب لأنه ابتسم لسيدة لا يعرفها، فأصبح
مجتمعًا لا يعاقب شابًا يقبض على ذراع فتاة في أتوبيس النقل العام!

ومرَّ البحث بكل سلاسة بل وحصلت بعده على الماجستير بتقدير امتياز
مع مرتبة الشرف، وكنت أصغر من حصلوا على هذه الدرجة في دفعتي
كلها!!

ولك أن تتخيل.. تم ترشيحي للبعثة من ضمن خمسة حاصلين على
الماجستير في كلية الآداب بجامعة القاهرة.. خمسة ليس من بينهم المعيد
في قسم التاريخ الأستاذ الفاضل فهمي عبد الله حبيب والذي كان رجلًا
فاضلًا لا يستطيع قلب التاريخ على عقبيه إرضاء لمن يجلس فوق عرشه..
الأستاذ الفاضل الذي تحول من معيد في كلية الآداب إلى مدرس ابتدائي
متواضع بعد علقة ساخنة في أحد أقسام الشرطة النائية!!

أعرف أنك لا تحب الاسترسال ولكن اعذرني.. فإذا ذكرت الصراحة
لا بد أن يذكر والدك.. والدك الذي كان يومًا ملهمي وأستاذي وصديقي..
ثم أصبحت أتنكر منه ومن معرفته إلا من ساعات أقابله فيها على مقهى
متواضع بعيد عن أعين رجال المباحث!

وما إن حطت الطائرة في مطار بطرسبرج حتى لفحني هواء ديسمبر
البارد المقيت.. هواء جمد أطرافي وأنفي وجمد معه أحاسيسي وحنيني إلى
لحظات دافئة في شمس القاهرة..

وهناك قابلته..

رجل قصير القامة متقد الذكاء.. ترسل عيناه الضيقتان شرارة تبين لكل من يقابله أن هذا الرجل عبقري وتوقعك في أسر شبكته اللزجة منذ أول لحظة كعنكبوت ضخم فتك بذبابة قادمة من منابع النيل.. لحيته الرمادية الثائرة الشبيهة بصور ماركس وديستويفسكي.. وإيمانه العميق بأن هذه الدنيا لا تصلح بدون أفكار لينين وماركس وقبضة ستالين القرمزية!!

ولك أن تتخيل.. لقد وقعت في سحر البروفيسور ميخائيلوف منذ اللحظة الأولى.. منذ أن قابلته في مكتبه المتواضع في مباني الجامعة التاريخية وهو يرتدي نظارته المستديرة ويقرأ في أوراق مترجمة لرسالتي عن (تطبيق الارتباط الشرطي وأثره في العلاج النفسي عند الإنسان) موضوع فخيم كما يظهر من اسمه.. موضوع تعمقت فيه ودرسته حتى شربته وهضمته وأصبح شغلي الشاغل..

- بروفيسور ميخائيلوف؟؟

- دوبروي أوترا جوسبدين.

قالها بروسية فخيمة تخرج من فم يعرف كيف يتكلم الروسية.. روسية باردة كبرودة السماء التي تمطر نُدَفًا منذ خمسة أيام!

- عفوًا يا سيدي أنا لا أعرف من الروسية إلا القليل..

- كلكم كذلك أيها المصريون.. تأتون لنا لا تعرفون من لغتنا إلا القليل ثم تتحدثون بإنجليزية لا تجيدونها كذلك..

ثم رفع رأسه الصغيرة البيضاوية نحوي وحدجني بنظرته التي تطلق شررًا من العبقرية متابعًا بإنجليزيته التي لا تراعي أن حرف R لا ينطق متكررًا..

- استرح.. فلنأت لك بقليل من الفودكا حتى تستطيع التحدث بالروسية جيدًا..

- اعذرني يا سيدي ولكني مسلم ولا أشرب الخمور..

- مسلم.. وماذا في ذلك.. أبي وجدي كانوا مسلمين ولم يكفا عن شرب الفودكا حتى ماتوا.. إني أبارك للقدر أن ستالين لم يكن مسلمًا وإلا منعنا من شرب الفودكا.

ثم مد يده إلى درج مكتبه الخشبي المتشقق وأخرج زجاجة صغيرة صبّ منها قطرات في كوب زجاجي عريض.. وجرعها متلذذًا ثم تابع:

- كنت أقضي بعض الوقت في قراءة رسالتك الافتراضية.. إنها لا بأس بها تمامًا.. اون ايميت خروشيو ستركتورو.

- هذا من دواعي سروري.. إذا كان بناء الرسالة قد أعجبك فأتمنى أن نبدأ في ملاحظاتك على ما لم يعجبك.

- ملاحظاتي سنبدأها بعد الغداء.. إن تيودور العجوز يعرف كيف يكرم ضيوفه.

ثم مد يده إلى هاتف معدني كبير وطلب رقمًا راح يحدث صاحبه بكلمات طنانة مليئة بالخاء والكاف والراء المكررة النطق.. إلا أني ميزت فيها اسمًا لن أنساه طوال حياتي..

إيلينا...

و ما إن أغلق الخط وابتسم تلك الابتسامة المستهزئة بعينيّ التي تلف جدران الحجرة المرصعة بصور له مع أعضاء الحزب الشيوعي.. بل مع أبرزهم.. وصورة له وهو شاب مع ستالين شخصيًا وهو يقلده وسامًا ما.. وصورة أخرى مع بريجينيف نفسه وهو يقلده وسام البطل السوفيتي.. إن

هذا الرجل ضلع كبير وقوي في جمهوريات الستار الحديدي!!

ظل يراقبني ساخرًا وأنا أراقبه بطرف عيني وهو يراقبني حتى تحولت عيني إلى كويكب في مدار شمس كبيرة.. عندما حضرت الشمس للغرفة فلا يصح أن تذهب عيناك إلى غيرها.

إنها إيلينا..

جسد مشدود متناسق لا تخفي الثياب الثقيلة تناسقه.. وعينان خضراوتان ساحرتان، لو رآهما نزار قباني لغير أبيات قصيدته إلى (المرج الأخضر في عينيك.. يناديني نحو الأعمق).

شفتان تكونان أفضل فم عرفته النفس البشرية.. وخدان تحتاجان إلى أوسلر نفسه لوصف دقتهم التشريحية المتناهية مع شعر أشقر لو بيعت خصلته بالجرام لحولتها إلى أغنى أغنياء الأرض!!

إنها إيلينا..

- دوبروي اوترا بابا

- دوبري اوترا برنتسيسا.. أفضّل أن تتحدثي بالإنجليزية فضيفنا العزيز ابن ناصر لا يعرف سوى الإنجليزية..

- إذن.. هل يسمح لي السيد بمعرفة اسمه حتى أعرف كيف أناديه؟

- سليمان.. أحمد سليمان..

ثم مدت يدها لتصافحني.. يد خالية من أي قفاز فخلعت قفازي الجلدي المبطن ووضعت أصابعي الباردة المتجمدة في أحضان أصابعها الدافئة.. أصابعها التي حولت يدي إلى حديقة غنّاء لا تغيب عنها الشمس.. وابتسامة ساحرة تخرجك من دنياك الباردة القابضة إلى عالم من الطيور المزقزقة والحدائق الغناء!

ولك أن تتخيل يا بني كم أحببت روسيا بعدها..

كم أصبحت بطرسبرج هي المدينة التي تشرق منها الشمس وتغيب وكيف حولتني إلينا إلى روسي أسمر.. أتحدث اللغة كأهلها.. لا؛ بل وألقي بها النكات والدعابات، وكأني ولدت وتربيت عمري كله في بطرسبرج!!

وفي أحد الأيام الدافئة في أواسط مايو حدث ما لم أكن أعرف أن تأثيره على حياتي كلها بعد هذا اليوم.. يومها استدعاني البروفيسور إلى معمله بصحبة خطيبتي إيلينا.. الفتاة التي تحدت أقرانها وخطابها بذلك الشاب الأسمر القادم من بلاد ناصر!!

ومعمله ليس كما رسم خيالك المريض - كما أعرفك - صورته المتشابكة.. إنه مثل أي معمل لطبيب نفسي ومهتم بالقياسات النفسية.. بعض أجهزة رسام المخ العتيقة.. ومشغلات صوتيات وكاميرات مراقبة عتيقة تعود لأوائل الستينات.. وبعض أجهزة القياسات النفسية وأقفاص الحيوانات..

معمل أستاذ في الطب النفسي كما يمكن أن تجده في أي مكان على وجه الأرض..

يومها فقط شرح لي تجاربه وما كان يفعله طوال عشرين عامًا.. يومها فقط شرح لي ما بدأه في هذا المكان منذ أن كان شابًا في نهايات عشريناته وبأوامر عليا من الرفيق الأعلى جوزيف ستالين.. وما ظل يفعله في معمله طوال ثلاثين عامًا..

لن أسترسل في تفاصيل علمية قد لا تهمك كثيرًا.. إن ما كان يفعله البروفيسور ببساطة هو عمل تطهيري انتقائي.. كان البروفيسور يطهر مجتمعه من أمراض نفسية متأصلة حوّلت أصحابها إلى زوائد دودية أوشكت على الانفجار.. كل ما كان يفعله هو استئصال هذه الزوائد من داخل أمعاء

المجتمع.. شيء إذا أبقيته فلن يضرك حتى ينفجر فتموت.. لكن لماذا تترك الاحتمال له كي يبقى من الأساس؟؟ هذا ما كان يفعله تيودور العجوز في معمله ببساطة..

كل ما يمكن أن تتخيله كان يحدث يا أكرم.. كل ما قد تسمع عنه في حلقات برامج الأسرار الغامضة مما يحدث خلف الستار الحديدي.. وأدق الأسرار التي أخفاها السوفيت عنا... إلخ هذه الكلمات الرنانة في البرامج التلفزيونية والأفلام التسجيلية الكارثية كلها حدثت.. وإن كانت بنسب متفاوتة.. تجارب السموم على البشر.. مقاومة الأعضاء البشرية للصدمات المختلفة.. العلاج التطهيري من المخاوف الكامنة.. كل شيء.. كل هذا حدث في هذا المعمل..

- بروفيسور.. أنا عاجز عن قول أي شيء أو عن الردّ بأي شيء عن عرضك الكريم.. ولكن أن تعرف أنني سوف أعود إلى مصر بعد عامين.. ولن أستطيع أن أستكمل.

- ومن قال لك إنك ستستكمل شيئًا هنا.. ما يحدث هذه الأيام لا يبشر بالخير.. الرفيق بريجينيف لم يعد كما كان.. ويومًا ما سيسأل أحدهم عما يفعله المختل تيودور بكل تلك الأموال التي يمنحه لها الحزب لتجاربه.. لا بد من أن تسافر كل هذه البراعم إلى مكان آخر.. مكان يمنحها بعض الحرية كي تنمو وتترعرع وتطرح نتائج.. لا بد يا أحمد..

ثم أمسك بكلتا يدي، وتحولت نظرته العبقرية إلى نظرة عجوز ملتاع..

- أنا لم أنجب سوى إيلينا.. وليس لدي في هذا الكون أغلى منها ومن معملي هذا.. لذا سوف أضع كل شيء بين يديك.. إيلينا والمعمل.. لا بد أن تكمل يا بني.. لا بد أن تكمل...

رحت أومئ برأسي كالمندوه.. وهو يتهلل فرحًا ويضرب بكفيه ا.
كتفي معطفي الثقيل..

وجرفتني الدنيا كزبد البحر إلى شاطئ لا أعرف من معالمه شيئًا.. فر . .
أستكشف يومًا بعد يوم أي عالم أسود مظلم عبقري يحيى فيه هذا العبقـ . .
المجنون.. أي فلسفة مبدعة مجنونة قادته ليصل إلى هذه التجارب.. ها.
تتخيل يا أكرم لو نجحت تجاربه كيف سيكون حال هذا العالم.. إنسان لا
يموت بالسم ولا يخاف من النار ولا يخشى القفز من القطار ولا يكذب ولا
يسرق ولا يبيع نفسه مقابل المال.. كم من متسكع وشحاذ وعاهرة خرجت
بعد تجاربه إلى القبر أو إلى الجيش.. مجتمع كامل سيتحول إلى مجتمع الكمال
والفضيلة.. لا خطأ واحد.. يا للروعة!!

مرّت سنواتي الثلاث وأنا أحاول الوصول إلى قمة الإجادة لكل ما
يفعله.. لكل أساليبه وكل تقنياته العبقرية.. وأحاول أن لا أغرق كل الغرق
في مروج إيلينا الخضراء ولا في ذلك الكائن الهش النائم في مهد خشبي
أنيق.. نعم يا أكرم أنا أب لطفل آخر غير ابني الذي أحيا في كنفه منذ أن
صار شابًا.. ابنٌ حكَمتْ عليّ الأقدار ألا أعرف أين هو الآن.. دعنا لا
نستبق الأحداث.. دعنا نقفز فقط متجاوزين ما حدث..

لا تسألني عن تيودور العجوز ولا كيف وجدوه ملقى على وجهه في
شارع ضيق ورائحة الفودكا تفوح من فمه وشعيرات لحيته الثائرة.. لا
تحدثني عن إيلينا التي اختفت هي وطفلي العزيز في صبيحة يوم بارد من أيام
فبراير عام ١٩٧٣ .. ولا تسألني كيف حملت حملًا إلى طائرة مصر للطيران أنا
وحقيبتي الجلدية وأوراقي المشفرة بشفرة لا يعرفها أحد سواي أنا وتيودور
العجوز نحو مصر.. لا تسألني كيف قضيت شهوري الأولى وأنا أحاول
إقناع نفسي أن ما رأيته حلم ليس من دنيا الواقع في شيء!!

استكملت رسالتي القديمة التي ما عدت أفقه شيئًا ولا أعي شيئًا من حروفها.. وحصلت على الدكتوراة بفضل علاقاتي المتشعبة التي استمرت بعد انتهاء الناصرية وقدوم السادات إلى الحكم.. الإنسان لا يستطيع الحياة بدون علاقات يا بني.. وإلا فكيف أصبحت أنا أحمد سليمان وأصبح أبوك العلامة مدرس تاريخ في مدرسة ثانوية حقيرة!!

هذا نهر حياتي الثائر.. تزوجت وأنجبت ثلاثة من الأبناء والبنات كما تعرف أنت.. ومرت أيامي كمثل ما مرت.. راحت سنين عمري تحترق كشعيرات رأسي، ورحت أمارس دوري الذي اخترته لنفسي.. أستاذ التحليل النفسي في الصباح وطبيب ومحلل نفسي في المساء.. مدخرات أبي وأمي آلت إليّ، فرحتُ أقضي حياتي أتسلى بالجامعة وبالعيادة.. لا شيء عن روسيا وإيلينا ولا شيء عن سليمان، ولدي الذي لا أعرف إن كان حيًا أو ميتًا.. فقط هناك ذلك المكان في عقلي يذكرني كل ليلة أن هناك أوراقًا تقبع هناك في ملف كبير في مكتبتي التي مددت يدك اليها مرارًا وتكرارًا وأنت مراهق تبتغي كتابًا تقرؤه.. رحت أراقب المجتمع الذي راح ينحدر وينحدر.. من صباح الخير يا عسل.. الى صباح الفل يا بت.. إلى صباح الجمال يا مزة.. من تلك الكائنات التي ترعى في الشوارع كالأغنام.. من السينمات التي امتلأت بأفلام قذرة تلقي بكل قذارتها في عقول من يشاهدونها.. تخيلت لو كان تيودور العجوز هنا.. لما كفاه أن يفجّر قنبلة نووية في قلب هذا المجتمع، والتقط من نجا منها ليكوّن بهم نواة مجتمع جديد كما كان يحلم!!

حتى جاء ذلك اليوم..

في نهايات ٢٠١١.. جاءني جمال إبراهيم.. في ليلة باردة من ليالي ديسمبر.. دفع أجرة الكشف البسيطة.. وطلب أن يقابلني..

كان أربعينيًا محبطًا كما يبدو لك من أول وهلة.. راضيًا بكل ما في حياته من إحباطات بعد أن تتبادل معه خمس جمل مكتملة.. إجابات ذكية منطقية لكل شيء لدرجة تفقد معها صوابك.. إن مثل هذا لا يحتاج إلى طبيب نفسي أبدًا!!

- ما شاء الله يا أستاذ جمال.. إنت بالنسبة لي مكتمل الصحة النفسية وراضي عن حياتك أوي.. شغلك البسيط التافه زي ما بتقول.. اللي مالوش علاقة بمؤهلك مش مدايقك في حاجة.. عيشتك في شقة صغيرة من غير زوجة ولا ولد مش مدايقاك..

- الحمد لله كله نعمة من عند ربنا غيرنا مش لاقيها..

- طب أعذرني بقه.. كده بدون أدنى مجاملة.. إنت مشرفني في العيادة ليه النهاردة؟ لو حضرتك ما قريتش اليافطة كويس على الباب.. فا احب اقولك إن دي عيادة نفسية مش عيادة باطنة..

نظر لي بهدوء والتمعت على شفتيه ضحكة ساخرة..

- حضرتك بتضحك على إيه؟!!

- على الدكتور النفسي اللي أول مرة يقابلني يتنرفز.. هو انا لسه قولت حاجة.. إهدى يا دكتور إذا سمحت واسمعني للآخر.

جلست طالبًا قليلًا من الهدوء وقليلًا من التوضيح.. فأخرج من جيبه ذلك الكائن الجمادي المهترئ..

كتاب مهترئ مغلف بغلاف من الجلد الصناعي حفر عليه اسم أعرفه جيدًا بحكم عملي ومجال خبرتي.. واسم آخر لم أسمع به من قبل في حياتي.

- الرُّهاب.. اسم مش منتشر بس على ما أعتقد هو يقصد الفوبيا يعني..

- توقعك سليم يا دكتور..

- وإبراهيم صفوت ده يبقى مين.. أنا أول مرة أسمع عنه!!

- هي دي مشكلة حياتي اللي انا مش لاقيلها علاج يا دكتور.. مفيش أي حدّ سمع عنه.. لحد ما فلّس وافتقر ومات بحسرته.. ببساطة يا دكتور.. الكتاب ده كان سبب تعاستي طول عمري..

بدأ يسرق انتباهي واهتمامي قليلًا..

- ممكن توضح أكتر أنا عايز اسمعك..

- ببساطة يا دكتور.. إبراهيم صفوت ده يبقى والدي..

وراح يحكي لي قصته التي عرفت أنك عرفتها.. عن حلمه المريض وعن وصية شقيقه مسعد التي تنغص عليه حياته.. عن هروبه من كل شيء في هذه الحياة حتى وصل إلى مركزه في شركة الأدوية وعن كل ما يقدر عليه بحكم وظيفته وكل السلطات التي أصبح يملكها في يده.

هناك فقط ذهبت عيناي إلى ذلك الملف القابع في مكتبتي.. هناك فقط استيقظ ذلك الجزء الرابض في عقلي.. إن تيودور العجوز يستحق أن تحقق أمنيته.. إنها الفرصة التي ستأتي على طبق من ذهب لا يقدر على رفضها إلا معتوه.. حلمي الذي استكان ونام في تلافيف عقلي يصحو الآن طالبًا النجاة من النسيان..

ولِمَ لا.. أسألك أنا ولِمَ لا يا أكرم.. هل ترى في هذا المجتمع شيئًا يستحق أن يبقى؟؟ هل تراه خاليًا من تلك النواقص التي تحدث عنها تيودور العجوز يومًا؟؟ إنه يحتاج إلى علاج تطهيري وتدخل جراحي سريع.. إن الأمعاء امتلأت بالزوائد الدودية، وكان لا بد لها من استئصال سريع.. إذن فلنجعله استئصالًا مدوّيًا يسمع عنه الجميع.. ربما انصلح شيء فيه وربما

لا .. إلا أنني سأكون حققت حلمي ووصية تيودور العجوز..

لن تقتنع يا أكرم ولن تفهمني.. إذن دعني أكمل لك كشف كل الأوراق
إذن، ربما أكون قد فعلت شيئًا جيدًا قبل أن أرحل من قلبك إلى الأبد..

راحت الخطة تتكون في رأسي وتنمو.. الآن هناك دافع لكل هذه الأفعال التي ننوي ارتكابها أنا وجمال.. إذا سقط يومًا في قبضة الشرطة سيكون مجرد مجنون ينفذ ما جاء في كتاب أبيه المتواضع الموهبة ليجعله مشهورًا بعد أن مات كمدًا.. فكرة جميلة رحت ألعب على أوتارها وأعزف فوق أصابعها أجمل السيمفونيات.. يتبقى لنا إذن طريقة تنفيذها وعلى من ننفذها.. هنا فقط ظهر عصام.. طبيب شابّ في أوائل ثلاثيناته.. جاء إليّ بتوصية من أستاذه وصديقي في نفس الوقت.. إنه يعاني من بعض الآلام في حوضه.. وكل الفحوصات والتقارير الطبية تحوم بأنه سليم بلا أدنى خدش.. هو فقط فقير معلم.. محبط.. لا يملك من الدنيا سوى عيادة في حدائق المعادي لم يدفع إيجارها منذ خمسة شهور.. ومطعون عاطفيًا.. خطيبته السابقة سلمت نفسها مختارة راضية إلى رجل آخر، وراحت تطارحه الغرام حتى اكتشف المطعون بنفسه ما حدث.. هنا بدأت الآلام تغزوه.. لا يعرف أهي آلام الخيانة أم الإحباط أم رسالة الماجستير في طب المناطق الحارة التي لا يقدر على الإنفاق عليها.. حتى أنه ألقى بنفسه في علاقة خطوية مع فتاة قبيحة مريضة حتى لا تخونه ولا تجد من تخونه معه.. ذكي.. بل عبقري.. كان من أوائل دفعته واختار المناطق الحارة لحبه في هذا المجال المتشابك.. إلا أنه بارع بشدة في الكيمياء ومتقد الموهبة في أمراض الدم.. كما أنه ملمّ بكل أنواع السموم والتأثيرات الدوائية المختلفة.. إذن ماذا ينقصنا حتى نضعه في صفّنا.. المال.. ما أكثره.. إن جمال يمتلك الكثير وأنا أمتلك الأكثر.. وعصام كان مصابًا بضعف كبير أمام المال.. إذن فلمَ لا ..؟!!

رحنا نخطط جميعًا.. جمال بحماسه المتّقد وجرعات الشحن المعنوي

التي أمنحها له كعلاج.. وعصام بحماسه اللامتناهي للمال.. وأنا.. بحماسي الأبدي لتحقيق وصية الرجل الذي وهبني حلمه.. وابنته..

وكعادة كل خطة محكمة كان لا بد من بعض البيادق على اللوح.. حلمي الشاب الذي يعمل لدي مساء في العيادة وصباحًا كعاطل.. توّاق للمال.. قادم من بيئة منحطة لا تعرف قيمة لأي شيء سوى قيمته المادية أو الجنسية.. كان إغراؤه سهلًا.. سهلًا لدرجة أني لم أبذل مجهودًا معه لشراء ولائه لي!!

ورحنا نرسم جوانب خطتنا؛ كلٌّ حسب قناعاته وأهدافه.. كان التحدي الأكبر لي هو كيف تروّض هذه الوحوش نحو هدف واحد.. هو تحقيق أهدافهم الصغيرة في إطار عمل عظيم تريد أنت استكماله.. هل تعلم أن الخطة لو استمرت على منوالها الأول في الأيام الأربعة الأولى لتحول هذا المجتمع في شهر واحد إلى مجتمع كامل بنسبة ٨٠ ٪.. لا تضحك مني ولا تهزأ بعمك العجوز.. أنا أعرف هذا الشعب أكثر منك يا بني.. إنه لا يرتدي ثوب الفضيلة إلا في المصائب أو في الانتصارات المدوية.. ألم تر كيف كنس الشوارع ودهن الأرصفة يوم الثاني عشر من فبراير؟ هل تعرف كم من رجل كبير أصبح يضع عينيه على ما يفعله ابنه المراهق بعد حادثة عَبَدة الشيطان الشهيرة؟ ألا تعرف كم رجلًا وكم امرأة أمرت ابنتها بالتحشم بعد تكرار حوادث الاغتصاب في التسعينات؟ إنه مجتمع التفكير العكسي يا بني.. المجتمع الذي لا يعمل ولا يحافظ على تكوينه وتدينه إلا لو ألّمت به مصيبة أو أصابه نصر كبير.!!

كان لا بد من انتقاء عيناتنا بعناية.. كانت فكرتي أن نبدأ بذلك المتأسلم متعاطي الحشيش.. ماذا لو فُضح في كل مكان، وعَرف الجميع أن قيادي الحزب الشهير الذي ينادي بتطبيق الشريعة هو في الأساس حشاش ومتزوج سرًّيا براقصة معتزلة.. سيعرف الجميع أي هاوية يقودنا إليها هؤلاء.. سيرجع الكثيرون من شعبنا العاطفي إلى الحقيقة، ويبدأ هذا الحزب القوي

في التفكك والانحلال حتى يسقط من داخله.. ماذا لو عرف الجميع ا، الفتاة المريضة البريئة ظاهريًا هي وحش يلتهم ضحاياه على فراش الخيانة وأنها ارتكبت أفعالها مع كل من صادفتهم وهي مخطوبة لطبيب شاب واعد؟ المرض ضعف.. والضعف يلقي بالمجتمع إلى الهاوية.. ألا ترى كيف يسقط مجتمعنا بسبب كل هؤلاء المرضى بالكبد الوبائي والسرطان والسكر؟ ماذا سيحدث لو تخلصنا منهم.. سيبقى من يستحق أن يبقى فقط.. من يستطيع أن يكون جيلًا جديدًا يقوى على البقاء.. ألم تسمع في حياتك عن الانتقاء في سلالات الحشرات.. ألم تسمع كيف يطور كل فيروس نفسه ليفتك بالمزيد.. إذن لمَ لا يطور الإنسان نفسه حتى يصبح قادرًا على البقاء والصمود؟!!

لاعب الكرة كانت فكرة جمال.. لماذا يحصل هذا الجاهل عديم الموهبة على ملايين الجنيهات؟ لماذا يبقى ملء السمع والبصر، وشقيقه الكادح المكافح العبقري في دائرة النسيان في شرنقة حقيرة في حي عشوائي لا يكاد يكسب قوت يومه فيدفن مع المدفونين تحت تراب النسيان الأبدي؟؟ الحقيقة أن عصام أبدى مرونة مدهشة تثبت أنه يعشق شقيقه الأصغر.. بل إنه نفذ الخطة بنفسه وبيديه.. نعم كان معترضًا في البداية، ولكن المبلغ ذا الخمسة أصفار أسال لعابًا لم يَسِل من قبل.. وذكّره أن أخاه عاقّ فاسد لم يكن يومًا عونًا له ولا لأبيه ولا لأمه!!

كنا نتحرك في مجموعات صغيرة وفي نفس الوقت.. غرفة عمليات في تلك العوامة، أجلس فيها أمام هواتف محمولة لم أتصور يومًا أن أحمل مثلها لنفسي.. عملية تنفذ هنا وعملية تنفذ هناك.. وأنا مثل القائد المظفر أتلقى رسائل التأكيد بالنصر ومهمتي تتحقق.. ويومًا ما سوف أتلقى رسالة العملية المليون.. يومها فقط أستريح وأنا أراقب هذا المجتمع ينقلب على شيطانيته البغيضة ويتطور إلى ما نبتغيه جميعًا..

كلهم يستحقون يا صغيري فلا تأسف عليهم.. علاء البلطيمي.. أمل

الخائنة القذرة المريضة.. هيثم لاعب الكرة الجاهل.. غريب العاطل الجبان..

حتى مقتل ذلك السائق كان اتفاقًا بيني وبين حلمي دونًا عن باقي المجموعة.. لكنه مثلهم يستحق.. هل تعرف كم روحًا أزهق هذا السائق بسبب تعاطيه المستديم للترامادول؟ حتى أن الأقراص التي زرعها له حلمي في الشاي لم تكفِ للقضاء عليه فتبعه حتى خنقه!!

هنا ظهرت أنت وعماد بأنوفكم الكبيرة في قلب الأمر.. لماذا اختاروا عماد من دون كل ضباط المباحث؟؟ لأن قوةً ما ترفض أن أستكمل حلمي وهدفي.. قوة شيطانية ماكرة.. إذن لا بد أن أتدخل.. لا بد أن ألقي ببعض ثعابيني أمامكم علّها تسحركم وتشتت تركيزكم.. وعماد يا صديقي محدود الخيال لا يرى أبعد من قدميه.. ولولا وجودك أنت لاقتنع بالقاتل الذي يركض خلف الكتاب وحروفه وأرقام صفحاته، وراح يدور في هذه الدوامة حتى يلقى الله شاكرًا راضيًا أنه فعل كل ما يستطيع فعله!!

فقط بدأ كل شيء حين قرر عصام أن الفتك بسكرتيرتي سمية هو الخطوة القادمة.. هنا بدأت أشعر أن المرض تملك منه.. إنه لا يرى في حياته سوى نسوة خائنات لا بد من التخلص منهم.. تعدى هذا الأمر حب المال ووصل لحب الانتقام، وهذا ليس من أخلاقي ولا من حلمي في شيء.. أنا أحقق مهمة سامية هنا - أيًا كانت وجهة نظرك في وسيلة تحقيقها - فلماذا أنجرف نحو سيل الانتقام هذا؟؟

جمال كان مؤيدًا وبشدة.. كان يرى مثلما رأى سابقًا عندما سلم نفسه بنفسه للشرطة أن هذه الخطوة مهمة في إبعاد الشبهات عني... وأنني لا بد ألا أنفرد بالقرار وحدي.. يومها فقط عرفت كيف أن مروّض الأسود لا بد أن يأخذ حذره من الأسود أولًا وليس من مشاهديها.. وبعد أن افترقنا على أن هذه الخطوة ليست بالصحيحة.. فوجئت بذلك الضابط علي يتصل بي ويعلمني بما حدث.. أنت تعرف يا أكرم أنني لست ممثلًا ناجحًا ولكنك

أيضًا لا تدرس انفعالات الوجه بنجاح.. كل مرة تحدثنا فيها كانت تبرز مني أشياء قد تجعل أي محقق ذكي واسع الخيال يشك فيّ شخصيًّا.. حتى ذلك الانفعال المفتعل الذي مارسته يوم مقتل سمية لم يكن ليخدع طالبًا في معهد الفنون المسرحية.. لكنك لم تكن لتشكّ بعمك أحمد العجوز.. يومها كنت قررت أني لا بد أن أضع نهاية لهذه الخطة.. إن الأمر يخرج من الطور الذي رسمته ووضعته بعناية إلى طور آخر لا قبل لي به!

إلا أن الأسود انقلبت على مربيها.. وإلا فكيف تفسر سرقة أسد من السيرك ووضعه في غرفة رجل بائس مثل زوج شقيقة عصام؟ ماذا فعل؟ كان بخيلًا نعم وكان مُقَتِّرًا ورفض أن يعالج زوجته المريضة المخلصة، ولكن من منا ليس له أولويات قد يراها البعض ثانويات؟؟ تقول لي إنه نموذج مناسب لاستكمال خطتي وعملي الأسمى.. لا يا عزيزي.. بل لو كان نصف هذا المجتمع مثل محسن لكان لدينا الكثير من المال لنفعل به الكثير والكثير..

هنا فقط بدأت اللعبة تتخذ مسارًا جديدًا.. صورتي على جهاز كمبيوتر المصور.. القضاء على حلمي.. ثم أكتشف أن جمال لم يكن كما تصورت.. إن جمال يتحرك بسرعة مبهرة نحو تحقيق هدفه هو.. إن جمال حولني أنا شخصيًّا لوسيلة يحقق بها هدفه الأسمى الذي يؤرق عليه حياته.. إن جمال هو من وضع لك العلامة فوق صفحات الكتاب لتعرف أن النهاية ستكون هناك.. في النيل.. ربما في العوامة التي استأجرها عصام من مالي الخاص.. ربما فوق الكوبري كما تقول القصة.. هو أرادك هناك.. هو عرف كيف يضع لك الجرعة بالصورة التي لا تميتك ولا تحييك.. جمال عرف جيدًا أن أخصائية السموم سوف تنقذك ولكنها لن تنقذ الضابط.. الضابط الذي عرف كل شيء قبل مقتله بيومين من غير المأسوف عليه حلمي إبليس مرشده القديم.. وكان لا بد من نهاية.. أتفق مع جمال أن النهاية هنا كانت

مطلوبة.. وإلا ما كنت هنا أكتب لك هذه الكلمات ولا كنت أنت أنرت هذا النفق المظلم في دروب عقلك..

تسألني لِمَ لم يقرّ جمال بأني كنت هنا من البداية.. وهل تعتقد أنه ساذج لدرجة أن يفسد نهاية حلمه؟؟ لا بد أن يكون هو المخطط والمنفذ.. لا بد أن يكون هو صاحب مشهد النهاية.. لقد انتظركم هناك.. انتظركم وأتيتم كما أراد.. وضع لك طرف الخيط.. وعرف أنك سوف تنهض كي تلقي لعماد به.. وعرف أن فضولك سيقودك إلى هناك وأنت بين الموت والحياة.. لقد كان جمال أذكى وأمهر مني وأكثر قدرة على تنفيذ حلمه.. وأظن أنك تقرأ الصحف والمواقع الآن.. وتعرف كيف تلقفت دار نشر كبرى كتاب أبيه محدود الموهبة.. وكيف أصبح ملء السمع والبصر!! بينما اعذرني يا صديقي.. أين أنت الآن.. وأين عماد.. وأين علام.. وأين آمال.. وأين أنا؟!!

نحن جميعًا كنا بيادق في لوحة جمال إبراهيم.. كان التحريك مسئوليته هو وليس مسئوليتنا نحن.. جمال أخرج مخاوفنا جميعها ووضعها أمام أعيننا البائسة حتى نتحرك نحوها.. أنت تخاف من النسيان مثل أبيك العلامة المنسي.. عماد يخاف من الفشل ومن الجلوس في منزله وحيدًا مثل أبيه اللواء المتقاعد بعد أن كان ملء السمع والبصر.. إذن فليتحركوا.. فليقتربوا من الحقيقة قدر المستطاع.. فليصنعوا هالة حول ما أريد حتى يصبح مقدسًا تلتف حوله الفراشات!!

لا أظن يا بني أنك ستلوم عليًا.. فلا أظن أن قيمًا تبلى مع من هم في عمري ممن هم في عمرك، سوف تحرك مشاعرك نحو كراهيتي ولومي.. طبعًا أنا أفترض فيك ذكاء أعرفه جيدًا وأعرف أنك لن تقدم هذه الأوراق إلى أي جهة رسمية وإلا اتهموك بالجنون، وربما انتدبوني لعلاجك.. كما أنك

تعرف الآن أنني لست في الكويت ولست عند ابني.. لو توخيت الدقة.. أنا لست في أي مكان تعرفه!!

لو كنا في زمن آخر يحترم من هم في عمري لكان يقدم لي وسام على ما أفعله.. لو حكم رجل مثل ستالين أو بريجينيف بلادنا لكنت الآن في قمة الهرم أكافأ على ما خططت لفعله، ولدرست فعلتي هذه في الجامعات والمدارس.. لكننا في زمن آخر.. زمن يتهم كهلًا عجوزًا مثلي بالخرف لمجرد أنه يريد دواء صحيًا يعينه على آلام آخر عمره.. ويريد فراشًا نظيفًا يموت عليه.. بعيدًا عن خرف شباب لا يعرف شيئًا سوى اتهام من هم مثلي بالخرف..

أنا اقتربت من الحقيقة الكبرى يا بني.. الحقيقة التي رأيت قبسها في غفوتك.. لكنك بعد لم تقترب سوى من قبس منها.. هو قبس يذبل ويذوي فلا يبقى منه شيء..

سوف أستعير كلماتك التي كنت تغمغم بها في غيبوبتك حتى أغلق بها ذلك الباب..:

"وهنا فقط سقطت الأوراق من بين يدي.. مع سقوط عيني على تلك الكلمات التي أراها الآن كضوء نيون ملون في لوحة إعلانات كبيرة.. وسقوط دمعة احتبست من الصدمة فسقطت فوق الكلمات الثلاث لاعنة كل يوم بقت فيه داخل مقلتي الكريهة..

لقد تلقيت يومًا ذلك القبس.. تلك الإشارة التي تثبت لي أنني لم أكن مغفلًا.. والآن فقط كم أتمنى لو كنت.!!

الظلام.. الحقيقة.. المعرفة..

ويا ليتني ما عرفت!!

شكر خاص

حاولت أن أتقمص هنا شخصية أحد الكتاب الشهيرين وأكتب الكثير من كلمات الشكر، إلا أني وجدت أن الكلمات فعلًا قد لا تكفي لشكرهم وإيفاء حقهم..

الأستاذ/ هاني عبدالله

الناشر الذي يعرف كيف يصنع من كتاباتك وكلماتك شيئًا يُقرأ ويلمس ويحس وينتزع آهات الناس، هو بطل خارق يستحق أن تكتب في سيرته ملاحم شعرية وليس سطرًا من شكر عبد فقير..

الكاتب والصديق/ أحمد عبد المجيد

أكثر من دعمني ووقف إلى جواري حتى ترى روايتي النور.. كانت آراؤه الهامة والصادقة دافعًا كبيرًا وقويًا لي كي أخرج كل ما عندي.. شكرًا يا صديقي..

الكاتب والصديق/ محمد عبد القوي مصيلحي

عندما لا ترى أمامك نورًا في نهاية النفق.. اذهب إليه، وسوف تصنع كلماته معولًا يهدم كل حاجز أمام طريقك.. اشكره لأنه كان مساندًا ودافعًا وصديقًا..

الكاتب والصديق الغائب/ محمد الدسوقي

يومًا ما قلت لي: اكتب ولا تخف.. أنت تملك داخلك تلك الماكينة التي تجمع الحروف وتصقلها وتطليها بلون لامع كي تخرج إلى النور.. وها أنا ذا أكتب يا عزيزي.. اكتب بكل ما أوتيت من قوة.

المراجع

- مصنف حالات الرهاب والخوف المرضي - الطبعة الخامسة ٢٠١١ - نيوهاربنجر للنشر

The Anxiety & Phobia Workbook 5th ed· New Harbinger Publications·

- الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية - الطبعة الرابعة ١٩٩٤ - الجمعية الأمريكية للطب النفسي

Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders, 4th ed. American

Psychiatric Association 1994.

- دائرة المعارف البريطانية - الموقع الإلكتروني

ENCYCLOBEDIA BRITANNICA - www.britannica.com

- موسوعة النباتات الطبية - يناير ٢٠٠٢ - دي كيه للنشر

The Encyclopaedia of Medicinal Plants - January 2002 by DK Publishing

- كتيب الوصفات البريطاني: الجمعية الطبية البريطانية - الجمعية الصيدلانية الملكية البريطانية

The BNF; British Medical Association - Royal Pharmaceutical Society of Great.

- طبيب نفساني دوت كوم - إشراف د. محمد شريف سالم - الموقع الإلكتروني

www.tabibnafsany.com

- موسوعة المعرفة - الأعداد الورقية والموقع الإلكتروني

www·marefa·org

آثار جانبية

جرائم قتل متتالية يرتكبها قاتل غامض.. يترك بجوار جثته مجموعة قصصية قديمة مفتوحة على قصة تمثل تلك الجريمة..

أسئلة كثيرة ترفض العثور على إجابات لها.. وضابط مجتهد يُحاول أن يحافظ على وظيفته.. يستعين بصديقه الصحفي المشاغب في رحلة يسبحان فيها ضدّ التيّار في زمن لا يُحبّ من يسبح ضدّ تيّاره.. رحلة قد تُكلّفهما كلّ ما يملكان.. إلا أنهما لا يعرفان أن القدر يُخبئ لهما مفاجأة قد تقلب حياتهما فلا تعود كما كانت.. قدر قد وضع في طريقهما أقدم أعداء البشرية.. الخوف!



ميسره الدنداروي

كاتب شاب من مواليد القاهرة عام ١٩٨٠.. تخرّج عام ٢٠٠٣ من كليّة الهندسة.. صدرت له مجموعة قصصية عام ٢٠١١ ورواية عام ٢٠١٣ وآثار جانبية هي روايته الثانية..



للنشر والتوزيع